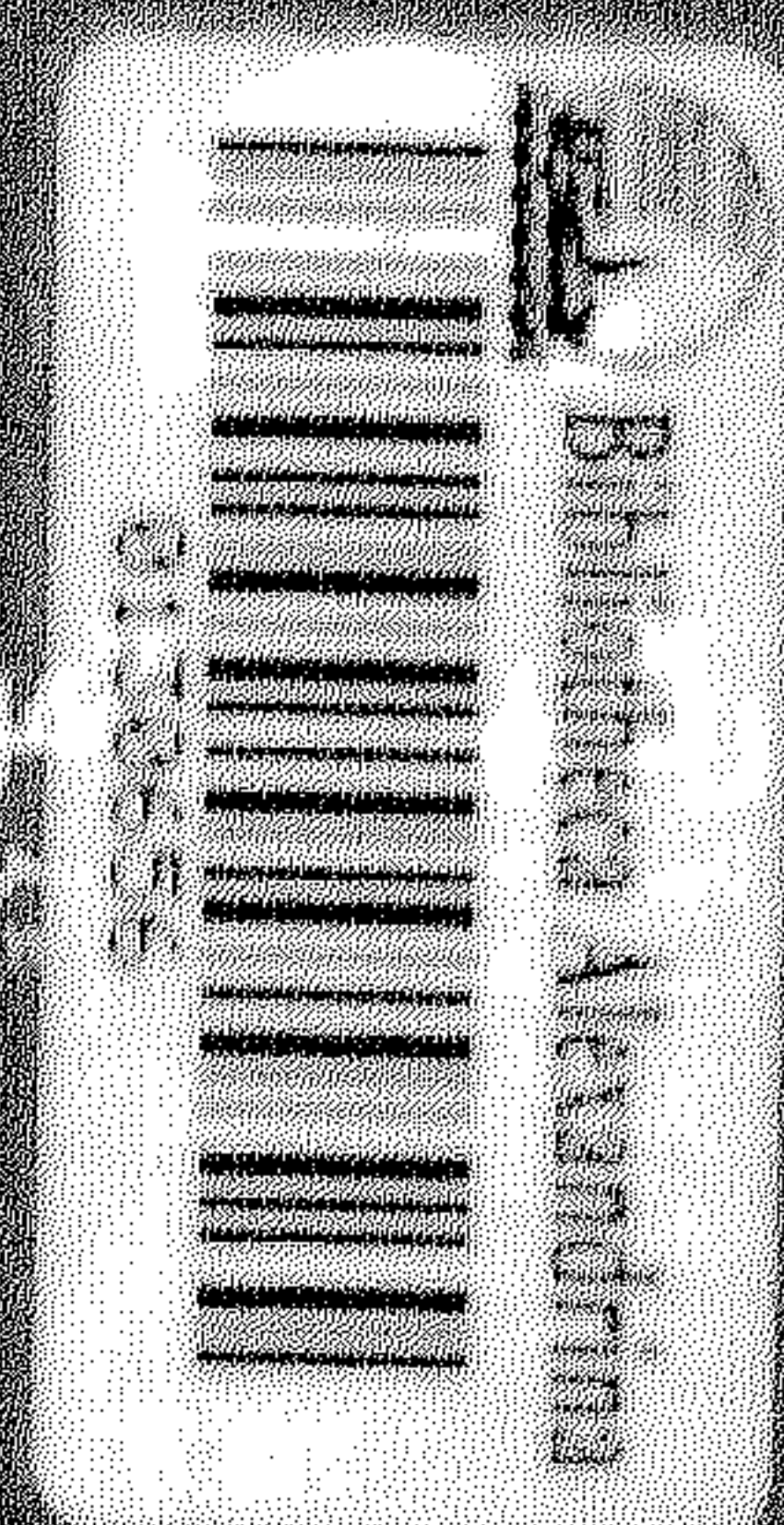




مَسَالِم حضارات الشرق الاوسط القديم

الدكتور محمد أبو النجاشي





الدكتور محمد أبو المجدى حسن عصفور

استاذ بجامعة بيروت العربية

دار النهضة العربية

للطباعة والنشر
بيروت - ص.ب. ١١٠٧١



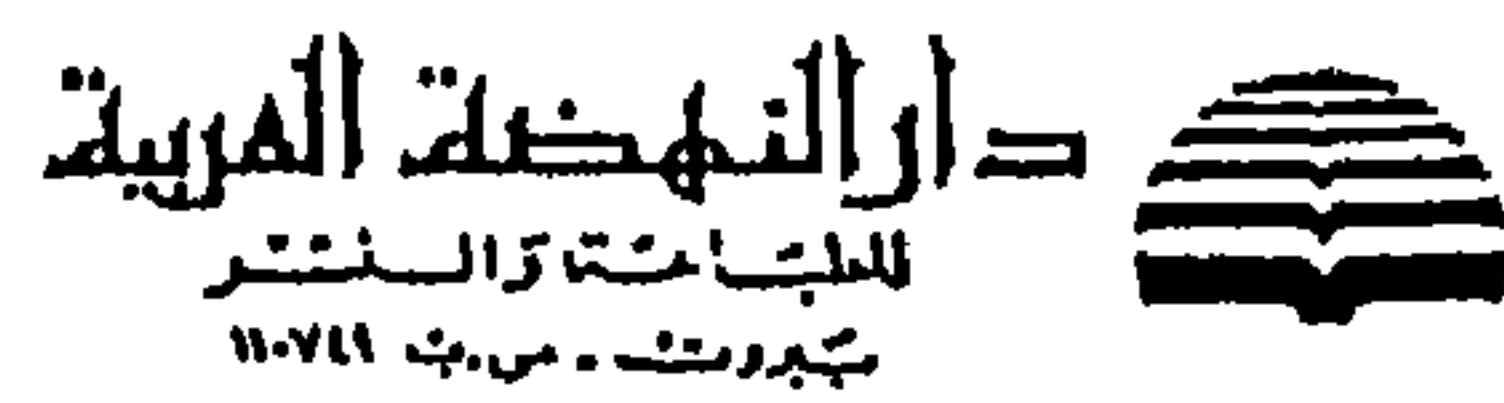
إهداء

اختلفنا نشأة ولغة ودينا . . . ولكنني أتمثل فيها قول الرسول عن
الزوجة الصالحة : « إذا نظرت إليها أسرتك وإن غبت عنها حفظتك
في مالك وعرضك وإن أمرتها أطاعتك » . . . وبعد أن أسبغ الله عليها
نعمة الإسلام زادت مكانة عندي .

فإليها أهدي هذا

حقوق الطبع محفوظة

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م



* الإدارة: بيروت، شارع مدحت باشا، بناية
كريدية، تلفون: ٣٠٣٨١٦ /
٣١٢٢١٣ / ٣٠٩٨٣٠
برقياً: دانضة، ص.ب ٧٤٩-١١
تلکس: NAHDA 40290 LE
29354 LE

* المكتبة: شارع البستاني، بناية اسكندراني
رقم ٣، غربي الجامعة العربية،
تلفون: ٣١٦٢٠٢

* المستودع: بئر حسن، تلفون: ٨٣٣١٨٠

مقدمة

كان الاعتقاد السائد لدى الكثيرين إلى زمن قريب أن دراسة الحضارات القديمة ، لا يتناولها بالبحث إلا بعض الخاصة من المرفهين أو المترفين الذين يشبعون هوايتهم في التعمق في الدراسة والبحث عن المجهول . ولكن نظرا لأن كل ما تزخر به الحياة الراهنة من منتجات وخبرات وعادات وتقاليد ومظاهر مختلفة أخرى إنما ترجع في أصولها إلى مختلف الجهود البشرية ، وقد وضعت أسسها منذ عصور سحيقة وتطورت بمرور الزمن حتى وصلت إلى ما وصلت إليه الآن فإن هذه الدراسة لم تعد موضوعا قاصرا على فئة من الناس بل ولا يمكن أن تفضل دراسة حضارة أمة على حضارة أمة أخرى غيرها ، ولذا أخذ الاهتمام بها يتزايد حتى أصبحت دراستها منتشرة في جميع أنحاء العالم المتمدين وكثيرا ما تتضافر جهود الباحثين من مختلف الدول والشعوب في دراسة الحضارات القديمة وتشجيعها على اعتبار أنها التراث الإنساني الذي استمدت منه مختلف الأمم أصول حضاراتها الحالية ، ومن ثم يعملون على توفير أسباب هذه الدراسة بموالاته الكشف الأثرية وترميم الآثار المختلفة ويعكفون على دراسة اللغات القديمة حتى يتمكنوا من وضع صورة حية أو قريبة من الواقع لهذه الحضارات ومظاهرها المختلفة ، وهكذا تشعبت فروع البحث وتعددت نواحيه حتى أصبح

من المستحيل أن يلم باحث أو دارس بحضارات مختلفة بل ولا بمختلف نواحي حضارة واحدة وعلى ذلك فإن وضع مؤلف واحد لعدد من الحضارات لا يمكن أن يكون جامعا ، انما يرضى كل الرغبات ويسد كل الفجوات .

ومع أنى ترددت كثيرا في وضع هذا المؤلف إلا أنى وجدت أن الضرورة تقضى بأن أيسر على طلبة بعض الشيء وأجنبهم مشقة البحث في العديد من المراجع لمجرد سرعة الاطلاع على المعالم الرئيسية للحضارات الإقليم الذى نعيش فيه ، الشرق الأدنى ، ، على أنه ينبغي أن لا يفهم من ذلك أن فى هذا المؤلف غنى عن الإطلاع على مختلف المراجع المتخصصة فى دراسة هذه الحضارات ونواحيها المتعددة .

وقد يبدو للقارئ أننى فى تناول هذه الحضارات لم أراع ترتيبها حسب أهميتها أو أسبقيتها فى الزمن ولكنى أود أن ألفت النظر إلى أنى فضلت اتباع نفس الترتيب الذى سبق أن اتبعته فى كتابى السابق ، مصالمة تاريخ الشرق الأدنى القديم ، استكمالاً للفائدة المرجوة إذ أنى جردت ذلك الكتاب من كل ما يشير إلى المظاهر الحضارية إلا فيما يختص بالمصور السابقة للكتابة على أساس أنها الوسيلة الوحيدة لتتبع تاريخ تلك المصور ، وهكذا يمكن اعتبار هذا المؤلف مع سابقه متكاملين

— ز —

بالنسبة لمن يود الاطلاع على المعالم الهامة لتاريخ وحضارات الشرق
الأدنى القديم .

ولايسعني في هذا المجال إلا أن أقدم واجب الشكر إلى كل من عاونني
على إخراج هذا الكتاب الذي أرجو أن يحقق الغرض المطلوب .

والله ولي التوفيق ؟

محمد بن علي بن حسين

مقدمة الطبعة الثانية

ما كنت أظن أنني سأعيد طبع هذا الكتاب بعد مرور نحو من عشرة أعوام على ظهور طبعته الأولى إذ اعتقدت أن موضوعه سيكتب فيه خلال تلك الفترة غير أن ما ظهر من مؤلفات لا يتناول الا حضارة قطر أو قطرين فحسب من أقطار الشرق الأدنى وهي في جملتها تسهب في ذلك وتتعرض للكثير من التفاصيل التي تجعل من العسير الالمام بالمعالم الرئيسية لحضارات اقليم الشرق الأدنى أو تكوين فكرة شاملة عنها .

ومن خلال تجربتي في التدريس ، وجدت أن كتابي هذا يناسب طلبة أقسام التاريخ في الجامعات العربية كما وكيفا - كما أنني لا أشك في أن الذين تبهرهم رؤية آثار أسلافنا يودون لو أن هذه الآثار تفصح لهم عن أسلوب الحياة الذي اتبعه أولئك الذين خلفوها وأن توضح لهم مظاهر حياتهم، فعسى أن يكون في هذا الكتاب ما يفي - قدر الامكان - بهذا الغرض وتوخيت فيه البساطة بحيث يستطيع القارئ العادي أن يستوعبه وأن يكون فكرة عامة لا بأس بها عن أصحاب تلك الحضارات التي كانت أقدم ما ظهر من حضارات في العالم والله ولي التوفيق .

المؤلف

محتوى الكتاب

الموضوع	صفحة
مقدمة هـ
قائمة بالأشكال م
تمهيد ١
أولاً : حضارة مصر ١٤٤-٥
الأسرة - ١٦ ، الملك - ٢٧ ، المسكن - ٣٦ ، الملابس والزينة - ٤٣ ، الإدارة - ٥٨ ، الديانة - ٦٤ ، القضاء - ٩٤ ، العسكرية - ٩٧ ، الحياة الاقتصادية - ١٠٠ ، العلوم والآداب - ١٢٤ ، الفنون - ١٣١ .	
ثانياً : بلاد العرب ١٤٥-١٥٤
ثالثاً : الاقليم السوري ١٥٥-١٧١
(١) الأموريون - ١٥٥ ، (ب) الكنعانيون والفينيقيون - ١٥٨ ،	

(ج) الآراميسون - ١٦٦ ،

(د) العبرانيون - ١٦٨ .

رابعاً : اسيا الصغرى ١٧٢-١٩٣

الأسرة - ١٧٣ ، الملك - ١٧٥ ، الإدارة - ١٧٦ ،

العسكرية - ١٧٨ ، الديانة - ١٨٠ ،

الحياة الاقتصادية - ٨٧ ، العلوم والفنون - ١٨٨

خامساً : بلاد النهرين ١٩٤-٢٦٤

الأسرة - ١٩٦ ، الملك - ١٩٩ ، المنازل - ٢٠٢ ،

الملابس والزينة - ٢٠٥ ، الإدارة - ٢١٠ ،

العسكرية - ٢١٢ ، الديانة - ٢١٦ ،

القضاء - ٢٢٣ ، الحياة الاقتصادية - ٢٢٩ ،

العلوم والآداب - ٢٤٢ ، الفنون - ٢٥٥

سادساً : ايران ٢٦٥-٢٦٨

الحياة الاجتماعية - ٢٦٨ ، الدولة - ٢٧٢ ،

العسكرية - ٢٧٦ ، الديانة - ٢٧٨ ، الفنون - ٢٨٣

— ك —

الموضوع	صفحة
خاتمة	٢٨٩
المراجع العربية	٢٩٥
المراجع الاجنبية	٢٩٦
فهرس الاعلام	٢٩٩

قائمة بالأشكال

الصفحة	الشكل
١٧	١ - تماثيل سيدات من العصر قبل التاريخي
١٧	٢ - تمثال منقرع وزوجته
٢٤	٣ - فريق من المتصارعين
٢٥	٤ - راقصات يمان لوحة حية
١٦	٥ - لعبة محاولة معرفة الضارب
٢٦	٦ - لعبة الثعبان
٣٠	٧ - أحد الملوك بالزى القديم
٣٧	٨ - نموذج من الطين لمنزل من عصر ما قبل الأسرات
٤٠	٩ - رسم تخطيطي لمنزل من كاهون
٤١	١٠ - رسم تخطيطي لمنزل من العمارنة
٤٥	١١ - الزى التقليدى فى الدولة القديمة
٤٩	١٢ - الزى العادى للبراة
٥٥	١٣ - سيدة اثناء تصنيف شعرها
٦٧	١٤ - إلهة السماء فى هيئة بقرة
٦٨	١٥ - إلهة السماء فى هيئة امرأة
١٠١	١٦ - إله النيل فى هيئة رجل
١٠٣	١٧ - نساء يقمن بتذرية القمح

الصفحة	الشكل
١٠٩	١٨- زورق من البردى به صائد سمك
١١٢	١٩- طريقة بناء السفن
١١٧	٢٠- نقل تمثال ضخم
١٢٠	٢١- نبيل على محفة يحملها حماران
١٣٣	٢٢- خطأ الفنان عند خروجه على وضع تقليدى
١٣٥	٢٣- ضخامة الشخص المهم بالنسبة لمن حوله فى النقوش
١٤٠	٢٤- هرمى خفروع ومنقرع وأمامهما معابد الجبزية
١٤١	٢٥ أ- معبد الشمس
١٤٢	٢٥ ب- معبد من الدولة الوسطى
١٦١	٢٦- نموذج من الخزف لعربة يجرها الخيل
١٦٣	٢٧- نحت عاج يمثل مزج الفن الفينيقي بالفن المصرى
١٦٤	٢٨- تطعيم بالعاج به طابع مصرى
١٦٥	٢٩- تابوت فى هيئة آدمية لأحد ملوك صيدا
١٦٦	٣٠- تابوت للملك من بباوس عليه موكب جنزى
١٧٩	٣١- عربة مصرية تهاجم عربة حيثية
١٨١	٣٢- إله يقف على ظهر حيوان
١٨٢	٣٣- ملك يتعبد لإله فى هيئة ثور...
١٩٠	٣٤- منظر يبين اتجاه الموكب نحو مركز واحد
١٩١	٣٥- موكب يبين أشخاصا يغلب عليهم القصر وعدم تناسق الأعضاء
١٩١	٣٦- تمثال غريب اختصرت رأساه

الشكل	الصفحة
٣٧ - تمثال مجنح لأبو الهول	١٩٢
٣٨ - نقش حيثى	١٩٣
٣٩ - الملك أورنمو يحمل سلة البناء	٢٠١
٤٠ - منزل من منازل جنوب العراق	٢٠٣
٤١ - نقبة للرجال تنتهى بصفوف من الهداب	٢٠٥
٤٢ - زى سابغ يكشف أحد الذراعين	٢٠٧
٤٣ - الإله يلبس تاجا عليه قرون تتلاقى	٢٠٨
٤٤ - ملك يلبس تاجا مخروطى يعلوه سن مدبب	٢٠٩
٤٥ - عقود من الذهب	٢٠٩
٤٦ - رمز الإله آشور	٢١٨
٤٧ - نموذج من البرونز لمركبة تجرها أربعة حمير	٢٣٧
٤٨ - خريطة للعالم بها موقع بابل	٢٤٩
٤٩ - لوح عليه نظرية هندسية	٢٥١
٥٠ - قيثارة مثل بها رأس ثور	٢٥٦
٥١ - إبريق من الحجر نحتت به حيوانات	٢٥٧
٥٢ - تمثال مغنية أحد المعابد	٢٥٨
٥٣ - تمثالان تبدو فيها ضخامة الساقين	٢٥٩
٥٤ - منظر لمدينة بابل	٢٦٤
٥٥ - مدينة إيرانية قديمة	٢٧٠
٥٦ - نماذج من العملة الفارسية	٢٧٥

- ع -

الصفحة	الشكل
٢٨٠	٥٧ - معبد النار في نقش رستم
٢٨١	٥٨ - الإله أهورا مزدا
٢٨٣	٥٩ - دباييس من البرونز
٢٨٥	٦٠ - ثور مجنح من مدخل قصر اجزركسيس
٢٨٧	٦١ - أعمدة تنتهى برؤوس حيوانات

تمهيد

الحضارة :

الحضارة في اللغة خلاف البداوة لأنها تدل على سكنى الحضر أو اجتماع الناس للتعاون على أسباب المعيشة ودفع المضرات ، فهي تمثل مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى وتقابل كلمة Civilisation .

وبما أن كل مجتمع (مها كان بدائيا) يصيب شيئا من التطور ببذل الجهد والكفاح الدائم فإن هذا اللفظ خرج عن مدلوله الاصلى إلى مدلول عام شامل فأصبحت كلمة الحضارة تطلق على كل إنتاج مادي أو أدبي للإنسان سواء كان إنتاجا راقيا أو بدائيا وعلى ذلك يمكن القول بأنه لا يوجد مجتمع دون حضارة ، وكثيرا ما يختلط هذا اللفظ في معناه بكلمة الثقافة ولكن إذا ما تأملنا الاصل اللغوى لهذه الكلمة الأخيرة لوجدنا أنها تدل على التطور العقلى عن طريق التدريب والتعليم ، وهي تقابل لفظ Culture - كذلك يختلط اللفظان ، الحضارة والثقافة ، في معناهما بكلمة المدنية وإن كان اختلاط هذه الأخيرة بكلمة الحضارة أعم من اختلاطها بالثقافة ، إلا أن المدنية أصلا تدل على سكنى المدن وقد تطور معناها حتى أصبح يدل على أقصى ما يصل إليه مجتمع ما في ميدان حضارته أثناء عصر من العصور - وهكذا نجد أن كتب اللغة تميل إلى ترتيب مراحل التطور الاجتماعى إلى البداوة ثم الحضارة وأخيرا المدنية ، على اعتبار أن البداوة تقوم على حياة الحيوان من صيد ورعى فمن دأبها التثقل وعدم الاستقرار

والحضارة تدل على سكنى الحضر والانتظام في مجتمعات تتعاون في معيشتها أما المدنية فتدل على سكنى المدن والانتظام في مجتمعات أكثر تعقيدا ورقيا أو كما تقول بعض كتب اللغة أنها تمثل الانغماس في حياة الدعة والترف .

فالحضارة على أى حال تمثل كل مظهر من مظاهر الانتاج البشرى أو غالبا ما يحددها سلوك الإنسان وطرق معيشتة وتفاعله مع البيئة ، ولذا كان من الطبيعي أن تختلف كل حضارة في مظاهرها عن الحضارات الأخرى ، فلكل حضارة من الحضارات قديمها وحديثها مظاهر مميزة وعلى هذا يميز الناس بين الحضارة المصرية والحضارة اليونانية والحضارة الإسلامية وهكذا .

ومن العسير إبراز مميزات كل من تلك الحضارات وخاصة القديمة منها لأننا - من جهة - مازلنا نشعر بقصور الدراسات المتعلقة ببعض مظاهرها وبما يزيد المشكلة تعقيدا أن بعض المدونات لم يمكن تفسيرها تماما حتى الآن ؛ كما أننا - من جهة أخرى - نستشهد على مظاهر هذه الحضارات بمخلفات أثرية نحن على يقين من أنها لم تكن منتشرة بين عامة الناس وإنما هي من مخلفات ثروة القوم وخاصتهم فضلا عن كونها تمثل أرقى ما كانوا يمتلكونه وأفضل ما وصلت إليه الفنون في أزمانهم فهي بالأحرى تمثل مخلفات المدنية لا مخلفات الحضارة ، ومع كل ينبغي أن لا نقلل من شأنها عند مقارنة الحضارات المختلفة بعضها ببعض إذ لا سييل إلى التعرف إلى مظاهر هذه الحضارات إلا عن طريقها .

ومع أن الكثيرين قد يتساءلون عن الأسباب التي تدعو الإنسان إلى الاحتفاظ بكثير من منتجاته الحضارية وهو ما أتاح لنا فرص العثور على

ما يمثل هذه المنتجات في الحضارات القديمة فإن من الممكن أن يعزى ذلك إلى عاملين أساسيين هما ديانة أهل هذه الحضارات وفنونها .

والديانة شأنها شأن الحضارة خرجت في معناها عن مدلولها الأصلي لأنها في اللغة كالدين لها معاني مختلفة منها الجزاء والمكافأة والطاعة والانقياد والعادة والعبادة ، وهي كذلك لاسم لجميع ما يعبد به الله والملة - إلا أن المعنى المألوف هو أنها « الاعتراف بقوة أو قوى تفوق البشر » تسيطر عليهم وينجب عليهم إطاعتها ويؤثر اعترافهم بها في سلوكهم وفي عقليتهم » - وقد تحتلظ في معناها بالعقيدة ولكن هذه الأخيرة تدل في اللغة على عتد الرأي أو عقد القلب والضمير على أمر معين كما تدل على الاقتناء والجمع فإذا قيل اعتقدت كذا أى عتدت عليه القلب والضمير ، واعتقدت ضيعة ومالا أى اقتنيتها - إلا أن المعنى الشائع للعقيدة هو أنها « إيمان بتفوق قوة من القوى » ولكن ليس من الضروري أن تسيطر هذه القوة على البشر ، وقد تطور هذا فأصبحت العقيدة اسماً لما يدين به الإنسان - ومن الواضح أن الإنسان في الحضارات القديمة كانت له ديانات وعقائد عامة ولكننا لانعرف شيئاً عن أصولها ونشأتها وطقوسها ومذاهبها إلا من تصور متأخرة وخاصة بعد أن عرفت الكتابة ، ومع هذا فإن ما نعرفه عنها لا يعد كافياً لارتباطها بمواظف الإنسان وإحساساته الداخلية وهذه لا يمكن ادراكها لأنها لم تدون في أغلب الأحيان - ورغم هذا يمكننا أن نتصور بأنها كانت ساذجة بسيطة في أول الأمر ثم تطورت ودخلتها زبادات وحواشي أخر جتها عن شكلها الأصلي ، وما دام الأمر كذلك فإن الإنسان - سواء في ديانتة أو عقائده - يناول أن يسترضى هذه القوى بكل ما لديه من وسائل مادية وغير مادية فشيء لها المعابد

وقدم القرايين وقام بمختلف الطقوس من أجلها . وهذه بالطبع يبدو أثر البيئة فيها واضحا هي الأخرى .

ولما كانت الفنون هي كل ما يخرج ذوق الإنسان ليحقق فائدة عملية في حياته

وليرضي به غريزة من غرائزه ، وبما أن الإنسان تميز بالذوق السليم والشعور بالجمال فمن الممكن القول بأن الفن هو الانتاج الذي يرضي به الإنسان شعوره بالجمال ، لذا خضعت فنونه في كل من الحضارات القديمة إلى أصول وقواعد تميزت بها . وإن كانت قد وقعت في بعض الأخطاء إلا أنها لم تجد عنها محافظة على تقاليدها وقواعدها . وبالتالي فإن كلا من هذه الفنون قد تأثرت هي الأخرى كذلك بالبيئة التي نشأت فيها وخضعت لمؤثراتها المختلفة .

وعلى هذا يمكن القول بأن أهم المخلفات الأثرية التي تتخذ منها شواهد وأدلة على مظاهر الحضارات المختلفة ترتبط بفنون أهل هذه الحضارات ودياناتهم ارتباطا وثيقا إلا أن كل المظاهر الحضارية في أى مجتمع من المجتمعات قوامها تفاعل الإنسان في هذا المجتمع مع بيئته التي عاش فيها ولذا تنوعت هذه المظاهر وتنوعت بين قطر وآخر وبين أمة وأخرى ولا يحدث بينها من التشابه إلا بقدر تشابه بيئاتها وإن كانت بعض المظاهر تجد سبيلها من مكان إلى آخر عن طريق النقل والمحاكاة وسنتناول فيما يلي أهم المظاهر الحضارية في مختلف أقطار الشرق الأدنى .

أولا : حضارة مصر

التعرف على الحضارة المصرية :

لعل من أشق الأمور دراسة الحضارة المصرية دراسة شاملة وافية لأنها وإن تناولها الباحثون بالدراسة في عصور مختلفة إلا أن الكشف عن أسرار اللغة المصرية لم يتم إلا منذ فترة وجيزة نسبيا وعلى ذلك ظلت حضارة مصر غامضة بالنسبة لهؤلاء الباحثين رغم أن آثارها كانت تحيط بهم وفي متناول أيديهم - فالليونان مثلا صادفتهم عقبات كثيرة في تفهم تلك الحضارة ، بل أنهم حينما جاءوا إلى مصر دهشوا أشد دهشة لما شاهدوه من حضارة في وادي النيل حيث كانوا يعتقدون بأنهم أرقى الأمم حضارة وثقافة - وقد بدت لهم مظاهر الحضارة المصرية غاية في الغرابة والغموض وكانوا بين مقدر لها وساخر منها ولكن الأغلب أنهم كانوا يكون لها الاحترام العميق مع أنهم عجزوا عن تفسير كثير مما شاهدوه من الاختلافات بينها وبين حضارتهم ، وقد استهوتهم كذلك بعض قواعد السلوك عند المصريين ولذا نجدهم يقارنون مظاهر هذه الحضارة بمظاهر حضارتهم فيذكر هيرودوت مثلا بأن المصري كان يكتب من اليمين إلى اليسار في حين تكتب شعوب العالم الأخرى من اليسار إلى اليمين وفي مصر تخرج المرأة إلى الأسواق وتقوم بالعمل في الحقول بينما يظل الرجل في البيت ليقوم بالغزل أو النسيج كما أن النساج المصري كان يدفع لحة النسيج من أعلى إلى أسفل وهذا كله عكس ما يحدث في البلاد الأخرى . ومع أن العالم القديم ظل ينظر إلى المصريين على أنهم شعب غريب

الاطوار إلا أنه كان يتطلع إلى مظاهر حضارتهم وينظر إليها نظرة التقديس والإجلال وكانت نقوشهم وطقوسهم الدينية التي كان يقوم بها الكهنة تمثل عالماً مليئاً بالأسرار والغموض وكثيراً ما طمع اليونانيون في الوصول إلى دراسة تلك الأسرار ولهذا نجد أن بعضهم وخاصة في عهد البطالمة يندمجون في الأوساط السكهنوتية ويقومون بالطقوس الدينية ولكنهم لم يستطيعوا فهم كل تلك الألغاز التي أحاطت بهم ، ومع هذا ظلوا على احترامهم وتقديرهم لرجال العلم والكهنة والمعابد المصرية حتى وحدوا بين بعضها وبين الآلهة اليونانية .

ومنذ العصر اليوناني استمر الغموض يحيط بالنقوش المصرية ولم يستطع أحد تفسيرها رغم المحاولات العديدة التي بذلت في سبيل حل طلاسمها ولكن طريقة تلك الكتابة جعلت من المحتم الوصول إلى تفسيرها فمعظمها كتابة رمزية تصويرية وكانت دقة المصرى وعنايته الفائقة بتدوين أهم الحوادث خير مساعد للعباء في مهمتهم فقد صور الأشخاص والمناظر المختلفة وكتب فوقها ما يدل عليها وكانت أولى النتائج الهامة في سبيل حل طلاسم اللغة المصرية هي ما وصل إليه العالم الانجليزي توماس ينج Tomas Young الذي قرر بأن الكتابة المدونة فوق المناظر المختلفة هي شرح لتلك المناظر وأن أسماء الملوك المشلين في تلك المناظر توضع داخل أشكال بيضاوية أى د خراطيش ، وأن هذه الكتابة ليست كلها رمزية تصويرية أى أن أشكالها (رموزها) لا يدل كل منها على معنى وإنما بعض هذه الأشكال أو الرموز له قيمة صوتية فقط ولا يدل على معنى قائم بذاته . وفي نفس الوقت أو بعده بقليل عثرت الحملة الفرنسية على حجر رشيد وتوصل شمبليون من مقارنة

الخراطيش المكتوبة به إلى نفس النتيجة التي وصل إليها « ينج » كما توصل إلى القيمة الصوتية لبعض الرموز وبدأ يضع معها للحروف والعلامات الهيروغليفية .

وتتابعت جهود العلماء بعد ذلك فأمكن تفسير اللغة المصرية وفهم كل ما أمكن العثور عليه من آثار مكتوبة - ومع أن الآثار المصرية مليئة بآلاف النصوص والوثائق إلا أنها ليست كافية للتعرف على كل نواحي الحياة المصرية لأن كل ما كتب على الآثار المختلفة لا يخرج عن كونه شرح لبعض المناظر الدينية المتكررة مع الإشارة إلى الآلهة والقرايين المختلفة بالإضافة إلى أسماء الملوك وبعض الأحداث التاريخية الهامة التي حدثت في عهدهم أو عهد أسلافهم . أى أن المحصول من هذا الانتاج الضخم كان محصولا ضئيلا للغاية لا يتناسب إطلاقا مع وفرة الوثائق المكتوبة ، فالاعتماد إذن على هذه المدونات وحدها لا يكفي لإعطاء فكرة كاملة عن الحضارة المصرية في أشكالها المختلفة .

مقومات الحضارة المصرية :

وكانت العقيدة التي يدين بها المصري خير ما أمدنا بفكرة واضحة عن الحضارة المصرية إذ أن المصري اعتقد في البعث وأنه سيحيى حياة أخرى أبدية - من جهة - ولأنه أحب حياته الدنيا وطمع في أن يجعل من حياته الأخرى صورة مطابقة لها - من جهة أخرى - صور مناظر حياته على جدران مقبرته أملا في أن تتحول هذه المناظر إلى حقيقة واقعة عند البعث ، ومع أننا نعتقد بأن هذه المناظر قد صورت على شاكلة ما كان يقوم به في حياته الدنيا ، إلا أننا مع هذا نلاحظ

بأنه حرص على أن يجعل من تلك الحياة حياة مثالية وتعالى في إظهارها
بمظهر الحياة الدائمة السعادة والرفاهية وقد وصل في ذلك أحيانا إلى درجة
السفه حيث حرص على أن يأخذ معه إلى العالم الآخر كل ما ظن أنه سيحتاج
إليه من آلات وأدوات وحيوانات أليفة .

ومع أن كثيرا من حضارات العالم القديم قد درست عن طريق دراسة
آثار المنازل ومخلفات مناطق السكن في تلك الحضارات إلا أننا في مصر
نجد أن هذه المنازل قد اختفى معظمها ولم يبق منها إلا النادر فقط
حيث كان المصري يعتقد بأن حياته في الدنيا حياة زائلة وأن الحياة
الآخرة هي الحياة الأبدية فكان يقيم مساكنه من مواد خفيفة سريعة
البلى واستعمل لذلك اللبن والأخشاب ولم يستعمل الحجر إلا نادراً وعلى
الأخص حول الأبواب والنوافذ فقط ولم يبق من المدن المصرية التي
كانت آهلة بالسكان إلا أمثلة شاذة مثل كاهون وتل العمارنة والسبب في
بقائها هو أنها قد بنيتا لغرض خاص ثم أهملتا بعد بنائها والإقامة
فيها قليلا وهجرهما السكان بعد ذلك ويشبه ذلك أيضا بعض القرى التي
أقيمت من أجل عمال الجبانات مثل مساكن عمال جبانتي الجيزة وسقارة
ولذا كان من الصعب استنتاج صورة واضحة للسكان المصرية في عصورها
المختلفة ولكن أمكن التوصل إلى ذلك عن طريق البقايا المتخلفة من تلك
المدن ومن مساكن العمال ومن بعض النماذج التي وضعت في المتاحف
لغرض من الأغراض السحرية أو لمجرد اللهو والتسلية . وكذلك من
النقوش التي تمثل تلك المنازل .

أما الفن المصري فهو جدير بالإعجاب وقد وصل إلى درجة عالية من

الرقى فى كل نواحيه المختلفه من عمارة ونقش ونحت وأدب وموسيقى وقد بنيت هذه على أصول مستقلة فاقت فى معظمها كل فنون الشعوب الأخرى وبما يميز الحضارة المصرية فى هذا السبيل أننا نجد آثارها ممثلة فى عصورها المختلفه، أى أن مظاهر تلك الحضارة ممثلة بصورة مستمرة من عصور ما قبل التاريخ فى سلسلة متتابعة لانكاد نجد فيها فجوة، فهى تمتاز عن سائر الأقطار الأخرى فى هذه الناحية - وقد مكنتنا دراسة آثارها من التعرف على المصرى فى آلاف السنين ومنها يتضح أن اللغة المصرية لم تتغير إلا مرة واحدة وتغيرت الديانة مرتين كما تغيرت الطبقة الحاكمة عدة مرات أما المصرى نفسه فتجد ظل دون تغيير يذكر لأن ظروف الحياة الطبيعية ظلت كما هى ثابتة لا تتغير ولم يحدث مثل ذلك للشعوب الأخرى . ولهذا الأمر أهميته البالغة لأنه يرينا كيف تطورت الآراء والأفكار خلال الخمسين قرنا التى مضت وكيف تطورت العادات وإلى أى مدى أثرت الحضارة المصرية وتأثرت بالحضارات الأخرى وليس من المبالغة فى شىء أن نذكر بأن الحضارة المصرية كان لها أثر كبير فى الحضارتين اليونانية والرومانية اللتين نقل عنها العرب وهؤلاء بدورهم كان لهم أثرهم فى الحضارات الأوروبية المعاصرة بل ويمكن أن نتبع أصل بعض الألفاظ فى اللغة الانجليزية وفى اللغات الأوروبية الأخرى ونرجعها إلى أصول مصرية قديمة .

وما دامت الحضارة تنتج عن النشاط الإنسانى وأن هذا النشاط يتأثر بالبيئة أى أنها تفاعل بين الإنسان وبيئته فمن الممكن القول بأن البيئة المصرية بمميزاتا المختلفه هى التى حددت نوع تلك الحضارة وأثرت فى تفكير المصرى وإنتاجه - وإذا ما تأملنا هذه البيئة محاولين أن ندرس بصفة عامة

جغرافية مصر فى معناها الضيق لوجدنا أن نهر النيل يمتد فيها من منحور الشلال الأول إلى البحر المتوسط وهو يتفرع فى الدلتا إلى أن يصب فى البحر وعلى ذلك شملت مصر قسمين مختلفين : الأول يمتد فيه وادى طويل ضيق مساحته المنزرعة ضئيلة للغاية وتحف به الصحارى من الجانبين ويمكن لآى إنسان إذا ما وصل إلى حافة الوادى أن يقف بأحدى قدميه على الأرض المنزرعة ويرتكز بقدمه الأخرى على الصحراء ، أى أن الانتقال من الأرض المنزرعة إلى الصحراء انتقال فجائى ، وتلى الصحراء شرقا وغربا سلاسل من التلال القليلة الارتفاع تمتد بطول الوادى تقريبا أما فى الدلتا فالوادى متسع والأراضى الزراعية شاسعة فهى فى معظم العصور أغنى وأكثر إزدهارا من الوجه القبلى وما زالت كذلك حتى الآن ولكنها فى أقدم العصور التاريخية كانت أقل سكانا لكثرة مستنقعاتها .

ولما كان الإنسان القديم فى مصر يخشى خطر الفيضان ويتجنبه فإنه كان يسكن على جانبي الوادى على الهضاب المرتفعة وكان النهر فى بداية الأمر قليل العمق متسع المجرى ، وكلما عمق مجراه كلما انحسرت المياه من الجانبين وتبعه السكان هابطين من الهضاب إلى حافة الوادى وعلى هذه نجد أقدم البقايا الأثرية من عصور ما قبل الأسرات موزعة فى الصحراء بعيدة عن الوادى وأكثر ارتفاعا من تلك التى تليها فى الزمن فتكونت بذلك المدرجات النهرية المعروفة التى تعد شاذة فى تتبعها الزمنى لأن المعتاد فى الطبقات الأثرية أن تكون أقدمها هى السفلى وأحدثها هى العليا أما فى المدرجات النهرية فإن العكس هو الذى حدث .

وتتميز البيئة المصرية بأن الظاهرة الغالبة فيها تتمثل في خطوط متوازية أو متعامدة فالوادي شريط ضيق يحيط بالنهر من الجانبين تبعد عنه قليلا الصحراوين الشرقية والغربية وهذه وتلك تحف بها سلاسل قليلة الارتفاع تظهر كأنها خطوط عمودية على طبقات الوادي التي تسير في خطوط مستقيمة وكان لهذا أثره في التفكير المصرى فقد رأى المصرى أن تلك الوديان والصحارى تمتد إلى مسافات شاسعة دون عائق وتمثل فضاء لانهايا كما أنه رأى بعض مظاهر الطبيعة في استمرار دائم فالشمس تشرق كل يوم في المشرق وتغرب في المغرب فاعتقد بأن هناك حياة خالدة يعيش فيها المرء حياة أبدية وأن الحياة الدنيا فترة انتقال إلى عالم الخلود - وقد أثرت هذه البيئة كذلك في نشاطه الفنى إذ خضع الفن إلى قواعد لاتحيد كثيراً عما تمثله المرء في بيئته ، فرسومه ونقوشه بل وتمائيله أيضا تخضع لقانون الاتجاهات المستقيمة حتى يمكننا القول باننا إذا ما أخذنا صورة انسان أو تمثالا من تلك التي قام بعملها المصرى القديم وقطعنا الرأس والأطراف لوجدنا صعوبة في تفسير الجزء الباقي كذلك إذا ما تأملنا هذه الصورة أو ذلك التمثال لوجدنا أن الرأس يتعامد على الكتفين وأن هذين يمثلان خطا مستقيما يوازي الخطوط الأفقية الأخرى في الجسم كذلك يتوازي الذراعان والساقان والخطوط الرأسية الأخرى ولذا قال أحد فلاسفة اليونان عن التماثيل المصرية بأنها كلها جميلة ولكن ينقصها المدرب الرياضى وذلك لأن الحركة فيها غير واضحة .

وإذا ما خرجنا عن دائرة الأفكار الفلسفية والدينية والفن إلى الحياة العملية المصرية لوجدنا أن الجماعات التي عاشت في مصر في أجزائها المختلفة كان يسهل عليها الاتصال فيما بينها وأهم ظاهرة قامت بتيسير هذا الاتصال هى نهر النيل

الذى كان له أكبر الأثر في نشأة الحضارة المصرية وتطورها ، فن المعروف أن اتجاه التيار في النهر (من الجنوب الى الشمال) واتجاه الرياح السائدة « الرياح التجارية الشمالية الشرقية » (من الشمال الى الجنوب) وعدم وجود العوائق على طول النهر من البحر المتوسط إلى أسوان مما يجعل الملاحة ميسورة في كل أوقات السنة وفي الاتجاهات المختلفة وعلى ذلك كان من الطبيعي أن تنشط الملاحة فتمكنت الجماعات المنتشرة على طول الوادى من الاتصال بعضها ببعض بسهولة ويسر وتبادلت مظاهر ثقافتها وحضاراتها المختلفة - وكان للنيل كذلك أكبر الفضل في توحيد تلك الجماعات إذ أن خطر الفيضان المشترك والرغبة في التحكم في مياه النهر للحصول على منافع مشتركة حتمت لإيجاد مجتمع موحد متعاون في ذلك الجزء من العالم.

ولاشك في أن وادى النيل كان في أول الأمر مسرحا لتنافس تلك الجماعات الصغيرة المتفرقة التي كانت تعيش على جانبيه والتي كانت تكون أقاليم مستقلة يغير أقواها على ما جاوره من أقاليم أضعف ويبسط سلطانه عليها حتى انقسم وادى النيل في جزئه الأدنى إلى قسمين كبيرين : مملكة الوجه القبلى ومملكة الوجه البحرى - ومملكة الوجه القبلى كانت تضم أصلا اثنين وعشرين إقليما من تلك الأقاليم الصغيرة أما مملكة الوجه البحرى فكانت تضم عشرين إقليما وقد ظل هذا التقسيم يراعى في معظم العصور الفرعونية ، كذلك ظل انقسام البلاد إلى مملكتين عالقا في الأذهان حتى نهاية تلك العصور ويتمثل ذلك في الألقاب الملكية وفي كثير من الإدارات الحكومية فكان الملك يلقب بمملك الوجهين القبلى والبحرى وأطلق على بيت المال مثلا لاسم « بيتى الذهب والفضة » والمقصود هو بيت

الذهب والفضة الخاص بالجنوب ومثيله الخاص بالشمال كذلك كان هناك
وزيران أحدهما للجنوب والآخر للشمال .

نشأة الحضارة المصرية

ظل العالم المتحضر فترة من الزمن لا يعرف فيها شيئا عن نشأة
الحضارة المصرية وتطورها بل وخيل للكثير من الباحثين بأن تلك
الحضارة التي توحى آثارها بالنمو والإزدهار والتعقيد لم تكن أصيلة في
مصر ولم تتطور فيها وإنما جلبت إليها من الخارج في صورة راقية ، إلا
أن العثور على آثار تمثل الحضارات السابقة لعصر الأسرات (أى
الحضارات البدائية) في سلسلة متتابعة تكاد تكون متكاملة أثبت أن
الحضارة المصرية أصيلة في مصر نشأت وتطورت فيها وإن كان الأمر
لا يخلو بالطبع (كما هو الحال في الحضارات الأخرى) من التأثير
بحضارات الأقاليم المجاورة في بعض مظاهرها . ولكن مما لا شك فيه بأن
البيئات المتشابهة والأجناس المتشابهة تنتج حضارات متشابهة وهكذا كان
تشابه بيئات الشرق الأدنى القديم مما يعقد الأمور في التعرف على انتقال
الحضارات من بيئة لأخرى .

ولما كانت الحضارة المصرية قد وصلت إلى درجة رفيعة من التقدم
والرقى فإنه كان من الأهمية بمكان أن يجتهد الباحثون في التوصل إلى معرفة
الجنس الذي يعد مسئولا عن هذه الحضارة أو الذي أبدعها وأنشأها إلا أن كل
الجهود التي بذلت لم تؤدي حتى الآن إلى نتيجة حاسمة إذ لم يعثر على بقايا بشرية
يمكن الحكم منها على نوع السكان الذين عاشوا في العصر الحجري القديم وقد حاول
العلماء عبثا التعرف على هؤلاء من مخلفات العصور التالية ، وأقدم ما وجد من

مخلفات بشرية يدل على وجود عناصر مختلفة كانت تعيش جنبا الى جنب ولذا يمكن القول بأن الحضارة المصرية ترجع الى أجناس مختلفة عاشت في وادى النيل واحتك بعضها ببعض كما كانت لهم علاقات بالأجناس المشابهة التي عاشت في الأقطار المجاورة ولذا قال بعض المؤرخين بأنه لم يوجد مصرى على الإطلاق وإنما كان هناك دائما مصريون ويعنى هذا أنه لم ينفرد في مصر جنس واحد وإنما وجدت أجناس متجاورة اختلطت ببعضها وكونت في مجموعها سكان وادى النيل الأدنى .

ومما لاشك فيه أن الشعبة الحامية من جنس حوض البحر المتوسط كانت أكثر العناصر نشاطا في شمال أفريقيا بها في ذلك وادى النيل، ويبدو أن جنسا له بعض الصفات الزنجية قوى التكوين والبنية كان يسود العالم القديم وقد دخلت الى وادى النيل في أثناء دخوله اليها عناصر حامية قليلة العدد ثم ما لبثت هذه الأخيرة أن ازداد عددها حتى أصبحت هي الغالبة في الوادى ورغم ذلك ظل خليط تلك العناصر مع الجنس القوى البنية ممثلا في معظم العصور التاريخية .

ومن المعروف كذلك أن عناصر كثيرة مختلفة قد دخلت إلى مصر في عهودها المختلفة ولكن هذه لم تؤثر في التكوين الجنى للسكان إلا بنسب ضئيلة لأن تلك العناصر عند دخولها إلى مصر لا تلبث أن تختلط بالسكان وتندمج فيهم وتفقد مميزاتها الجنسية بالتدريج وإن ظلت بعض تلك المميزات تظهر في العناصر الناتجة من إختلاطها حيناً بعد حين .

وقد أدى تشابه بعض مظاهر الحضارة في مصر مع مظاهر الحضارة في جنوب غربى آسيا إلى الاعتقاد بأن الحضارة المصرية قد نقلت من

هذه الجهات إلى مصر عن طريق هجرة من الهجرات ولكن تشابه ظروف البيئة في تلك المرحلة البدائية يجعلنا نتردد كثيرا في الأخذ بهذا الرأي ، ومع كل فإن انتقال تلك المظاهر الحضارية قد تم عن طريق احتكاك مباشر أو غير مباشر بين سكان وادى النيل وبين سكان جنوب غربى آسيا وليس ضروريا أن يكون عن طريق هجرة من الهجرات .

فنشأة الحضارة في مصر إذن مازال يكتنفها الغموض ومهما قيل في ذلك فإن مايعنينا هو أننا نجد في العصور الفرعونية حضارة بهرت العالم ووصلت إلى مدى بعيد في ميدان التقدم في كافة مظاهرها المختلفة وقد تمثلت في مصر دولة قوية فتية يحكمها بيت مالك له تقاليده ومراسيمه المعقدة ويحيط بالملك حاشية يحمل أفرادها مختلف الألقاب ويحتلون مناصب رفيعة ، وتكاد تحاكي في تنظيمها الإدارى ما نسير عليه في حياتنا الحاضرة وكانت الطقوس الدينية تقام في المعبد في صورة لا تختلف كثيراً عن الطقوس التى تقام في بعض العبادات الحديثة وكان الجيش يتبع أساليب وفنون حربية تسير وفق الأسس التى تقوم عليها الجيوش النظامية - وهكذا في سائر النظم كانت مصر دولة لا تختلف في كيانها كثيراً عن أى دولة حديثة .

ويرى كثير من الأثريين بأن الحضارة المصرية كانت حضارة مادية حسية في أساسها وأنها كانت تهدف إلى الناحية العملية دون النظرية .

ولكن بما لاشك فيه أن كثيراً من النتائج العلمية التى وصل اليها المصرى كانت عن طريق إتجاهه إلى بعض النواحي النظرية أى أنه سيمى بتفكيره عن تحقيق أهداف عملية في دراسته لبعض النواحي العلمية، ومهما

كان الأمر فإنه في كل إنتاجه في المراحل الأولى من حضارته كان يهدف أصلاً إلى تحقيق منفعة في حياته العملية شأنه في ذلك شأن الشعوب الأخرى .

وإذا ما أردنا دراسة مظاهر الحضارة المصرية المختلفة فإن من الملائم أن نتحدث عنها على أنها مظاهر لمجتمع نشيط راق وصل إلى مرتبة عالية من التنظيم وبالطبع تحتل الأسرة المكانة الأولى في دراسة أي مجتمع من المجتمعات وتمثل الحياة اليومية لأفرادها مظاهر الحضارة المختلفة .

الأسرة

إذا ما أردنا أن نتبع تقاليد الزواج والنظام الأسري في مصر القديمة فإننا لا نكاد نجد ما يشير إلى هذه الأمور في بداية العصور الفرعونية، ويخيل إلينا أن المصري في عصور ما قبل الأسرات كان يتخذ زوجة كأليف تعاونه في حياته وتتجب له الأطفال شأنه في ذلك شأن الإنسان في كل المجتمعات البدائية البسيطة، فإنجاب الذرية هو أهم البواعث على الزواج في تلك المجتمعات - ويستدل على أن المصري القديم قد توخى هذا الغرض من تمثيل السيدات التي وجدت في عصور ما قبل الأسرات فهي عموماً تمثيل لسيدات متضخمات الأثداء والبطون وهي في هيأتها وتكوينها تدل على أن المقصود منها تمثيل الأمومة وإنجاب الذرية، (شكل ١) ومن نصائح أحد الحكماء لشاب يحضنه على الزواج قوله له أن يتخذ له زوجة في شبابه « فإن أحسن شيء في الوجود هو بيت الإنسان الخاص به ، وأن تلد له ابناً - ويبدو أن الاحتفاظ بالزوجة لم يكن سهلاً كما هو الحال في سائر الجماعات البدائية فربما كان القوى يختصب زوجة الضعيف ويتخذها



لنفسه ولذا نجد أن الملك المتوفى يوصف في
نصوص الأهرام بأنه « يأخذ النساء من
أزواجهن على حسب رغبته »

ولانعرف طقوس الزواج في مصر القديمة
إلا أن من المرجح أنه كانت هناك عقود
قانونية كما يفهم ذلك من أقوال الحكماء في
نصحهم لمن يستمعون إليهم عند الإشارة إلى
الزوج بقولهم « لكى يؤسس المرء لنفسه بيتاً »
مما يدل على أن هناك اتفاقاً من نوع ما أو
عقداً يكتب بصورة خاصة (١) .

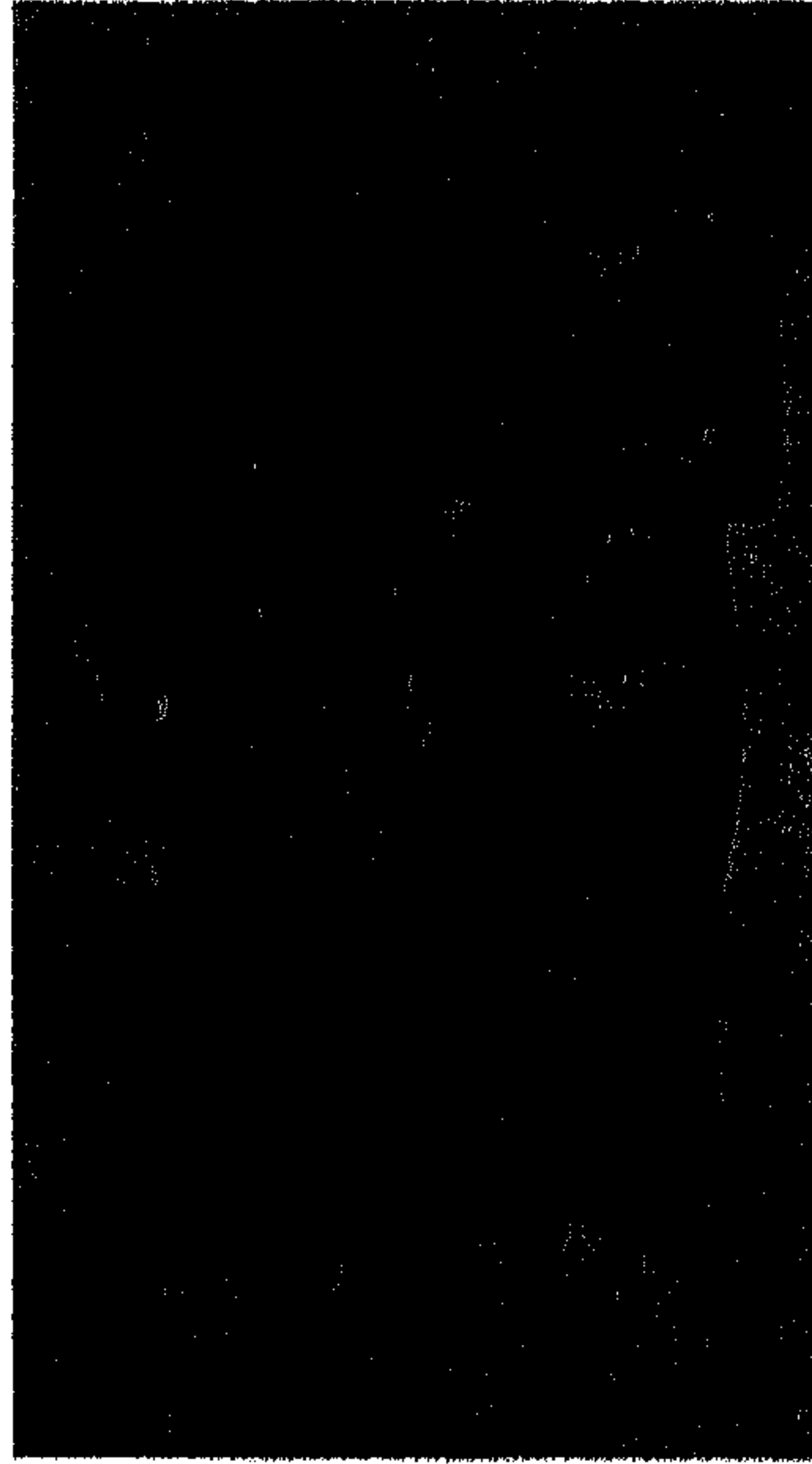
أما مركز المرأة في مصر القديمة فكان على
خلاف ما يعتقده الأوروبيون عن نساء الشرق
إذ أن هؤلاء يعتقدون بأن المرأة في الشرق
ملهية للرجل وأنها لعبته ولجود تسليته
والوقوف على راحته وظنوا أن الحالة

(شكل ١) تماثيل سيدات من
العصر قبل التاريخي

في مصر القديمة لم تكن تختلف عن ذلك إلا أن هذا القول يتنافى مع
الواقع فالمرأة في الشرق من الناحية العملية تحظى بمكانة أعظم كثيراً من
مكانة المرأة الأوروبية ولها من الحقوق مالا تحلم به هذه الأخيرة في
كثير من الأحيان . وعلى أية حال احتلت المرأة مركزاً هاماً في مصر

(١) إرمان - رانكه (ترجمة أبو بكر دمحم كمال) « مصر والحياة المصرية » ، (القاهرة

القديمة وظهرت سيدات عظيمات قمن بأدوار كبيرة في التاريخ - وكانت الزوجة الشرعية لا تقل مركزاً عن الزوج فهي على قدم المساواة معه وقد مثلت في تهايل الدولة القديمة في حجم يكاد يكون مساوياً لحجم الرجل (شكل ٢) وتضع يدها حول رقبته أو وسطه في تآلف وكانت تشترك في صيده ولهوه وفي الإشراف على أعماله المختلفة . أما في العصور المتأخرة نسبياً فقد روعى أن تمثل الزوجات بحجم أصغر من حجم أزواجهن لأسباب فنية أو تقليدية .



شكل (٢) : تمثال الملك منقرع وزوجته بمتحف بوسطن

وكان من النادر أن يجمع المرء أكثر من زوجة شرعية ومع هذا كانت الزوجات الشرعيات للشخص الواحد في درجة عظيمة من الود

والتآلف فمثلا نجد أن « لاميني » الذي كان نبيلًا من نبلاء الدولة الوسطى كانت له زوجتان شرعيتان إحداهما تسمى « حنوت » والآخرى تدعى « نبت » وقد أنجبت له الأولى ثلاثة بنات وولد واحد . أما الثانية فكان لها ولدان وخمسة بنات وقد أسمت « حنوت » بناتها جميعا باسم الزوجة الثانية وسمت الآخرى ثاني بناتها باسم « حنوت » ويدل هذا على مقدار الصفاء بينهما (١) . وفي العصور المتأخرة لم تنتشر عادة الزواج بأكثر من واحدة إلا في الطبقات الدنيا أو عند الملوك فقط وحكام الاقاليم وذلك لأسباب تتعلق بالوراثة أو لأسباب سياسية فأحد أحكام الاقاليم في الدولة الوسطى قد أصاب ميراثا عن طريق زواج والده بأحدى السيدات اللاتي يرثن أحد الاقاليم أي أنه لم يكن له الحق في وراثته إلا عن طريق هذا الزواج - كما أن الملوك في الدولة الحديثة عمدوا إلى مصاهرة بعض ملوك دول الشرق المجاورة ومن أبرز هذه الزيجات زواج رمسيس الثاني بابنة ملك الحيثيين بعد عقد معاهدة الصلح بينهما، وقد جاء هذا الزواج توكيدا للتحالف بينهما .

وكان الزواج يتم غالبا في سن مبكرة فالولد يتزوج عادة في سن الخامسة عشرة أما البنت فكانت تتزوج في الثانية عشرة - وكان زواج الاخت قاعدة متبعة ويمنح الوالد ابنته لولده ليتزوج منها ، وتطور الامر فأصبحت كله الاخت تطلق لتعني الحبيبة أو الخلية كما كانت تدل على الزوجة ولم تكن هناك غضاضة في زواج الاخت فقد نشأت هذه العادة على الأرجح

(١) إرمان - رائكة (المرجع السابق) ص ١٥٩

في المجتمعات الصغيرة لظروف حتمتها البيئية حتى تحافظ على دمائها ، وظل الملوك في مصر يتبعونها للحفاظ على الدم الملكي المقدس في دائرة البيت الملكي نفسه .

ورغم الزواج المبكر كانت الحالة الخلقية بين الأزواج عادية في معظم الأحيان ولكن شابتها بعض الشوائب في أحوال نادرة إذ أن أمثلة وردت عن حدوث بعض الخيانات الزوجية إلا أنها لم تكن شائعة . وكان ينظر إلى الارملة نظرة الحذر وكان الحكماء يحضون الشباب على تجنب الالتقاء بها حتى لا يقعوا في حبائلها كما أنهم كانوا ينفرون من المرأة المجهولة الاصل (١) .

ولم يكن النبيل أو العظيم ليقصر على زوجته الشرعية فقط بل كان يتخذ بعض المحظيات فكان له بيت للحريم (شأنه في ذلك شأن الملوك) كان يعرف باسم « بيت المحجبات » وينضغ لرقابة شديدة . ولم يكن للحريم حقوق الزوجات الشرعيات (وليس لأبنائهم ولا لبناتهم حقوق شرعية) ولم تظهرن في الحفلات على قدم المساواة مع الزوجات بل كان مركزهن في المؤخرة دائما - وكان على المحظيات أن يمتن بالغناء وبالترفيه عن السيد ، ومع هذا فقد وجدت أمثلة كثيرة للعتق وتشير إلى ذلك نصوص مختلفة وبعض النصوص تشتد في عتقهن والاحتفاظ لهن بالحقوق الشرعية كالأحرار (٢) . وكان مركز الأم عظيما للغاية وكان المرء ينسب إليها أحيانا لا إلى

(١) Max . d ' Anli 2.13FF

(٢) Rec . Trav 29 , 166 ; ASA 14, 23 ; JEA, 26, 23 ff

والده فيضاف اسم الأم بعد اسم الشخص - وكان التوريث في الدولة الوسطى يسير على نظام أن ابن الابنة الكبرى هو الذى يرث لا الابن الا كبر كما أن جد الشخص من جهة أمه كثيراً ما كان يتوسط لحفيده فى نيل الحظوة لدى البلاط أو فى الحكومة ، ولم يكن الابن يرث عن أبيه شيئاً إلا بعد أن يقرر الملك ومستشاروه ذلك ، السكى يوضع كل فى مسكان والده ، (١)

ومن جهة أخرى كان يراعى دائماً أن يحمى الابن اسم والده وأن يخلده فهو يشرف على تقديم القرابين له ويحافظ على مقبرته وإبتهاء آثاره لأن المصرى كان يعتقد أن زوال اسمه من النقوش هلاك أبدى له ولذا كثيراً ما عمد بعض المصريين إلى إزالة أسماء بعض السابقين للانتقام منهم - ومع كل لا نجد أمثلة كثيرة يفتخر فيها الابن بوالده بل ولم نجد سلسلة نسب كاملة تستمر عدة أجيال إلا فى عصور متأخرة وربما ذلك لصعوبة التعرف على الاجيال السابقة وذلك لأن الشخص كثيراً ما كان يغير اسمه فى بعض مراحل حياته كما أن بعض الأشخاص كانوا يعرفون بأسماء التدليل لأبائهم الأصلية وأصبحت أسماء التدليل هذه واختصارات الأسماء شائعة منذ الدولة الوسطى على الأقل .

أما الروابط العائلية بين أفراد الأسرة المختلفة فقد كانت تشوبها بعض الشوائب أحياناً وذلك لإنتشار عادة التسرى ووجود الكثير من الرقيق الاجنبى وكان المصرى ينظر إلى هؤلاء نظرة التحقير بل أنه كان ينظر

(١) إرمان - رانكة (المرجع السابق) ص ١٦٥ - ١٦٦

إلى الأجنبي عامة نظرة الاحتقار شأنه في ذلك شأن الأمم التي تنهض وخاصة إذا كانت الأمم الأخرى أضعف منها| ويتمثل هذا في تعريف المصري للمصريين بأنهم الرجال أو بنى الإنسان؟ وللبدر بأنهم سكان الرمال أو الصحراء ولاهل الجنوب بأهل كوش الخاسئين، ومن الأمثلة الواضحة على احتقار أهل البلاد الأخرى ما نجده في نص يمثل شكوى أحد الأبناء إلى الوزير في حق والده الذي كتب جزءا من أملاكه لزوجته الثانية فقد أجاب الوزير على هذه الشكوى بأن الوالد دحر فيما يمتلك حتى ولو كانت تلك الزوجة التي أعطاها ليست زوجته بل محبوبة أجنبية آسيوية أو نوبية،^(١) وكثيراً ما كانت الزوجة الثانية (وخاصة التي لا أولاد لها) تعامل بشيء من القسوة من أولاد زوجها وإن كن أحيانا يعاملن معاملة طيبة ويحظين بمركز ممتاز وبالطبع كان المال عاملا هاما في تحديد بعض أنواع العلاقات التي كانت تسود في الأسرات .

أما فيما يختص بالأطفال وتنشئتهم فإنهم في عهد الدولة القديمة كانوا يتركون لحريتهم حتى سن الرابعة تقريبا وكثيرا ماتمثلهم النقوش وهم عرايا مجردين من اللباس يلعبون أو يصحبون آباءهم في نزعاتهم وصيدهم، أما بعد الدولة القديمة فيندر أن نجد صورة لطفل مجرد من اللباس - وكانوا يذهبون إلى مدارس تلحق بالمعابد غالبا ، واسكن أبناء النبلاء وذوى النفوذ كانوا يذهبون إلى مدارس البلاط حيث ينشأون مع أبناء الملك وكانت العلامة المميزة لأبناء الملوك والنبلاء نخسه من الشعر أشبه بالصفيرة على جانبي الرأس . ومع أنهم كانوا يعاملون بشيء من الحزم في تربيتهم أكثر

من أطفال العصر الحالي إلا أنهم كانوا يحظون بالكثير من اللعب التي وجدت منها نماذج في بعض المقابر ومنها أنواع متقدمة في صناعتها وفكرتها كثيراً (١) .

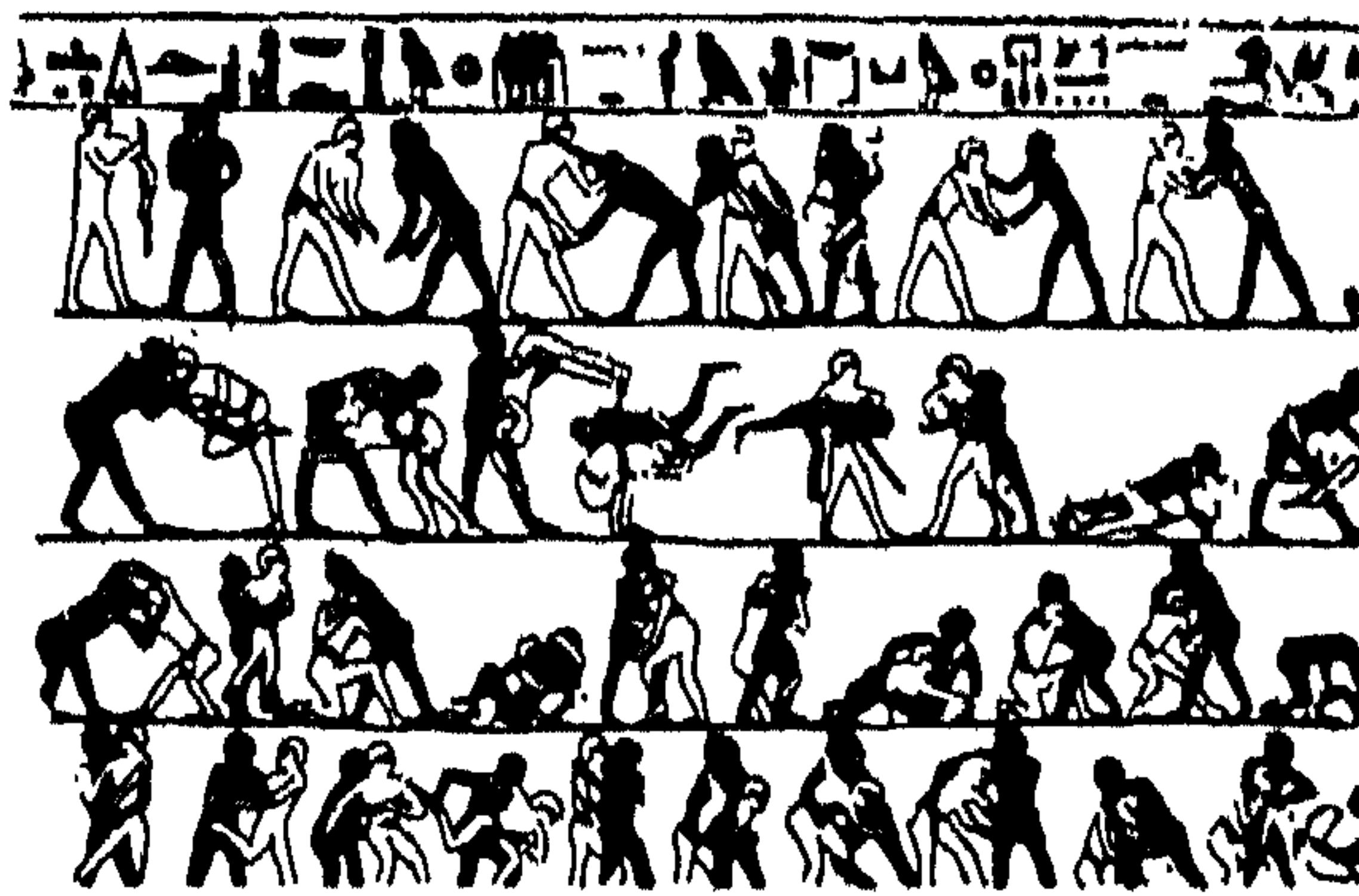
وقد روعى في قواعد السلوك أن تجعل من الإنسان شخصاً ممتازاً في عمله وفي علاقته مع الآخرين وهي تحض على التعلم والابتعاد عن الشرور والآثام وعن قرناء السوء - ومن تعاليم بعض الحكماء تدبّر أن السلوك في حضرة العظماء كان معقداً يشوبه الكثير من التكلف ولا يكاد يختلف كثيراً عن قواعد السلوك الحالية، ومن أمثلة ذلك ما ورد على لسان أحد الحكماء ، إذا دعيت إلى حضرة العظيم فلا تجلس إلا إذا دعاك وإذا دعيت إلى الطعام فكل بما هو أمامك ولا تنظر إلى ما يأكله ذلك العظيم . . إضحك عندما يضحك فإن هذا مما يبهج قلبه .. الخ .

أما عن وسائل الترفيه وقتل أوقات الفراغ فكثيراً ما كانت الأسرة تشترك في الخروج مع عميدها في رحلات صيده ولهو ، فبعض النقوش تبين لنا الرجل واقفاً في زورقه وهو يقوم بصيد الطيور أو الأسماك في المستنقعات ومعه زوجته وأولاده وقد يصحبهم قط أليف يأتي بالطيور المصابة إلى القارب - أما في رحلات الصيد المحفوفة بالمخاطر مثل صيد فرس النهر والتمساح وصيد الحيوانات المفترسة في الصحارى فأغلب الظن أن الرجال هم الذين كانوا يخرجون فيها وحدهم إذ لم يرد في النقوش ما يبين اصطحابهم لعائلاتهم فيها ، غير أنه في أحوال نادرة كان يطيب لبعضهم

Garstang, Burial Customs, pp. 151 ff; Petrie, Naqada & Ballas, pp. 34 f; Petrie, Kahun , pl. 30 , 57 & pl. IX, 18-20

أن يصحبوا زوجاتهم في صيد الصحراء حيث تقوم كلاب الصيد بدور هام فيها إذ تكون حيوانات الصيد الرئيسية من الأرانب والغزلان التي يسهل للكلاب الإمساك بها - وكثيراً ما كانت تقام في الصحراء ساحة مسورة بحواجز (جدران) في هيئة الشباك تساق إلى داخلها حيوانات الصيد حيث كان الملك في الدولة القديمة يتمتع نفسه بإطلاق سهامه عليها بينما يقف على خدمته عدد من الخدم يقدمون له السهام التي يطلقها ، وقد حاكى أمراء الأقاليم ملوكهم في هذه الرياضة منذ عهد الفوضى الأول - أما في الدولة الحديثة فإن الملوك كانوا مولعين بصيد الحيوانات المتوحشة ومواجهتها في العراء لما في ذلك من إثارة وحاس رغم الخطورة التي كانوا يتعرضون لها .

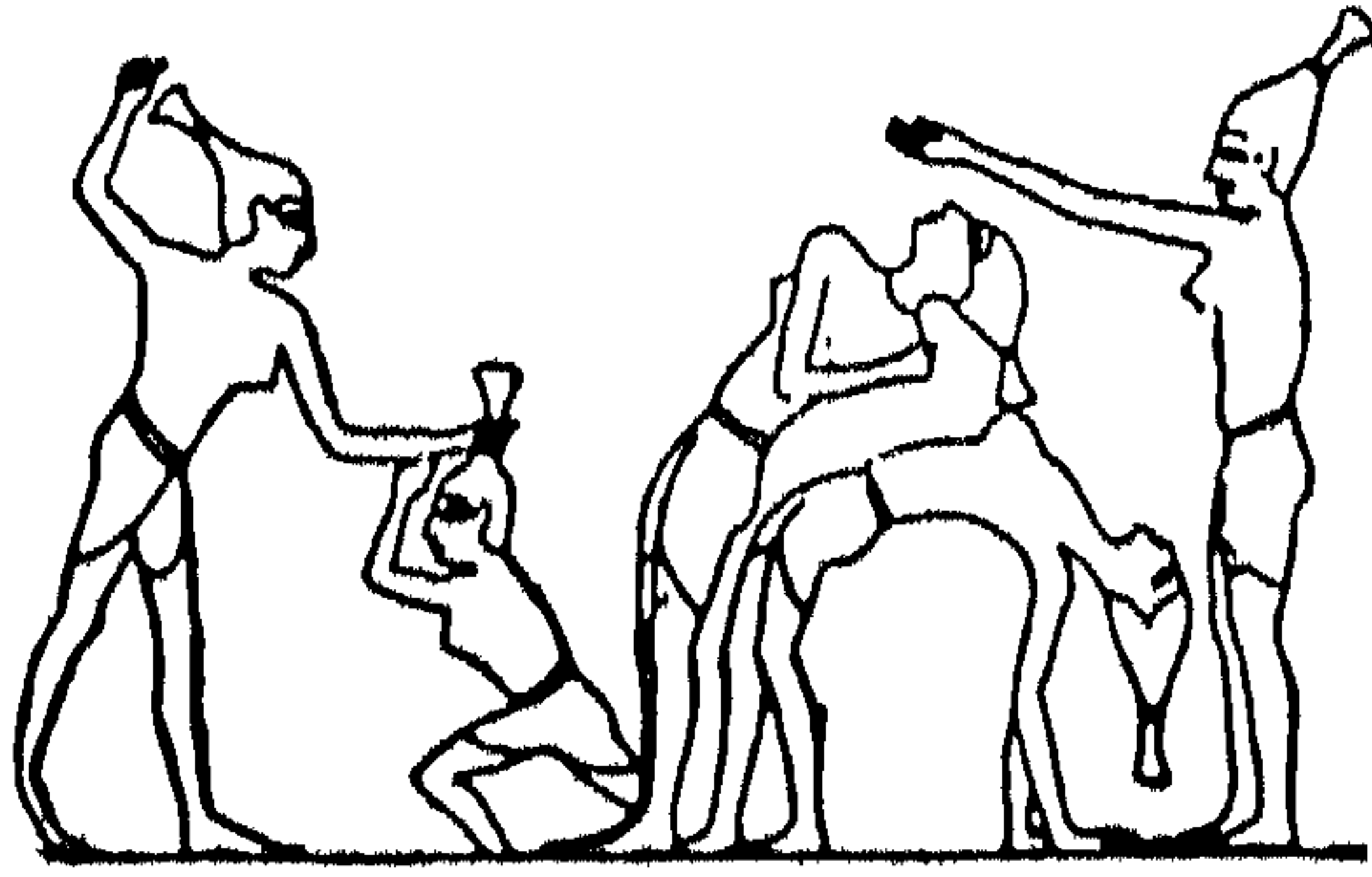
أما تسلية الأسيرة داخل الدار فتتجسر في مشاهدة رب الدار وأسرته لبعض المتصارعين وهم يعرضون ألعابهم في مرونة وخفة ومهارة (شكل ٣)



شكل (٣) : فريق من المتصارعين

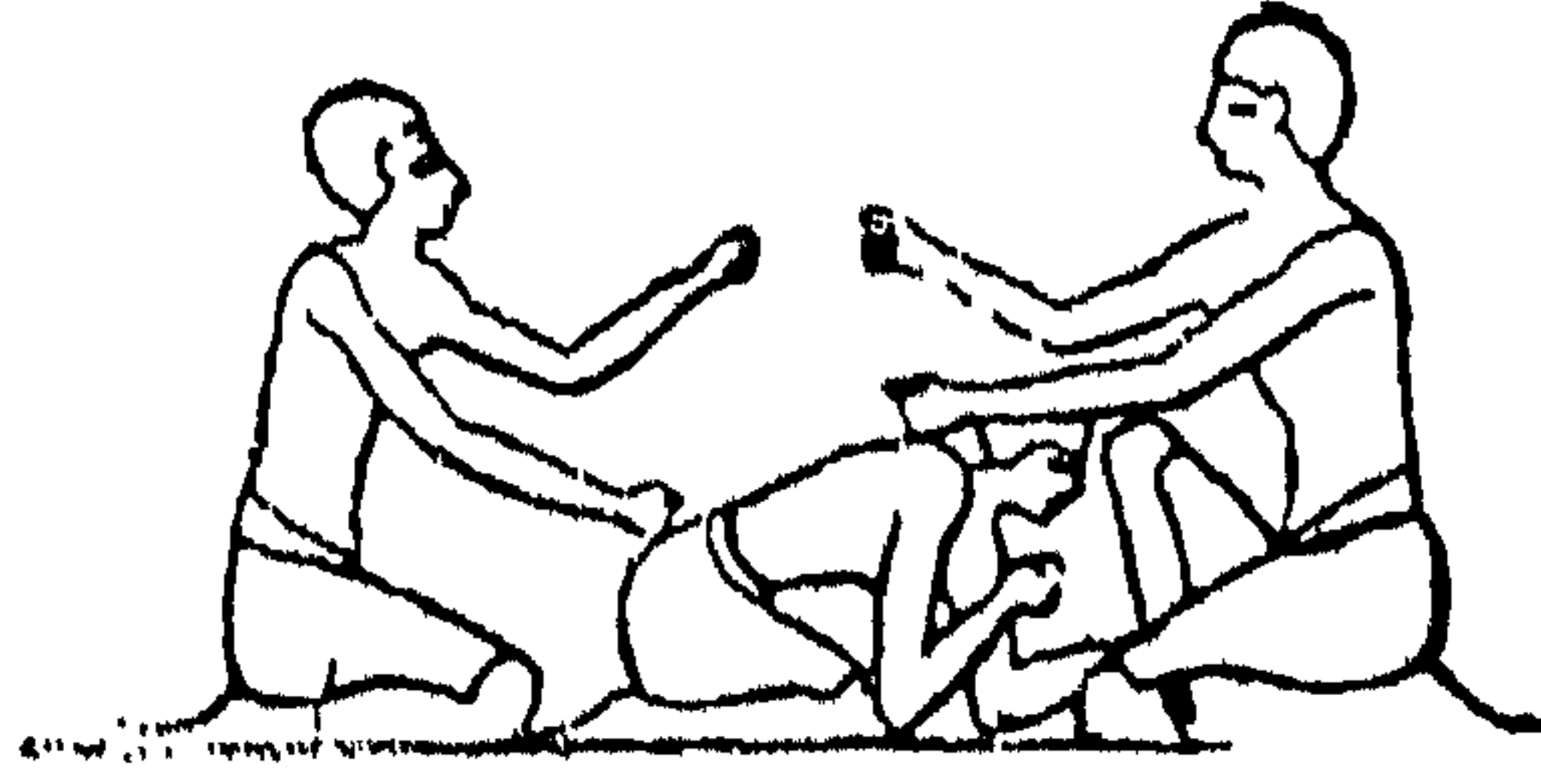
أو بعض المتبارزين المسلحين بمضى قصيرة ويتقون ضربات خصومهم بأذرعهم الطليقة التي تحميها سيور جلدية شدت إليها - وقد تشاهد الأسيرة

كذلك عرضا لبعض الفتيات يلعبن بسكرات صغيرة ألعابا فيها كثير من الماهرة والحدق أو يتردين حركات بهلوانية أو يقمن بالرقص وهو ما كان يقوم به الرجال كذلك في بعض الأحيان ، وكثيراً ما يبدو في مناظر الرقص ما يمثل اللوحات الحية أو رقص الباليه (شكل ٤) - وكانت الموسيقى



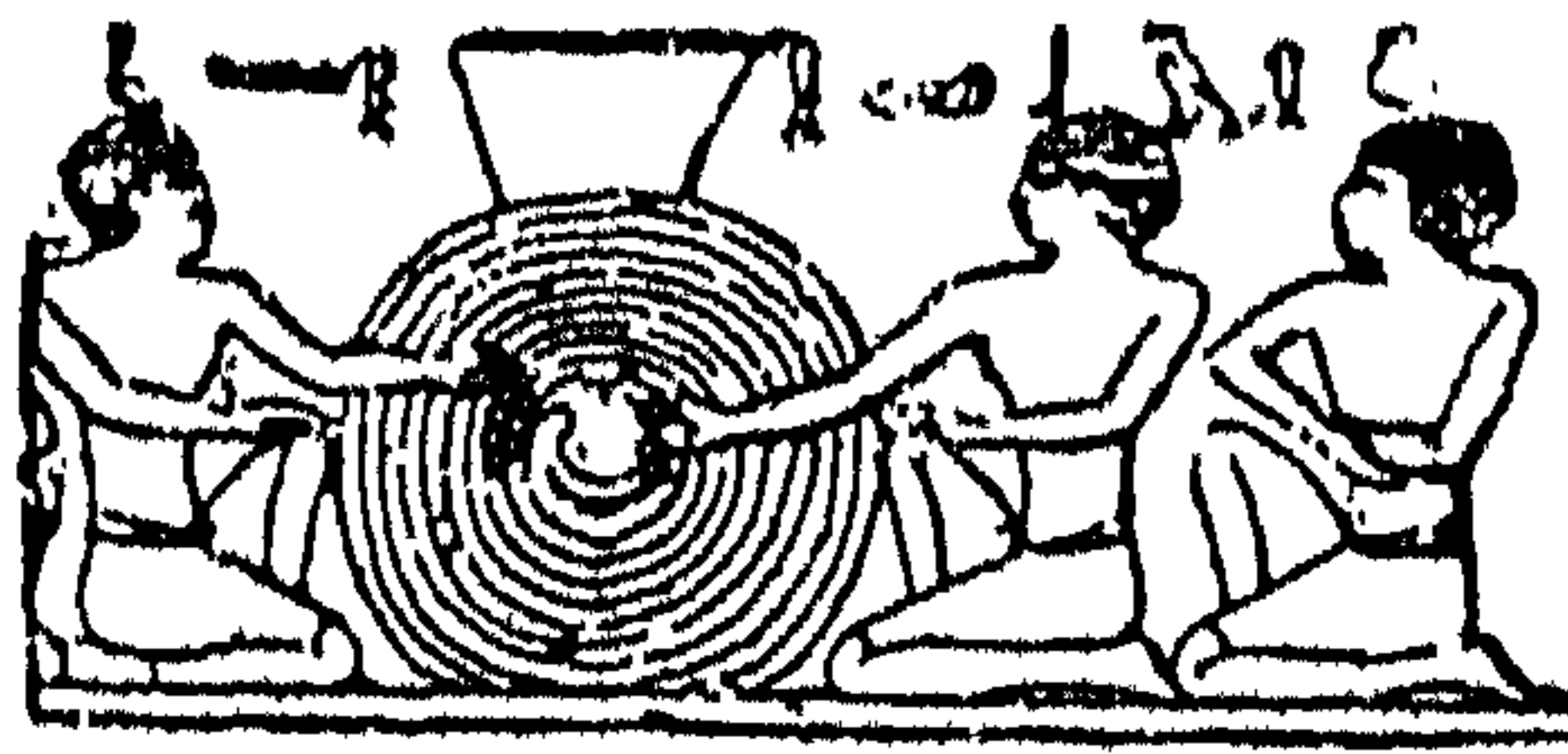
شكل (٤) : راقصات يمثلن لوحة حية

والتصفيق بالأيدى والغناء ترافق الرقص في كثير من الأحيان - وقد أغرم المصريون باقامة الحفلات التي كانت لا تخلو من الموسيقى والغناء والشراب ، ولم يقتصر المصريون على ضروب التسلية الرياضية أو مشاهدة فرق المصارعين والراقصين وغيرهم والاشتراك في الحفلات المختلفة بل كانت لديهم أنواع أخرى من الألعاب وضروب اللوفن ذلك مثلا قيام بعض الصبية بلعبه يتكنن فيها أحدهم بمن يضربه وهو راكع لا يرى أيدى زملائه حين يهوى أحدهم على ظهره (شكل ٥) أو يشتركون في قذف أداة ذات سن مدببة على لوحة من الخشب وغيرها من الألعاب التي تحتاج إلى مران ومهارة - كما أن الألعاب التي تحتاج إلى أعمال الفكر كانت محببة لديهم في سائر عصورهم ومنها ما يشبه رقع الشطرنج أو الداما الحالية ، ومنها لعبة كانت رقعتها



شكل (٥) . لعبة محاولة معرفة الضارب

ذات مقبض وقد رسم عليها شكل أفعى ملتفة حول نفسها ولكنها مقطعة في بعض الأماكن وكان المتباريان يلعبانها بوضع تماثيل صغيرة للأسود والكلاب على جسم الأفعى ، ويبدو أن الفائز هو الذى يستطيع لإخراج تماثيله من ذلك التيه الممثل فى شكل جسم الأفعى بشروط معينة (شكل ٦) وغير ذلك من الألعاب التى لم يمكن التوصل إلى طريقة لعبها أو قواعدها .



لعبة الثعبان

شكل (٦)

الملك

كان الملك على رأس المجتمع وهو سيده فذاته مصونة لا تمس ، ولم يصل إلى هذه المكانة بالطبع إلا بعد تعاقب أجيال عديدة من الجماعات التي عاشت في وادى النيل ، إذ يمكننا أن نتخيل أن هذه الجماعات كانت تسلم قيادها إلى زعماء من أفرادها وتثق كل جماعة في زعيمها وتعترف له بالقوة والسيطرة، ثم أخذت هذه الجماعات تندمج معا وانتقلت الزعامة إلى أيدي أقوى زعيم من هؤلاء - وبالطبع لم يكن ليصل إلى الزعامة إلا من تمتع بسميزات يعجز عنها غيره من الافراد بما أدى إلى أن تنسب إليه قوى خارقة وأن يحاط بمظاهر الإجلال والقدسية ولكنه في نفس الوقت كثيراً ما كان عرضة لأن يصبح هدفاً للحاسدين والمنافسين الذين يتحينون الفرص للإيقاع به والتخلص منه لإبداله بغيره ، وليس من الضروري أن يكون العامل على التخلص منه عدواً بل قد يكون من أقرب المقربين إليه إذ يتصور أنه أحق منه بالمكانة التي يتمتع بها .

ولا شك في أن حروباً كثيرة دارت بين الاقاليم المختلفة إلى أن وحدت هذه الاقاليم في قطرين « مملكة الوجه القبلي ومملكة الوجه البحرى » واستمر الحال على هذا المنوال زمناً طويلاً قبل أن توحد المملكتان توحيداً مؤكداً - وبالطبع أخذت مكانة الزعيم الأقوى تزداد ويعظم توقيره ، وما أن صار هذا ملكاً حتى كانت قدسيته قد بلغت أوجها ونسب إلى الآلهة - ونظراً لطول الأمد الذي عاشت فيه مملكتنا الوجه القبلي والبحرى منفصلتين فقد حرص الملك على إبراز حكمه لهذين القطرين فأصبح يطلق على نفسه « موحد القطرين » أو « سيد القطرين » .

ومن البديهي أن تفتقل كل الحقوق والواجبات التي كانت لزعم الجماعة إلى ملك البلاد - وبما أن الزعيم كانت له السلطة المطلقة على الجماعة يتصرف في شئونها ويرعى حقوقها ويدافع عنها فقد أصبح الملك صاحب الحق المطلق في كل أملاك الدولة ، وإذا سمح بإعطاء شيء منها إلى بعض المقربين له فإنها يكون ذلك من قبيل المنحة أو العارية التي يستطيع أن يستردها حينما يشاء بل وكانت الرعية من الناحية النظرية على الأقل ملكا له يتصرف فيها وفق ما يريد - وكان هو المحور التي تدور حوله كل شئون الدولة وهو المسيطر عليها والمتصرف فيها ، إلا أنه في الواقع لم يكن يستطيع ذلك إلا بمعاونة الوزراء وعدد من المستشارين الذين يستعينون بدورهم بالعديد من الموظفين والكتاب ، وإلى جانب هؤلاء يعمل قواد الجيش وجنودهم والسكينة وأتباعهم على احتفاظ الملك بسلطانه وإعلاء شأنه والمعاونة في تصريف شئون الدولة - وفي مختلف الأقاليم كان يمثل الملك أمراؤها الذين كانوا يستعينون بدورهم بأجهزة مصغرة لما هو موجود بالعاصمة .

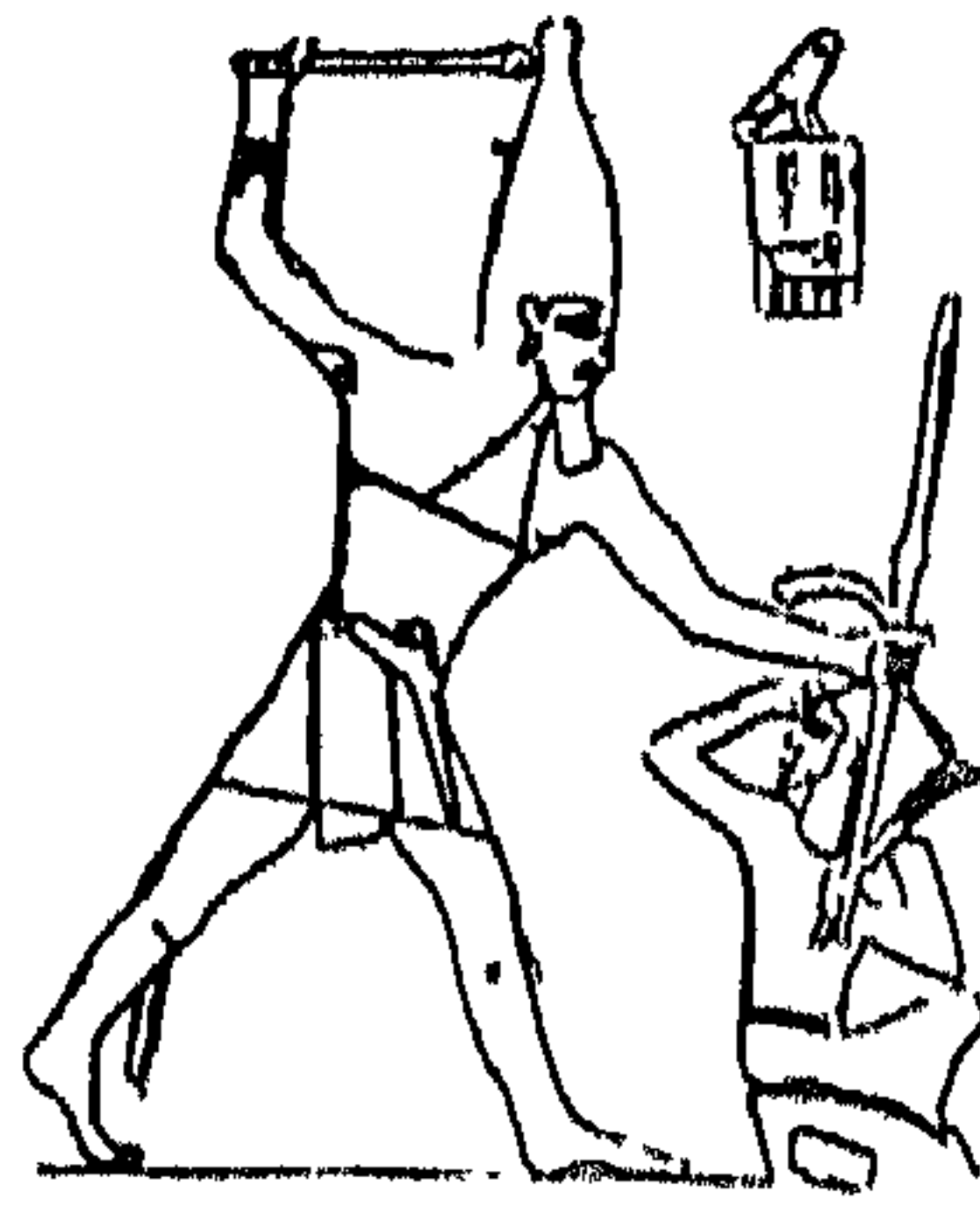
وكان على الملوك أن يحسنوا علاقاتهم بكل هذه السلطات وفي نفس الوقت يعملون على عدم تهديدها لسلطانهم ، وطالما كان الملك قويا فإنه كان ينعم باستقرار الأمر له وازدهرت البلاد ونعمت بالامن والهدوء في حين أن ضعف الملوك كان يؤدي إلى كثرة الدسائس من حولهم وقد ينجم عن ذلك إسقاطهم على أيدي مختصين للعرش أو قيام الثورات ضدهم وإن لم يكن هذا وذاك فإن كلا من الطوائف المختلفة التي تعاون الملك في تصريف أمور الدولة تعمل على زيادة نفوذها والإكثار من الامتيازات التي تتمتع بها وتسوء أحوال الدولة ويعم فيها الفساد .

ومع أن الملك كان ينتسب إلى الآلهة بل واعتبر في نظر المصريين إله كما يتضح ذلك من الألقاب التي كان يتخذها (١)، كذلك كانوا يشيرون إليه بلفظ « الإله » ، « حور الذى فى القصر » ، « الإله الطيب » الخ... وبعد موته يطلقون عليه « الإله العظيم » - إلا أن فكرة ألوهية الملك الحي لم تمثل ماديا إلا ابتداء من عصر الأسرة الثامنة عشرة ، فنجد أقدم العصور لم تنشأ معابد لعبادة الملك وهو على قيد الحياة إذ أن أقدم ماعثر عليه من معابد لعبادة الملك وهو مازال حيا كان من عهد الملك امنحتب الثالث (٢)، ومن الممكن أن تكون الفكرة التي ابتدعتها حتشبسوت في معبدها بالدير البحرى والتي حاكها امنحتب الثالث في معبد الأقصر من تصوير مولدهما كأن الإله آمون نفسه قد اتصل جنسيا بوالدتيهما وأنجبهما من صلبه مما جعل فكرة إنشاء معبد لعبادة امنحتب الثالث لشخصه مقبولة لديه إلا أنه لم يبدأها في مصر إذ لم تبدأ عبادة شخص الملك الحي في مصر إلا منذ عهد رمسيس الثانى.

وما دام الملوك يتمتعون بمثل هذه المكانة فإنه كان لابد من أن يمتازوا عن رعاياهم فى زيهم وزينتهم وإن كان لباسهم فى أقدم العصور يتسم بالبساطة لايزيد على إزار قصير ذو شريط يمتد فوق الكتف الأيسر وحزام مثبت به ذيل حيوان من الخلف ويوضع فيه خنجر من الأمام وهذا الزى يشبه ما كان يلبسه صيادو الوحوش فى أقدم العصور

(١) الألقاب الخمسة الشائعة هي : حور ، الرباث (أو المنتسب الى الالهتين نخت إلهة الوجه القبلى ووادجيت إلهة الوجه البحرى) ، ملك مصر العليا والسفلى ، حور الذهبى ، ابن رع .
(٢) فى سدنجا ، سيب ، صلب بشمال السودان .

(شكل ٧) وإلى جانب هذا الإزار كان الملوك يتزيون بنقبة قصيرة تلتف حول الوسط فوق ما يشبه الجعبة التي تستر العورة وفي الوسط حزام مثبت بمشبك من الأمام نقش عليه اسم الملك وقد أصبح هذا الزي تقليديا في معظم العصور الفرعونية .



شكل (٧) أحد الملوك بالزي القديم

وكان يتحلى بلحية طويلة صناعية مديبة يثبتها إلى ذقنه كما يضع على رأسه عصابة تنحدر على الكتفين بشنايا كثيرة وتلوى في الخلف على هيئة صغيرة قصيرة فوق العنق ويشدها على الجهة شريط يمثل على منتصفه الجزء العلوى للأفعى السامة (أوريوس) رمزا لحمايتها له (كأنها تهدد أعداء الملك) بينما يمتد بقية جسمها في خط متعرج فوق منتصف الرأس — أما التيجان فقد كانت تختلف في أشكالها وما ترمز له فمنها التاج الأبيض وهو تاج الوجه القبلى وكان على شكل مخروط طويل ومنها التاج الأحمر وهو تاج الوجه البحرى وكان على شكل قلنسوة لها ظهر كمسند مرتفع وحلية ملتوية من الأمام ومنها التاج المزدوج الذى يجمع بين التاجين السابقين ومنها التاج الأزرق ... الخ — ومن شارات الملك

التي كان يستعملها عصا معقوفة (كان شكلها يستخدم في الكتابة بمعنى «حاكم أو ملك») وأداة تشبه السوط أو المذبة، أما السلاح التقليدي الذي كان يمثل مستخدما له في النقوش التي تبينه وهو يقضى على الأعداء فكان هراوة أو دبوس قتال هو عبارة عن عصا قصيرة مثبت في طرفها كتلة من الحجر. وقد تطورت أزياء الملوك بمرور الزمن ولكنها في الغالب لم تختلف عن ملابس الرعية إلا بما تحلى به من زخارف ذهبية على أن النقبة الملكية التقليدية ظلت ملازمة لهذه الأزياء فكانت تلبس فوق الملابس العادية أو تحتها - وإلى جانب شارات الملك السابقة أخذ الملوك منذ عصر الدولة الحديثة يستخدمون سيفاً يشبه المنجل.

ومن الطبيعي أن كثرة واجبات الملك وتعقد الحياة الاجتماعية قد استوجبتا ظهور الملك بمظهر لائق في المناسبات المختلفة ولذا كان من المحتم مراعاة اختيار الملابس والشارات المناسبة والعناية بها وملاحظة دقة استعمالها واختص عدد من الموظفين في البلاط بهذه الأمور فكان هناك «موظفو خزانة الثياب الملكية»، و«المشرف على ثياب الملك»، و«غسال فرعون»، و«رئيس غسالي القصر»، و«رئيس القائمين بتبييض الثياب الملكية»، و«المشرف على صانعي الشعر (المستعار)»، و«وصانع شعر فرعون»، و«أمراء التيجان»، الخ - أما الحلى فكانت لها إدارة هامة في القصر «إدارة الحلى الملكية»، ولها رئيس وكتاب ورئيس صناع ورئيس فنانين و«المستشار الخاص بحلى الملك»، و«مبدع الحلى الملكية».

وكان العرش في أول أمره بسيطا عبارة عن مقعد في هيئة مكعب ذو ظهر قليل الارتفاع وابتداء من عصر الدولة الحديثة صار هذا المقعد

يوضع تحت مظلة تحملها أعمدة خشبية دقيقة ، ويبدو العرش وكأنه يرتكز على رؤوس أعداء مصر التقليديين (الزوج والآسيويين) وتحلى المظلة في أعلاها بزخارف في هيئة صفوف من أفاعى الحماية (أوريوس) وفي قاعدتها بأسماء البلاد الأجنبية التى هزمها الملك .

حاشية الملك

لا يمكننا أن نتعرف على كل أفراد حاشية الملك ووظائفهم فى البلاط بصورة كاملة ، ولكن من الممكن أن نتبع الكثيرين منهم إذا تأملنا مناظر الاحتفالات المدنية والدينية التى كان الملك يشترك فيها وخاصة من عهد الدولة الحديثة - فى أقدم العصور كان الملك يتجلى لرعيته فى محفة يحملها عدد من الجنود ويرافقه موظف كبير يحمل لقب « حامل المروحة على يمين الملك ، وهو يحمل مروحة صغيرة رمزا لمكانته ، بينما يوجد حامل مروحة كبيرة أمام المحفة وآخر من خلفها ، وحينما يخرج الموكب الملكى من القصر لحضور أحد الاحتفالات أو للزومة يجرى فى المقدمة رجلان يحملان العصي لإفساح الطريق أمام المركبة الملكية التى تشدها خيول مزينة وعلى جانبيها يجرى الحرس الملكى ويتبعها عدد من الجنود يمثلون مختلف فرق الجيش ومن بعدهم كبار الضباط فى مركباتهم - وإذا صاحبت سيدات القصر الملك فى هذا الموكب فإن عربات الملكة والأميرات تجرى إلى جانب عربة الملك . وفى الاحتفالات التى تجرى داخل المعابد نجد إلى جانب الكهنة القائمين بالطقوس بعض أبناء الملك الذين حضروا لمشاهدتها ويحيط بالملك عدد من كبار موظفيه ، وقد يحمل محفته عدد من أبنائه بينما يقوم عدد آخر منهم باستخدام المراوح ويتقدم الكهنة فى

الموكب طائفة من أقارب وأولاد الملك والأمراء العظام وفي طليعة الموكب نافخو الأبواق وقارعو الطبول معلنين قدوم الموكب .

وبما يوضح لنا الدور الذى كان يقوم به بعض رجال البلاط عدد من النصوص التى خلفها هؤلاء وافتخروا فيها بمكانتهم وحظوتهم لدى سادتهم، فهناك مثلا « المشرف على أسرار غرفة الصباح ، وهو ما يعادل حاليا « رئيس الخدمة الخاصة ، الذى كان يشرف على ملابس الملك وزينته وتمتد إختصاصاته إلى كثير من الشئون ، وكثيرا ما كان يعهد بهذه الوظيفة إلى « ابن الملك ، أو إلى أقرب المقربين إليه لأنه فى غالب الأحيان كان يتحكم فى إدارة القصر أيضا - وإلى جانب هذا الموظف كان هناك عدد كبير من المقربين إلى الملك ، وكانت تقايد القصر صارمة بحيث لا يمكن لأحد هؤلاء أن يتعدى فى مثوله أمام الملك المكان الذى ينخصص له أو أن يقترب من شخص الملك أكثر مما يستحق ، ومع أن لقب « السمير ، و « السمير الوحيد ، يوحيان بأن حامل كل منهما لا بد وأن يكون من أتباع الملك الذين يضمهم بلاطه إلا أن هذين اللقبين كثيرا ما كانا يمنحان على سبيل التشريف لأشخاص يعملون فى خارج البلاط أو فى أماكن نائية عن العاصمة .

ومع أن الملوك كانوا يجمعون بين عدد من الزوجات إلا أن زوجة واحدة هى التى كانت تعد ملكة شرعية وهى التى كان يجرى فى عروقتها الدم الملكى أو أن تكون أولى زوجات الملك ، وكان اسمها يوضع فى خرطوش كما هو الحال بالنسبة لاسم زوجها وكان نفوذها عظيما وخاصة إذا استطاعت أن تتحكم فى شخص الملك ، وكثيرا ما كن يلهين دورا

رئيسيا في البلاط بعد وفاة أزواجهن كما أن بعضهن بلغن مرتبة التقديس كآلهات .

ولم بجانب الملكات وغيرهن من زوجات الملك كان الملوك يحتفظون بحريم خاص ومحظيات يخضعن لرئيسة ويشرف عليهن عدد من الموظفين لهم مكاتنهم مثل « المشرف على غرف الحريم الملكية » ، « نائب رئيس الحريم » ، إلى جانب عدد من الحراس الذين يمنعونهم من الاتصال بالعالم الخارجى اتصالا غير مرغوب فيه ، وكثيرا ما كان بعض النبلاء ذوى المكانة يفخرون بأنهم كانوا يشغلون وظيفة « المشرف على بيت الحريم الملكى » ، وبأنهم كانوا يعرضون الحريم أمام الملك ويلاحظون الرقص فى القصر ، وبالطبع كانت مهمة هذا الحريم تنحصر فى تسليية الملك وإدخال السرور إلى نفسه - وكان الوصول إلى مرتبة محظية ملكية يعد شرفا تتطلع إليه الكثيرات لأن بعضهن كن يتمتعن بمحظوة كبيرة لدى الملك وتمنحن ألقاب شرف رفيعة مثل « حاکمة البلاد كلها » ، « سيدة القطرين » ، « الحاکمة الجيلة » ... الخ وكثيرا ما كان يفخر بعض العظماء باتخاذ محظيات ملكيات كزوجات لهم .

ولاشك فى أن تعدد زوجات الملوك وكثرة محظياتهم قد أدى إلى وجود عدد وفير من الأبناء الملكيين ولذا كانت تخصص لهم أملاك معينة كما كانت تسند إليهم مناصب مختلفة دينية وقضائية وإدارية وعسكرية ، وقد عنى بتنشئة هؤلاء الأمراء فى أقسام خاصة من القصر وكان المشرفون على تربيتهم يتمتعون بمكانة سامية فرضعاتهم - وهن غالبا من زوجات الأشراف - كن يابن دورا هاما فى البلاط وخاصة إذا ما أصبح الجالس

على العرش أو الملكة من بين الذين أرضعتهم ، كما أن مربى الأمير أو الأميرة كان هو الآخر يعد من أعلى شخصيات البلاط .

وكثيرا ما كان الملوك يسمحون بتنشئة بعض أبناء كبار رجال الدولة مع أبنائهم في البلاط ويولونهم عطفهم ورعايتهم ولذا كان هؤلاء يفخرون دائما بهذه النشأة عندما يصبحون رجالا ، مهما علا قدرهم .

وينبغي أن نذكر بأن كل ملك كان يشمل بمطفه - إلى جانب أفراد أسرته عدد من الأقارب يميزهم لقب « قريب الملك » ، أو « المعروف لدى الملك » ، ولا يخلو الأمر من وجود أدعياء حملوا هذا اللقب ، ولذا كان أقرباء الملك الحقيقيين يميزون أنفسهم بلقب « قريب حقيقى للملك » ويمكننا أن نتصور أن الملوك وخاصة في أقدم العصور كانوا لا يسندون أكبر وظائف الدولة إلا إلى من يعيشون على مقربة منهم ومن يتوخون فيهم الإخلاص والحكمة ، ولذا لاستبعد أن الوزراء ورؤساء السكينة كانوا من بين الأمراء المملوكيين أو من أقرباء الملك ، ويجىء هؤلاء فى مركزهم الاجتماعى بعد ملك البلاد وأسرته بالطبع - وكان سراة القوم والنبلاء كثيرا ما يحملون ألقابا شرفية كانت لا تمنح صاحبها الحق فى القيام بأعباء وظيفية وإن كانت فى معناها تدل على أعمال معينة ، إلا أن ذلك لم يكن ليقصد به إلا إظهار ما لحاملها من حظوة لدى الملك وتتيح له أن يظهر فى معيته ، ومع كل يمكننا أن نتخيل أن هذا الإجراء كان وسيلة فعالة لمراقبة هؤلاء بإبقائهم على مقربة من القصر .

أما حكام الأقاليم فكانوا يمثلون طبقة خاصة ويجمعون من السلطات مثلما يجمع الملوك فى نطاق الأقاليم التى يحكمونها ، غير أنهم كانوا دون

شك أدنى مرتبة من الوزراء إلا إذا ارتبطوا برباط المصاهرة أو النسب مع البيت المالك نفسه .

وفيما عدا هؤلاء الذين أسلفنا ذكرهم جميعا لانكاد نقيين من طبقات المجتمع الباقية سوى طائفة الموظفين الذين كان المجال أمامهم مفتوحا للترقى إلى أرقى المناصب والارتفاع بمكانتهم الاجتماعية - ولانكاد نقيين من الآثار شيئا يستحق الذكر من الطبقات الاجتماعية الأخرى إلا أن من الممكن أن نتخيل أن هؤلاء كانوا يمثلون على الترتيب مهرة الصناع والفنانين ثم الكادحين من أبناء الشعب وهم التجار والمزارعون والأجراء وأصحاب الحرف الوضيعة والرقيق ، على أنه يبدو أنه كان في الإمكان تحرر بعض العبيد والوصول إلى مكانة اجتماعية مرموقة .

المسكن

لا يمكننا - بالرغم من تقدم الكشف الأثرية في مصر - أن نكون فكرة واضحة عن أقدم المنازل التي وجدت فيها لأن هذه كانت من مواد خفيفة دون شك وكانت باستمرار تقع في نفس الأماكن المجاورة للبحر ، فاذا ما دمر منزل أو تهدم حل محله منزل جديد يبنى على أنقاض المنزل الأول - ولذا كان من العسير العثور على آثار لأقدم المنازل وإعطاء صورة مؤكدة عنها ومع ذلك يمكن أن نتصور أشكال تلك المنازل من الرسوم التي وردت عن أقدم المعابد المصرية لأنه من المعروف حسب رأى المحدثين أن المنزل المصرى هو أساس التصميم في المعابد والمقابر ، وبما يؤيد ذلك أن المصرى نفسه كان يطلق على المعبد اسم بيت الإله وعلى

المقبرة بيت الروح أو المنزل الابدى فكلاهما إذن صمم على غرار المنازل التي أقيمت للأحياء .

وأقدم أنواع المعابد كانت عبارة عن أكواخ من الاليف المضفورة ومن سيقان البردى وغيرها من النباتات المائلة ، ولا شك أن المنازل كانت على مثالها - وقد استبدلت هذه في العصور التاريخية بل ومنذ ما قبل الاسرات بمنازل من الطين كما يستدل على ذلك من نموذج من الطين شكل (٨) وجد في إحدى مقابر الوجه القبلى وهو يمثل المنزل في



شكل (٨) : نموذج من الطين لمنزل من عصر ما قبل الاسرات

هيئة متوازي مستطيلات مائل الجدران الى الداخل وكان إطار الباب من الخشب والعارضة الاسطوانية التي تربط القائمتين من الخشب أيضا وبالحائط الخلفي للنزل نافذتان عاليتان متقاربتان تثبت فيها عوارض قصيرة من الخشب .

وقد سبقت الاشارة بأننا لم نعثر على مدن مصرية كاملة إلا في حالات نادرة وشاذة وقد بنيت هذه المدن لأغراض خاصة وفي عصور خاصة ثم أهملت وهجرت بعد سكنها بفترة قصيرة فأدى ذلك إلى طمرها بالرمال وأتيحت الفرصة لحفظها ، ومن أمثلة هذه مدينة كاهون التي ترجع إلى الدولة الوسطى - وهذه المدينة (شأنها في ذلك شأن مثيلتها أخيتاتون) تل الصارنة ، التي بنيت في عهد اخناتون) بنيت دفعة واحدة ، أى أنها لم تسو بالتدريج فهي مدينة مصطنعة ولذا بقى تخطيطها سليما في جملته وعلى ذلك أمكن للأثريين الذين قاموا بالحفر فيها أن يستكملوا النقص في بعض المنازل التي تهدمت واستطاعوا أن يكونوا فكرة صحيحة عن شكل المنازل فيها .

وتبلغ مساحة مدينة كاهون حسب الأبحاث الأثرية التي تمت فيها ٣٥٠ × ٤٠٠ متر مربع تقريبا ويحيط بها سور من اللبن به فتحتان أحدهما جنوبية غربية والثانية شمالية شرقية وتنقسم هذه المدينة إلى قسمين : أحدهما صغير خاص بمنازل العمال والآخر كبير كان يقطنه الملك وبعض النبلاء وكبار موظفي البلاط وهو مقر الحكومة أيضا .

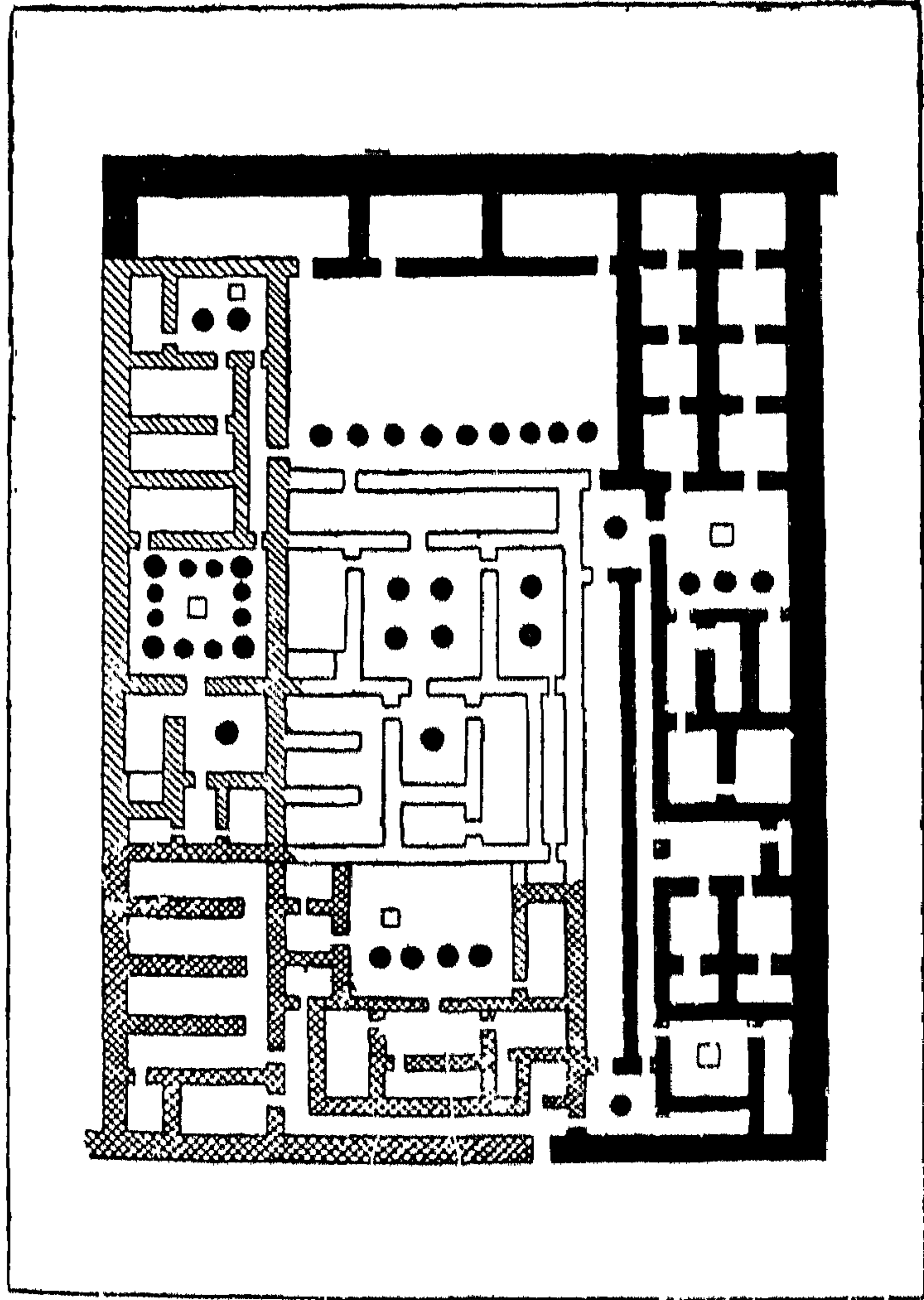
ومنازل العمال غاية في التواضع ويشترك كل منزلين في حائطها الخلفي أما القسم الكبير من المدينة فيقع في الجانب الشرق منها وينفصل عن القسم السابق بجدار عريض يمتد بطول المدينة ، وهذا القسم كان يشغل

نحو ثلاثة أرباع المدينة ونصفه على الأقل كان خاصا بالملك وكبار موظفي البلاط والحكومة ، وهو يتألف من عشرة أو أحد عشر منزلا في حجم القسم الخاص بالعمال ويفصل كل بيتين حائط مشترك وإلى جنوب تلك المنازل الكبيرة كانت توجد منازل صغيرة أشبه بالفيلات وهي خاصة بالنبله وإن كان بعض هذه المنازل الصغيرة كبير الحجم متعدد الحجرات ومنها ما يضم نحو سبعين قسما بين غرفة ودهليز شكل (٩) .

وأهم الأجزاء الرئيسية في أى منزل من منازل النبلاء هي : المدخل وحجرتين للبواب ودهليز يتفرع إلى فرعين أحدهما يتجه إلى بيت الرجال والآخر يتجه إلى قسم الحريم .

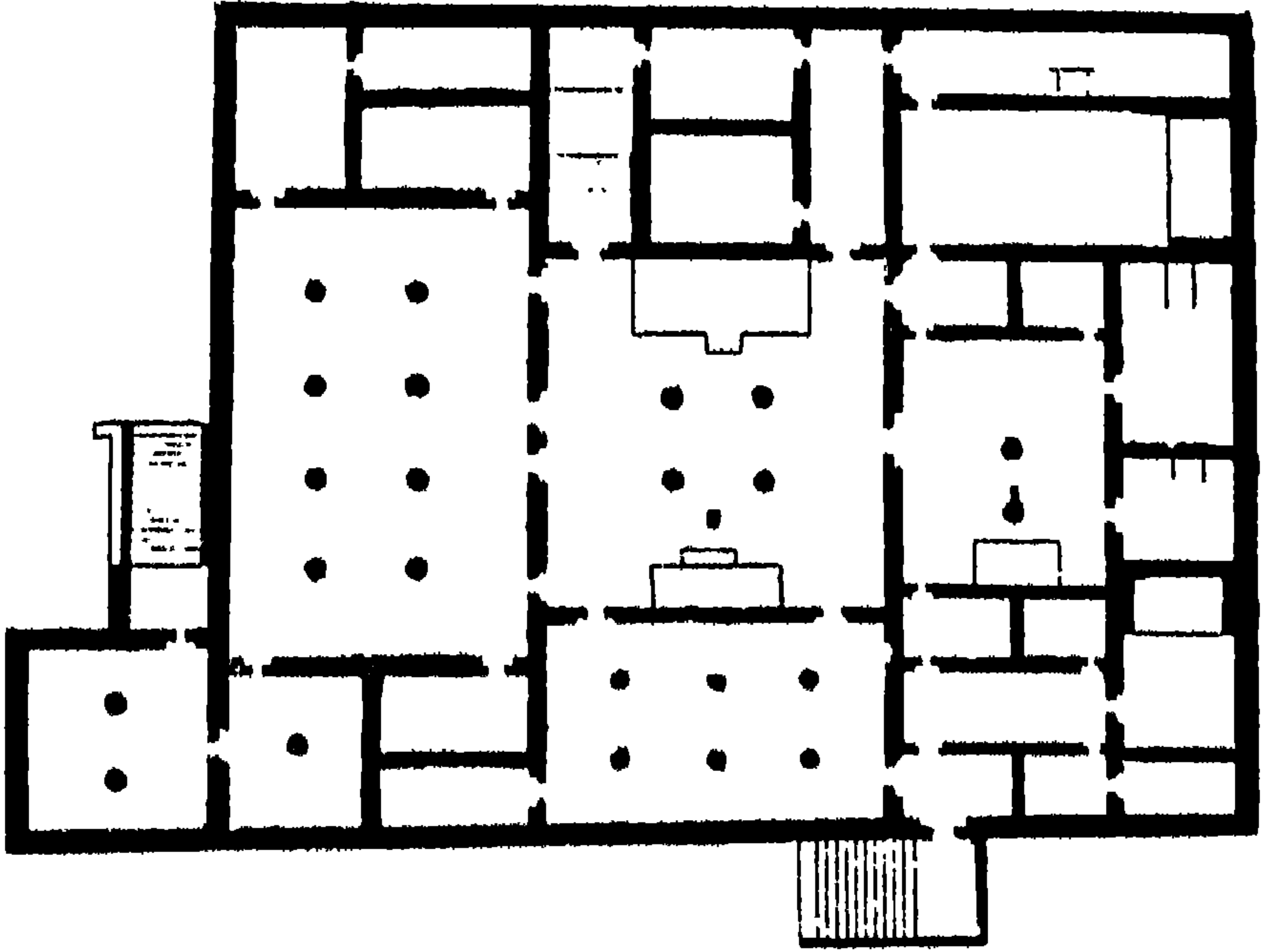
أما منازل العمال والطبقات الدنيا من الشعب فكانت كما ذكرنا بسيطة متواضعة . وهي على العموم تتألف من ردهة تحيط بها بعض غرف وكانت أحيانا تتكون من طابقين .

أما في الدولة الحديثة فأحسن الأمثلة للمنازل فيها تلك التي وجدت في تل العمارنة وهي كذلك على نوعين : منازل لأفراد الشعب عبارة عن غرفة رئيسية في الوسط تبعد ردهات تفصلها وتخفيها عن أنظار الداخلين وفيها سلم يؤدي إلى السطح ولها غرفتان خلفيتان كما توجد بها أحيانا غرفة للاستحمام . أما منازل السادة فكانت أشبه بالدوار في الريف المصري الحالي ، فبعد المدخل الرئيسى يوجد فناء ومن هذا يصعد سلم إلى قسم الرجال ويليه مباشرة بهو أعمدة أو مكان للاستقبال يجلس فيه صاحب الدار ويجوار هذا الجزء توجد غرفة للطعام ومن هذه يفتح باب إلى حجرة أخرى للاستقبال وهي صغيرة نسبيا ويلى هذه سلم يؤدي إلى الدور العلوى أيضا حيث يوجد القسم الخاص بالسيدات .



شكل (٩) : رسم تخطيطي لمنزل من كاهون

وحول حجرات الاستقبال توجد المخازن وبعض الحجرات الخاصة
بوظائف البار ودورات المياه وكذلك توجد بعض الحضائر - والمنازل الامامى
للدار ينفذ في حديقة كبرى مجاورة للمنزل قد يكون لها مدخل خاص
آخر وفي بعض الاحيان يوجد بها مسجد خاص - شكل (١٠) ، وكانت



شكل (١٠) : رسم نخطبطنى لمنزل من العمارة

الابواب والنوافذ فى هذه الدور قليلة العدد بمادة والنوافذ صغيرة المساحة وترتفع إلى قرب السطح وكانت الجدران تزين فى كثير من الأحيان وبمعض المنازل يطلى من الخارج .

وكانت هذه المنازل تزود بأثاث كاف من أسرة ومساند رأس ووسائد وكراسى وغالباً ما كان هذا الأثاث دقيسق الصناعة مزخرف بمختلف الزخارف وخاصة فى عصر الدولة الحديثة بل وابتداء من أواخر عهد الدولة الوسطى كان الأثاث يطعمم بالاصداف والاختشاب الثمينة وبمعض الاحجار الكريمة وشبه الكريمة ، وبعد أن ازدادت الصلة بشمال السودان

كان الاثاث يطعم بالعاج والآبنوس وتطورت أشكال موائد الطعام والاولانى -
وظهرت أشكال كثيرة لقدور المشروبات وقواعدها وربما كانت هذه منقولة
عن طرز آسيوية كما زيت صناديق حفظ الملابس بالنقوش والرسوم
المختلفة التى تمثل مناظر الصيد والحروب وغيرها وما زال أثر ذلك يطالعنا
فى العصور الحديثة حيث نجد مثل هذه الصناديق فى الريف المصرى الآن،
وغالبا ما كانت جدران المنازل تغطى بستر من الحصير كذلك وجدت
مواقد للفحم للتدفئة وكثير استعمال المصابيح وتعددت أشكالها وأشكال
قواعدها كما وجدت أدوات للاغتسال ولسائر الاغراض الاخرى .

وكانت هذه الدور تزود بأماكن مخصصة للطبخ وأماكن لمختلف
الصناعات والاعمال المنزلية ، وهذه الاعمال لا تقتصر على الاعمال البسيطة التى
نزاولها فى منازلنا فى الوقت الحاضر بل كانت متعددة ومعقدة فكانت كل
دار أشبه بمصانع صغيرة متعددة تجتمع تحت سقف واحد ولكل من هذه
عماله المختصين والى جانب هؤلاء موظفين اداريين وعمال للشئون المنزلية
مثل البستانيين والطباخين والخدم والسكتاب والحرس - أما طوائف الصناع
الذين كانوا يعملون فى المنازل فمن أهمهم صناع الجعة والخبازين وصناع
الاولانى الفخارية والنجارين وغيرهم ، ولايفوتنا أن نذكر هنا بأن المائدة
المصرية كانت معقدة تعددت فيها أنواع الاطعمة بل وتعددت أنواع
الصنف الواحد منها مثل الخبز وكانت الحفلات والمآدب غاية فى البذخ
والإسراف مما يدل على اهتمام المصرى بطعامه اهتماما بالغاً كما كان يميل
إلى التأنق فيه والعناية به فى معظم أطرار حياته فلا تكاد تخلو مناظر
الحفلات والموائد من تمثيل الزهور وكثيرا ما كانت ترتب فى
شكل بهيج .

ودراسة المنازل المصرية تدل على أن المصرى عامة وصل الى أقصى ما يمكن الوصول اليه فى سبيل تهيئة مسكنه لراحته وراحة عائلته كما كان يتوخى فى تصميمه أن يحقق أغراضه الصحية والاجتماعية .

« الملابس والزينة »

يبدو أن الإنسان فى البداية كان يتخذ من الجلد رداء يغطي جسمه وفى ذلك كان يستوى الرجال والنساء - وقد ظل الجلد مستعملا بعد ذلك فى عصر الدولة القديمة ولكنه أصبح قاصرا على فئة خاصة هى فئة الكهنة التى استعملت جلد الفهد كزى تقليدى دينى فوق نقبة بسيطة فى كل العصور الفرعونية .

وأقدم لباس للرجال كان عبارة عن حزام حول الوسط يشد إليه ما يشبه الجعبة أو الكيس لستر العورة - بعد ذلك ظهرت النقبة القصيرة البسيطة وهى تشبه قطعة القماش (القوطة) التى يلفها بعض الصيادين أحيانا فى بحيرة المنزلة حول وسطهم وتصل إلى الركبة تقريبا وهى تعرف فى مصر القديمة باسم « شنديت » (شكل ٧) - وتكاد تكون هذه من أول ما استعمل من الملابس فهى من عصر مبكر جدا ، بل ويخيل إلينا أنها استعملت منذ أن عرف الإنسان النسيج وهى تعد الأساس الذى قامت عليه جميع الأزياء الخاصة بالرجال فى العصور التالية وأقدم الرسوم الدالة عليها تصورها فى هيئة خطوط تتدل من الحزام وتعامد عليه أى أنها فى هذا تذكر بألياف النخيل أو السمار أى أنها تشبه زى السكان الأصليين فى جزر هاواي .

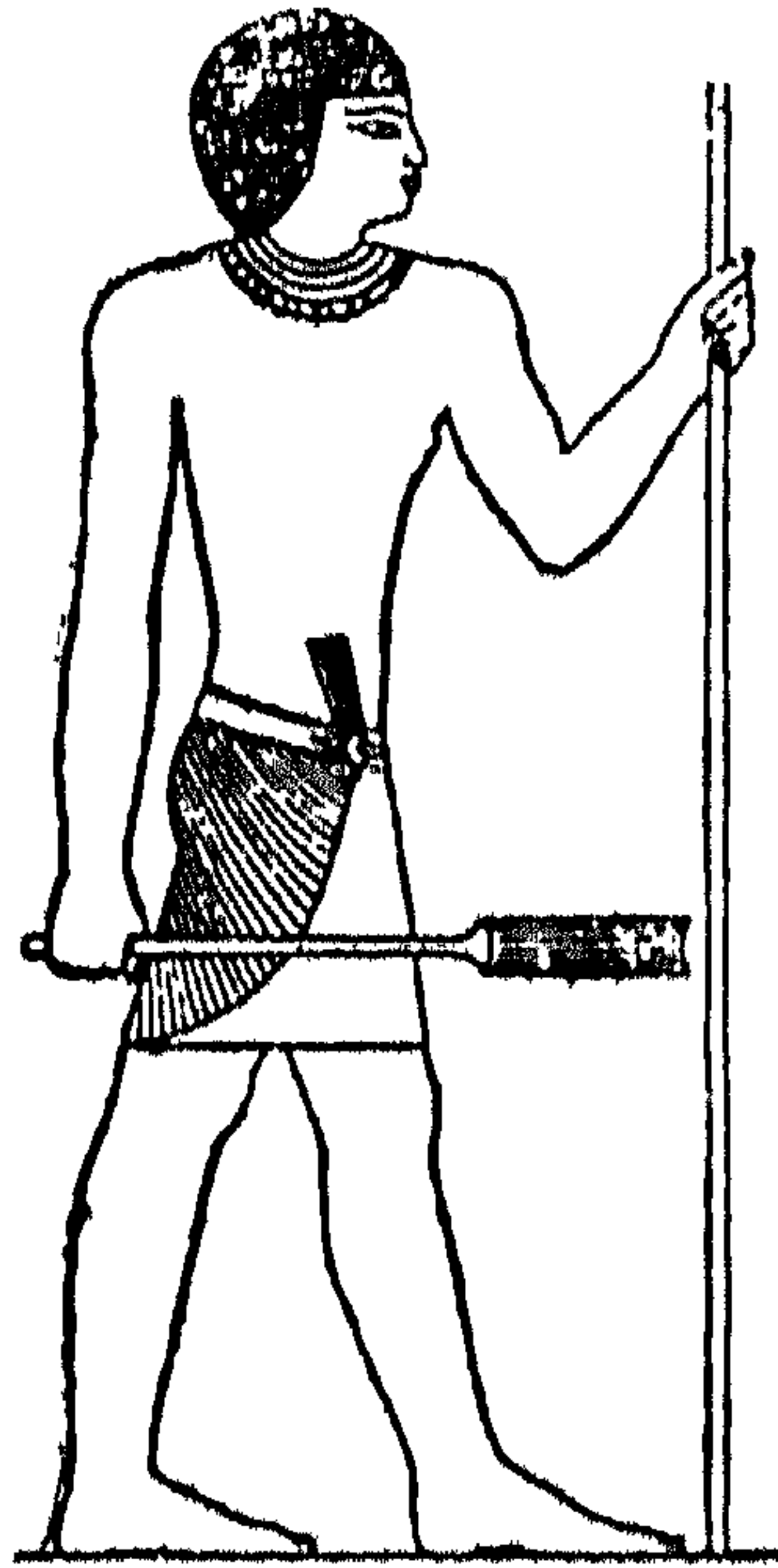
ثم أصبحت هذه النقبة ببضام مستطيلة الشكل تثبت حول الوسط

بحزام وتترك الركبة عارية غير مغطاه وقد أصبحت جمجمة العورة غير ضرورية ولكنها ظلت لباسا تقليديا يتزى به الملك وظلت كذلك حتى نهاية العصور الفرعونية تقريبا - كذلك كان هذا السكيس يمثل في تماثيل بعض الآلهة ونقوشها ، وربما كان هذا الزى (أى الجمجمة) من أصل أفريقى فبعض التماثيل ما زالت تستعمله حتى زمنا هذا - وعند الصيد كان يضاف إلى الإزار القصير (الشنديت) ذيل حيوان ، وقد انقرض هذا هو الآخر إلا من ملابس الملك .

وظلت النقبة الضيقة السكتانية هى القطعة الرئيسية فى لباس المصرى فى الأسرة الأولى والدولة القديمة وكان يلبسها أفراد من ذوى المراكز السامية حتى عهد الأسرة الرابعة ثم اقتصر استعمالها بعد ذلك على الكتبة والخدم والفلاحين - فالمعروف أن التطور يبدأ أولا فى البيت الماسكى ثم يقلده النبلاء وهؤلاء يقلدهم من يتلوهم من الطبقات بعد أن يفقد الشكل الجديد رونقه عند الطبقة الخاصة وبعد ذلك يصبح شائعا فى الطبقات الدنيا بينما يتخذ العظماء زيا جديدا آخر وهكذا - ولم يخرج المصرى عما جرى به العرف أيضا من مراعاة لظروف السن فلما كان ملائما للمسنين لم يكن مناسبا لحديثى السن .

ومنذ عهد خفرع اتخذ النبلاء نقبة أوسع وأطول عن ذى قبل وتغالوا فى ذلك من أواخر الأسرة الخامسة وأصبحت النقبة بارزا من الأمام ثم قصروا فى شكلها فى عصر الأسرة السادسة ولكنها كانت أحيانا تزخرف بخرز منظوم ، إلا أن ذلك لم يدم طويلا إذ بطل استعمال الخرز بانتهاء عصر الدولة القديمة - وفى نفس الوقت تقريبا أى فى نهاية عصر الدولة القديمة

بدأ الخدم والفلاحون يستعملون نقبة أوسع مقلدين بذلك خدم العظماء الذين كانوا قد بدأوا محاكاة أسيادهم - وفي أحوال نادرة استعمل الرجال ملابس طويلة سابغة تشبه القميص وتصل إلى قرب القدمين وغالبا ما كان يظهر بها الموتي المشايين أمام موائد القرايين ، ويبدو أن هذا الزي كان يستعمله المسنون في نهاية حياتهم أى في الفترة التي تسبق وفاتهم - وكان هناك رداء للاحتفالات يلبسه العظماء وهو من النوع القديم القصير وربما كان أوسع منه قليلا ويتميز عنه بشكله الأنيق المستدير من الأمام وفيه يبرز طرف رفيع من النقبة من تحت الحزام مرتفعا إلى أعلى أو شريط خاص ويزين بمشبك أنيق أو أنشودة جميلة يكتب عليه أحيانا اسم صاحبه ويزخرف الجزء الخلفي من الإزار بقطعة من القماش الذهبي ذي الثنايا (شكل ١١)



شكل (١١) : الزي التقليدي في الدولة القديمة

وفي حالات خاصة من الدولة القديمة والوسطى (السكينة فقط) كان رداء الحفلات يكمل بجلد فهد يضمونه على أكتافهم بحيث تتحدر رأس ومخالب الحيوان الأمامية إلى أسفل وتربط المخالب الخلفية بشرائط فوق الكتف - وقد ظلت هذه الملابس دون تغيير في عهد الفوضى الأول اللهم إلا أن النقبة استطالت إلى منتصف الساق .

وفي الدولة الوسطى زخرف الطرف الأعلى للنقبة بحاشية مطرزة أو بعمل ثنايا أنيقة في الجزء الأمامي منها - وكان النبلاء يتخذون نقبة خفيفة شفافة فلبسوا تحتها نقبة داخلية ، أما العامة فقد اقتصروا على نقبة سميكة - وقد عاصر النقبة المزدوجة التي كان يرتديها النبلاء معطف قصير أو ثوب ضيق محبوك مخطط يغطي الجسم من الرأس إلى القدمين .

ولم يطرأ على ذلك تغيير يذكر فيما بين الدولتين الوسطى والحديثة غير أن الأشكال الفاخرة أخذت تغطي على الأشكال البسيطة ولم يحتفظ بالنقبة البسيطة إلا السكينة . وفي عهد الدولة الحديثة بالذات أدى احتكاك مصر بالبلاد الآسيوية في الشمال إلى تغيرات سريعة في الزي ، فنذ عهد حتشبسوت غطى الجزء الأعلى من الجسم بقميص قصير فضفاض ولكنها تغيرت من جيل لآخر - ففي بداية النصف الثاني من الأسرة الثامنة عشرة استطالت النقبة الخارجية من الخلف وقصرت من الأمام وفي نهاية الأسرة كانت النقبة الداخلية طويلة فضفاضة أما الخارجية فكانت ترفع وهي منتفخة فتظهر من تحتها النقبة الداخلية وكان الجزء الأمامي منها ينتهى بثنايا سميكة وتتدلى أطراف الحزام كشرائط طويلة .

وقد أخذت النقبة الخارجية تقل في الأهمية في الاحتفالات حتى

أصبحت قطعة من القماش تلف حول الخصر بينما أصبحت النقبة الداخلية فضفاضة ذات ثنايا، وتعددت أشكال هذه النقبة الداخلية فكانت أحيانا قصيرة من الأمام وتغطي الساقين من الخلف وفي أحيان أخرى كانت تتخذ شكل النقبة القديمة أو كانت تلف حول الخصر مرتين أو ثلاث . أما الجزء الذى يغطى الجسم من أعلى فظل ثابتا تقريبا ولكنه فى عصر الأسرة التاسعة عشر أصبح أكثر اتساعا - أما المعطف الذى كان يغطى الظهر ويربط من الأمام على الصدر فقد ظل مستعملا كذلك وظهر الملوك فيه كثيراً ولم يلبسه الأشخاص إلا فى الحفلات .

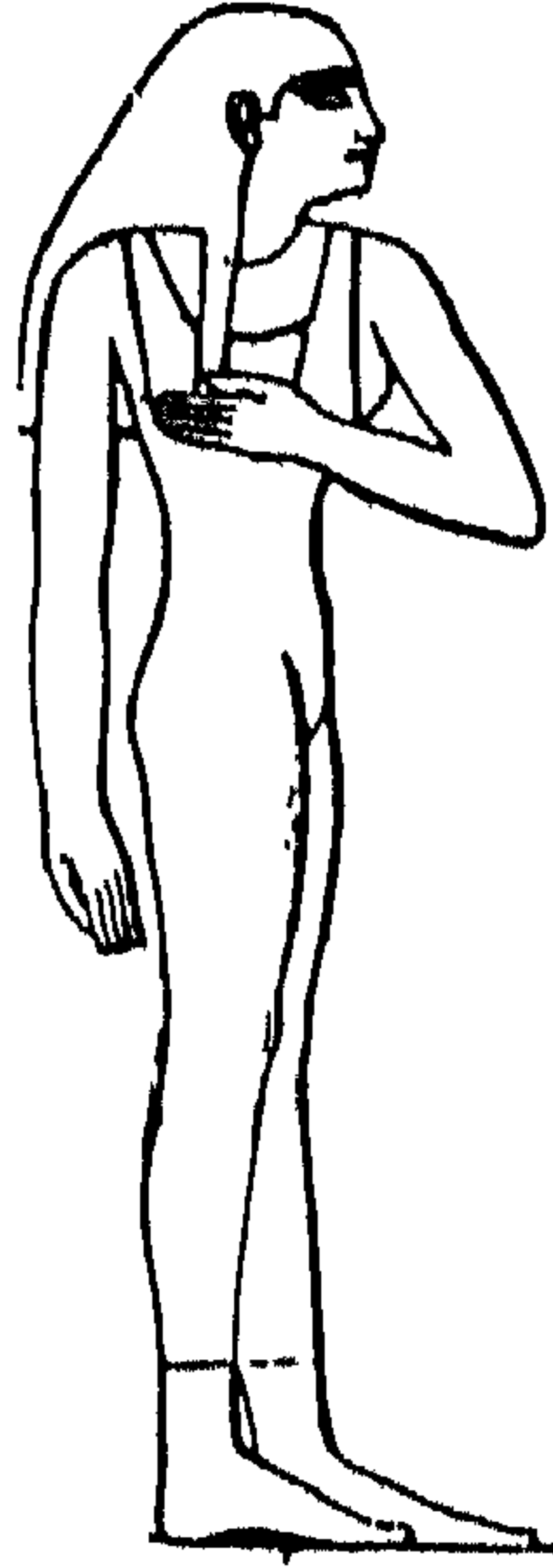
وقد وجدت ملابس خاصة ترتديها طبقات معينة من الشعب أو ملابس تدل على وظيفة لابسها وهذه وجدت فى جميع العصور فالملك مثلا كان يلبس فى الحفلات التذكارية قميصا قصيرا ونقبة ماسكية لها ذيل حيوان ثم أصبحت هذه النقبة فى متناول طبقات عدة فيما بين الدولتين الوسطى والحديثة حتى أنها فى عهد الأسرة الثامنة عشرة أصبحت زيا شائعا بين المشرفين على كل أنواع الإدارات فى المناسبات الرسمية فقط وإن كانوا أحيانا يلبسون زيا مشابها ، ومع كل فحينما قضت ظروف التجديد باستعمال نقبة خارجية فإنهم كانوا يرفعون هذه ويربطونها حتى تظهر النقبة الداخلية من تحتها إشارة إلى مكانتهم - ومن علامات الشرف أيضا أن النبلاء فى الدولتين القديمة والوسطى كانوا يلفون قطعة من القماش الأبيض ، حول صدورهم أو يعاقونها متدلية فوق الكتف فى شكل شريط عريض ، وقد أصبح هذا الشريط زيا مميزا للسكان المراتل فى جميع العصور كما أن الشريط الضيق الذى كان يمسكه النبلاء بين أصابعهم ورؤساء الأعمال لم يقتصر استعماله على عصر من العصور .

وابتداء من أواخر الدولة الوسطى كان كبير القضاة والوزير يلبس ثوبا محبوكا ينحدر من الصدر حتى يبلغ القدمين يثبت شريط من الخلف عند الرقبة .

وفي عهد إخناتون زين الملك وزوجة أريدتيها بخراطوش - آتون أما ملابس صغار الموظفين فقد كانت متأخرة في تطورها ، ففي عهد الدولة الوسطى لبس هؤلاء النقبة القصيرة التي كانت مستعملة في الدولة القديمة وفي الدولة الحديثة لبسوا النقبة الأطول الخاصة بالدولة الوسطى - كذلك كان أفراد الطبقات الدنيا من الشعب كالفلّاحين والرعاة والعمال يلبسون نقبة قصيرة عادية غير مضمومة الأطراف تكفي أية حركة لفتحها من الأمام وكانت من السكتان عادة وفي عهد الدولة الحديثة بالذات كان العمال يلبسون فوقها شبكة من الجلد وكثيراً ما كانت ترقع في الأماكن المستهلكة فوق الساقين ، أما الرعاة والملاحين فكانوا يلبسون نقبة بدائية من الشرائط المضفورة وكان الصيادون ومن يعملون في الماء يلبسون حزاماً تتدلى منه أشرطة أو هذب من الأمام - وكثيراً ما كان الصياد والراعى والجزار يضطر إلى خلع زيه أثناء العمل فيعمل وهو عارى تماماً .

« ملابس النساء »

كانت ملابس النساء بسيطة متماثلة منذ أقدم العصور حتى الأسرة الثامنة عشرة فلا فرق يذكر بين الفلاحة والإبنة الملكية إذ كان الثوب بسيطاً خالياً من الزينة وكان من الضيق بحيث يبرز تقاطيع الجسم بوضوح (شكل ١٢) ، وكان ينحدر من الثدي ويمتد حتى يبلغ العقبين ويثبت بشرطين يمران فوق الكتفين - وهذان الشريطان وحدهما هما اللذان خضما



شكل (١٢) : الزى العادى للمرأة

للتطور فأحيانا كانا يمتدان فى وضع رأسى من القميص إلى الكتفين وأحيانا يتقاربان من بعضها فى ميل عن الاتجاه الرأسى وفى أحيان أخرى كانا يتقاطعان - وقد يما كان هذان الشريطان يغطيان الثديين تماما ثم أصبحا يضيقان أو يختفيان تماما فيبرز الثديان .

وكان القميص عادة من لون واحد لا زخرف فيه إلا عند حافته العليا إذ كانت هذه تطرز أو تزخرف أحيانا ، وكانت الملابس المحلاة بالرسوم نادرة - وهذه الزخارف كانت عبارة عن خطوط أفقية أو رأسية أو تنحصر فى زخرف ريشى أو زهيرات تلتشر فوق الأثداء والأغلب أن تطرح شبكة من حبات الخرز فوق القميص البسيط الذى كان أحيانا يلبس

فوق الثوب العادى (كما هو ممثل فى تمثال نفرت زوجة كبير الكهنة
رع حتب الموجود فى المتحف المصرى) .

وفى الأسرة الثامنة عشرة أى حوالى الوقت الذى تغير فيه زى
الرجال تغير كذلك زى النساء وأصبح من قطعتين أيضا الأولى قميص
ضيق يغطى الكتف اليسرى بينما تكون الكتف اليمنى عارية، أما الرداء
الثانى وهو الخارجى فكان فضفاضاً ويربط من الأمام فوق الثدي وكلاهما
من الكتان الشفاف ترى تقاسيم الجسم خلالها وإن كان بعض الأثريين
يرى بأن تمثيل تقاسيم الجسم لا يرجع إلى شفافية الأثواب وإنما يرجع
إلى غرض دينى يحتم اظهار سائر أعضاء الجسم ، أى لم يكن هذان الثوبان
شفافان - وكان الرداء الخارجى يوشى عند حاشيته بتطريز وينسدل باستقامة
عند الوقوف ، ثم تطور هذا اللباس كثيراً بحيث يصعب تتبع تفصيلاته وإن
كان من المؤكد أن الرداء الخارجى فى عصرى الاسرتين التاسعة عشرة
والعشرين قد تطور فأصبح ينسدل فوق الذراع اليسرى أما الذراع اليمنى
فكانت طليقة . وحوالى نهاية الأسرة العشرين أضيف قميص سميك إلى الثوب
الداخلى الذى كان على الأرجح نصف شفاف علاوة على الرداء الخارجى
المفتوح - كذلك وجد زى آخر مختلف عن الطراز المألوف وهو يتألف
من ثوب طويل له أكمام ومعاطف قصير متركب به دباب يوضع فوق الاكتاف
ومن الأمام ينسدل رداء يشبه النقبة ولكنه يمتد من الرقبة إلى
القدمين .

أما الخادومات فقد كن يلبسن قميصا يصل إلى الرقبة وله كان قصيران
أحيانا ولم يكن هناك فارق يذكر بين ملابس الخادومات والطبقات الدنيا

وبين السيدات من نفس العصر وهذه الثياب عموماً لم تكن لتسمع إلا بحركات محدودة ولذا كن يحتفظن بنقبة صغيرة عند العمل ويتجردن عما عدا ذلك وهو ما كانت تفضله الراقصات اللائي كن يزين النقبة بكل ألوان الزخارف، أما صغار الوصيفات فكان عاريات تماماً إلا من حزام ضيق مطرز حول الخصر .

ونظراً لانتشار استخدام السكتان في صنع الملابس حرص المصريون على نظافته وتفتنوا فيها وأدى هذا إلى وجود فئة خاصة للقيام بهذا العمل، ومن الألقاب التي كان يفخر بها بعضهم لقب «رئيس الغساليين للملك»، و«رئيس المبيضين للملابس الملكية»، ولاندرى شيئاً عن المادة التي استعملت لإزالة الأوساخ أو التي تعادل الصابون ولاكتنا نعرف من الرسوم والنقوش الأثرية أن المصري كان يضرب ملابسه بعضى قصيره ويعصرها ويضمخها بالدهون والزيوت العطرية - ولا نعرف شيئاً يذكر عن حياكة الثياب ولكن يبدو أن هذه المهنة كانت شاقة عسيرة كان يقوم بها الرجال في الغالب وإن قامت النساء أحياناً بمثل هذا العمل كما يفهم ذلك من قصة الأخوين مثلاً ولم يحدث هذا إلا في نطاق محدود .

النعال :

كان المصريون كثيراً ما يمثلون حفاة لا فارق بين فلاح وملك، شيخ وشاب ، رجل وامرأة . وفي الدولة القديمة لم تستعمل المرأة النعال إلا نادراً كذلك كان الرجال لا يلبسونها إلا عند الضرورة القصوى أو للزينة وكان الخدم والعمال الزراعيين يستعملون النعال في الحقول للسير على الجذور

والقش - وكان العظاماء يخلعون النعال كما أمكن ذلك ويمطونها
لحامل النعال .

وفي الدولة الوسطى كان عدم امتلاك النعال من علامات الفقر كما
يتضح ذلك بما ورد في تنبؤات الحكيم ايبو- ور . وفي الدولة الحديثة أصبح
استعمالها عاما ومع ذلك ظل المعتاد أن يخلع النعل في حضرة الشخص
الأعلى مقاما .

والنعال عامة كانت في جوهرها من شكل واحد فالجزء الأسفل كان
من البردى أو سعف النخيل أو الجلد وفي هذه الحالة الأخيرة كان يخاط
نعل آخر من سعف النخيل فوق الجلد - وللنعل سيران من المادة المصنوع
منها أحدهما يمر على أدلى القدم والآخر يوضع بين الأصبع الكبير
والأصبع التالي له ويتصل بمنتصف السير الأول ، وأحيانا يمر سير
ثالث حول القدم من الخلف يحكم تثبيت النعل . ومن نهاية الاسرة الثامنة
عشرة فضلوا نوعا طرفه مدبب إلى أعلى أى أن هذه النعال كانت تشبه
بعض الصنادل التي تلبس في الصيف .

ب) الزينة :

١ - الشعر : لم يكن قص الشعر وحلاقة الذقن معروفين في العصر
الباكر وقد استمر عامة الشعب والرعاة والفلاحين أحيانا في عدم قص
الشعر والحلاقة خلال الدولة القديمة أيضا - ولا يدل ذلك على عدم اهتمام
القوم بزينة الرأس بل إن ما عثر عليه في مقابر العصور السحيقة ومن
أوائل عصر الاسرات يدل على مدى اهتمامهم بهذه الزينة حيث وجدت
الامشاط ودبابيس الشعر في تلك المقابر .

ويبدو أن عادة قص الشعر بدأت عند الطبقات الراقية منذ الأسرة الأولى أى حوالى نفس العصر الذى وجدت فيه النقبة السكتانية التى حلت محل النقبة المضفورة - وفى بعض الأحيان كان الشعر يقص بحيث يبقى قصيراً فوق الرأس فلا تحتاج إلى غطاء ، وفى أحيان أخرى كان الشعر يزال ولذا كان لابد من لبس قلنسوة ضيقة مبركة لحماية الرأس ضد أشعة الشمس ، كما كان من المعتاد كذلك استعمال شعر مستعار .

وفى الدولة القديمة تميز نوعان من الشعر المستعار : أحدهما يشبه الشعر المجعد القصير والآخر يشبه الجداول الطويلة وكان الأول لا يترك من الجبهة ظاهراً إلا القليل فى أغلب الأحيان ويغطى الأذان ، وكان الثانى يمتد خلف العنق وخصلاته تتخذ أشكالاً هندسية أى تكون فى هيئة المثلث أو المربع أو فى شكل مستدير ويكون قص الشعر على الجبهة فى هذه الحالة مستقيماً أو مستديراً .

وفى الدولة الوسطى لم يظهر تغير يذكر أما فى الدولة الحديثة فقد حدثت تطورات كثيرة أهمها شكلين : الأول قصير مقصوص من الخلف باستدارة والثانى طويل مهدل من الامام على الكتفين ، وكان كلاهما يرسل أو يجمع بطريقة جذابة أو يكون فى جداول صغيرة حول الوجه وتكون الجداول حلزونية فى الشعر الطويل بحيث يبرز الفرق بين شعر الرأس المستقيم وبين تلك الجداول - وقد استمر هذا حتى عصر الأسرة العشرين .

ولم يقتصر تزيين الشعر على الرجال وحدهم بل سارت النساء على هذا المنوال أيضاً فى عصر الدولة القديمة كانت تملو رؤوسهن كسوة

كبيرة من الشعر المرسل الذى يتدل حتى الثدين فى مجموعتين وهى فى الغالب من الشعر المستعار - وكانت كل الطبقات تتساوى فى هذا وإن كانت الخادومات والبنات أحياناً لا يستعملن هذا الشعر المستعار ، وفى بعض الأحيان كانت السيدات العظيمات تستعملن شعراً مستعاراً قصيراً ينتهى عند الاكتشاف ويظهر من تحته الشعر الطبيعى المفروق وهو يغطى الجبهة إلى قرب العينين .

وقد ظل الشعر المستعار فى الدولة الوسطى كما كان فى الدولة القديمة إلا أن هداباً جليلاً أضيف فى نهاية مجموعتى الشعر ، وكانت بعض السيدات الراقيات يعقمن شعرهن الطبيعى القصير فى جدائل صغيرة تشبه الشعر المستعار الذى استعمله الرجال فى الدولة القديمة .

وفى الأسرة الثامنة عشرة ظهرت أشكال جديدة فى أغطية الرأس حيث أبطلت الغدائر الطويلة التى كانت من الأمام وأصبح الشعر طليقاً مرسلاً على الظهر والسكتفين أو على الظهر فقط وكان ينسدل فى بساطة أو يضفر فى جدائل أو يجمد وتكون هذه الجدائل منمقة أو فى جدائل قصيرة وكانت أطراف الضفائر المعقدة أو الجدائل تجمع أو تجدل معا بحيث يكون الشعر الثقيل بمثابة حاشية ذات هداب ، وقد وردت بعض النقوش التى تمثل عازفات للموسيقى وشعرهن المجمع يحيط بالوجه وتتدل من خلف الرأس بضعة جدائل فى ضفيرة متصلة بها . وبعد الأسرة العشرين رجعت الطريقة القديمة وإن غالت السيدات فى طول الشعر المستعار وطرق تصفيفه .

ويبدو أن عملية التصفيف كانت تستغرق وقتاً وجهداً كبيرين فمن

النقوش نرى بعض السيدات وأمامهن وصيفاتهن يقمن بتصفيف شعورهن بينما تقدم لهن المشروبات ليستمتعن بها على قضاء الوقت الطويل الذى تستغرقه هذه العملية (شكل ١٣) التى يمكن مقارنتها بعملية تصفيف الشعر لدى سيدات شمال السودان الآن، وقد أثر على عدد كبير من الأمشاط المختلفة الأشكال والأحجام من عصور مصر المختلفة وكانت هذه الأمشاط تزخرف بمختلف النقوش.



شكل (١٣) : سيدة يصفف لها شعرها
وتتناول مشروباً

٢ - اللحية

حلقت اللحية من عصر الأسرات الأولى وربما كان حب المصرى للنظافة هو الدافع لذلك، وفى الدولة القديمة ظل الشارب الرفيع ممثلاً فى تماثيلها ونقوشها ولمكنه اختفى بعد ذلك ولم تمثل اللحية المدببة إلا فى زى الملوك فقط.

وهي لحية صناعية عبارة عن جديلة صغيرة مضافورة جيداً لتبدو كلحية طبيعية وقد قلد العظماء في الدولة القديمة الملوك واستمر ذلك في الدولة الوسطى . أما في الدولة الحديثة فقد أصبحت اللحية نادرة وفي مناسبات معينة وكانت لحية الشخص العادي أصغر من لحية الملك - وكان للآلهة لحية خاصة وهي أطول من لحي البشر وتجعل على شكل صغيرة تشي عند طرفها المدبب إلى أعلى .

٣ - الخصل

استعمل العقود الرجال والنساء على السواء وذلك منذ أقدم العصور، وكانت العقود من أحجار كريمة ونصف كريمة ومن القاشاني وتنظم في خيوط بسيطة بها تديمة في الوسط غير أن هناك عقوداً عريضة تتألف من عدة صفوف، تنتظم خرزاتها بأشكال بدعية وتنتهي خلف العنق بثقل على هيئة شراية (شكل ١٠)، أما الأساور فكانت من القرن والعظم والعاج والنحاس ووجدت كذلك أساور من الصوان ولكنها كانت دقيقة في أول الأمر ثم حلت محلها أساور أعرض، وكان يلبسها الرجال والنساء على السواء حول الذراع والساعد - وكانت الخلائع شائعة بين النساء أما الأقراط فكانت إما في هيئة حلقات تثبت في الأذن وبها فجوة تضغط على شحمتها أو في صورة معلقات تثبت بدبوس ينفذ في شحمة الأذن ، ويبدو أن الحلقات جاءت إلى مصر من الجنوب أما المعلقات فجاءت من آسيا - وقد امتنع الرجال عن استعمالها (فيما عدا الملوك) ابتداء من عصر الأسرة التاسعة عشرة .

أما الخواتم فقد استعملت في الحلى منذ أقدم العصور وتمددت أشكالها، وفي العصور المتأخرة أصبح ينقش عليها اسم صاحبها ولقبه أو تنقش عليها رسوم يقصد منها التوفيق والفعال الحسن وقد ينقش عليها أحيانا اسم الملك الحاكم .

ولم يستعمل المصريون (باستثناء الأسرة المالكة) غطاءً للرأس سوى القفاسوة الضيقة المحبوكة التى سبقت الإشارة إليها عند الكلام على الشعر المستعار وكان الملك يضع تيجانا مختلفة أو عصابة للرأس ذات ثنايا .

أما الملكات فكان منذ بدء الدولة الحديثة يضمن الحلية القديمة التى تتزى بها الآلهات وهى على شكل أنثى العقاب التى تنشر جناحيها على الرأس - وكانت نساء العامة فى الحفلات تكتنى بإكليل أو شريط مزركش فى أطرافه مشبك نفيس يشده ويربطه .

وكان الأولاد فى جميع العصور تقريبا لا يمتازون بأى زى خاص للرأس ولكن ابتداء من الدولة الحديثة كانوا يضعون عصابة ذات ربطة عريضة حلت محل خصلة الشعر الجانبية، كذلك كانوا يضعون أحيانا بعض التيجان البسيطة إذا كانوا من الأمراء .

وقد امتاز الرجال على النساء بالمصى والصولجانات وكان لكل عصا ولكل صولجان اسم خاص ودلالة خاصة وتستخدم فى مناسبات معينة . وقد أبطل استعمال الأصباغ والوشم منذ الدولة القديمة ، ولكن ظلت للعطور أهميتها البالغة حتى أن المصرى كان يرى ضرورة تزويد الميت بسبعة أنواع من العطور المقدسة ونوعين من الأصباغ - وكان الكحل يستخدم منذ

أقدم العصور وهو من نوعين أخضر وأسود ووجدت لوحات الصحن التي كان يسحق عليها في المقابر منذ ما قبل الأسرات ، ولم يقتصر استعمال المساحيق على الكحل فقط. بل كانت هناك مساحيق أخرى استعملت ابتداء من عهد الدولة الحديثة ربما كان استعمالها قد نقل إلى مصر من الخارج . ومن رسوم الحفلات والمآدب نقبين مقدار عناية القوم بزينتهم ، وكثيرا ما تساءل الآثريون عن كنه المخروط الذي كان يمثل فوق رؤوس السيدات وقد اتضح أنه عبارة عن كومة من مواد عطرية دهنية . وكانت المراة من أهم الأدوات التي أثر عليها في المقابر حيث أعتنى المصري باقتنائها وتعددت أشكالها وكانت تصنع من البرنز المصقول ، أما مقبضها فقد اختلفت المادة التي صنع منها وتعددت أشكاله .

الإدارة

من الملاحظ في مصر القديمة أن إسناد المناصب الإدارية للأشخاص كان كثيراً ما يرتبط بوضعهم الإجتماعي ، على أنه كان من الممكن في بعض الأحيان أن يرتقى بعض الأشخاص في مسكناتهم الاجتماعية عند توليهم بعض المهام الإدارية .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن الملك كان صاحب السلطة العليا في البلاد ، وأنه مصدر السلطات جميعا وقصره المحور الذي تدور حوله كل شئون الدولة . كما بينا أنه كان يستعين ببعض من يتوسم فيهم القدرة والاخلاص من بين المحيطين به ، ولا يتأق له أو لهؤلاء أن يهيمنوا

على كل صغيرة وكبيرة في جميع أنحاء البلاد إلا إذا كان لهم أعوان يشرفون على مختلف الشئون في أقصى البلاد ودانيتها .

ومن البديهي أن كل بقعة من البلاد كانت تخضع لنفوذ أقوى الرجال فيها ، وهؤلاء بدورهم يخضعون لنفوذ أقوى رجال الأقاليم الذي يتضمن بقعتهم وهكذا مما أدى إلى ظهور عدد من المؤسرين ذوي النفوذ في مختلف الأنحاء ، وانقسمت مصر منذ عصور سحيقة إلى ٢٢ إقليما : عشرين منها في الشمال ، ٢٢ في الجنوب - ونظراً لأن الملك كان من الناحية النظرية على الأقل يمتلك البلاد جميعها فإنه كان يمنح إمارة الأقاليم إلى المقربين من رجاله ، ولو أن الكثيرين كانوا من المنعة والنفوذ بحيث لا يمكن إحلال غيرهم في مكانهم إلا أن هذا التقليد ظل متبعاً واستمرت إدارة الأقاليم تعد منحة من الملك - ولا شك في أن بعض ذوي الخطوة استطاعوا أن يمنحوا إمارة الأقاليم التي كان يتولاها آباؤهم وما لبثت هذه أن أصبحت تنتقل في أسرات معينة استقرت في أقاليمها وعملت على زيادة نفوذها حتى أصبح حاكم الإقليم يعتبر نفسه « سيداً مستقلاً » في إقليمه .

ولذا أصبح من الضروري أن يسند الملك مهمة الإشراف على حكام الأقاليم إلى من يثق فيهم ، ولذا نجد أن لقب « حاكم الوجه القبلي » أخذ يظهر منذ منتصف الأسرة الخامسة تقريباً أما لقب « حاكم الوجه البحري » فلم يهثر على ما يثبت وجوده إلا من عصر الدولة الوسطى - ومن الملاحظ أن حاكم الوجه القبلي كان يعاونه « العظماء العشرة للجنوب » الذين لم يكونوا في درجة واحدة من المكانة بل ولم يكن لبعضهم نصيب

في الإدارة إلا إسمياً فقط ، ولم يكن هؤلاء نظراء في الوجه البحري^(١) إذ يبدو أن الحاجة لم تكن لتدعو إلى وجود أمثالهم هناك ، ومع هذا كان هؤلاء (في الوجه القبلي) يعدون في نفس الوقت قضاة ورؤساء في المناطق التابعة لهم كما أنهم كانوا بمثابة مساعدين للملك ، وبهذه الصفة حملوا ألقاب مختلفة منها « مستشار الأوامر الملكية » ، « المشرف على المهام الملكية » ، « المشرف على الكتبة الملكيين » إلى غير ذلك من الألقاب التي تدل على المهام التي كانوا يضطلعون بها - ومنذ عهد الأسرة الخامسة كان يرأس هؤلاء « حاكم الوجه القبلي » ، إلا أن هذا اللقب سرعان ما فقد قيمته العملية وأصبح من ألقاب الشرف - ولم يثر على نظيره « حاكم الوجه البحري » ، إلا في عصر الدولة الوسطى وربما كان ذلك لأن إدارة الدلتا ظلت منذ أقدم العصور حتى الدولة القديمة على الأقل تختلف بعض الشيء عن إدارة الوجه القبلي .

ويلاحظ أن كل إقليم من الأقاليم التي انقسمت إليها البلاد كانت له محاكمه وجيشه ومخازن غلاله - أي أن الحكم في عهد الدولة القديمة كان لامركزياً إلا فيما يختص بالخزينة العامة للدولة ، ففي كل إقليم أملاك للخزينة العامة يشرف عليها مندوبها في الإقليم وإلى جانب هذه توجد في العاصمة إدارة مالية مركزية للدولة ذات اختصاصات متعددة وينجز أعمالها طوائف مختلفة من الموظفين فمنهم الكتبة ورؤسائهم ومنهم المشرفون ومنهم أمناء الخزانة ، ويظهر أن هؤلاء الآخرين كان يوكل إليهم أمر

(١) أرمان - رانكه ، المرجع السابق ص ٨٠-٨٢ .

الحصول على المعادن والأحجار الثمينة ولذا كان من بين اختصاصاتهم الإشراف على البعثات التي ترسل للحصول على هذه الموارد فكان منهم من يلقب «المشرف على المشاة»، «المشرف على الأسلحة»، «المشرف على حركات السفن»، «المشرف على عمال الإله»، «المشرف على مهام الملك»، ... الخ.

ولم جانب هذه الإدارة المركزية وجدت إدارات أخرى مركزية تتولى شئون ذات أهمية خاصة - مثل الإدارة المركزية للإشراف على الأراضي الزراعية ومخازن الغلال والإدارة العليا للقضاء، وكان المشرف على كل من هذه الإدارات يحاول أن يوسع من اختصاصه بضم إدارات تحت إشرافه، وفي كل من هذه الإدارات يوجد عدد من الكتبة - يشرف عليهم «رؤساء كتبة»، و «مشرفين» - وكانت بعض هذه الإدارات في الدولة القديمة غالباً ما تتبع الوزير مباشرة.

وقد ازداد عدد الوظائف في العاصمة وتوعدت ألقاب الموظفين إلى أن أصبح بعضها ذو طابع رنان يرضى غرور من يشغل مثل هذه الوظائف فمثلاً أصبح قائد الجيش «مستشار جميع البلاد الأجنبية»، ورئيس كهنة عين شمس «مستشار السماء»، وهكذا.

وعندما يكون البيت المال قويا كان حاكم الإقليم يعد موظفا إداريا تحت إشراف البلاط ولذا كان يدفن في جبانة العاصمة على مقربة من مقبرة الملك شأنه في ذلك شأن موظفي البلاط الآخرين - أما عند ضعف الملوك فإن حاكم الإقليم كان يشمر بالاستقلال ويعتبر لإقليمه دولة صغيرة تملكها أسرته، وكثيراً ما كان حاكم الإقليم يحاول توسيع رقعة إقليمه على حساب الأقاليم الأخرى ويبنى كل منهم مقبرته في عاصمة إقليمه

ويؤرخ الحوادث بحسب تاريخ حكمه لإقليمه - أى أن حكومة الدولة أصبحت حكومة إقطاعية ، وما أن استقر الأمر لمؤسس الأسرة الثمانية عشرة إلا وأخذ يثبت الحدود بين الأقاليم المختلفة ويقرب إليه الأمراء الأقوياء ويعزل غير المخلصين ويعين بدلا منهم حكاما يثق فيهم ، وهكذا أصبح أمراء الأقاليم فى الدولة الوسطى أمراء إقطاع مخلصين للملك - وكانت حكومة الإقليم صورة مصغرة لحكومة الدولة فكان الإقليم خزانته التى كان أمينها يشرف على كل من يعملون من أجل الأمير فى مختلف المهن والصناعات ، وإلى جانب هذا الموظف الكبير يوجد جيش من المشرفين والسكتبة مثل « المشرف على الجند » ، « المشرف على مخازن الغلال » ، « المشرف على الماشية » ، « المشرف على الصحراء » وغيرهم ، كما كان حاكم الإقليم يقشبه بالفرعون فيحيط نفسه بحاشيته ويجعل بلاطه صورة مصغرة للبلاط الملكى - ومع هذا ظلت الإدارات المركزية التى عرفت منذ الدولة القديمة دون تغيير ولها فروعها الثابتة فى الأقاليم بل وزادت أهمية عما سبق ، ومن هذه « إدارة الخزينة » و « الأملاك الملكية » ... الخ .

وقد تغيرت الحال فى عهد الدواة الحديثة ، فقد بدأ الملوك منذ أن طردوا الهكسوس يسيطرون على البلاد واعتبروا كل ما حرروه بقوة السلاح ملكا خاصا - وانتهى أمر معظم أمراء الأقاليم والنبلاء وأصبحت كل الأملاك ملكا للفرعون فيما عدا أملاك الكهنة ، ونظراً للدور العظيم الذى قام به الجيش فى حرب الاستقلال فقد ازدادت مكانة أفرادهِ حتى أصبحت له القوة الرئيسية فى الدولة وأصبح يتدخل فى كثير من شئونها ، ولكن ما لبثت قوة الكهنة أن أخذت فى الازدياد هى الأخرى

حتى فازوا بقدر كبير من الساطة أيضا - وهكذا نجد أن كبار رجال الجيش من جهة وكبار الكهنة من جهة أخرى قد تمكنوا تدريجيا من انتزاع الكثير من الامتيازات التي كان يتمتع بها الأمراء والنبلاء من قبل .

ونظراً لتوسع الدولة الحديثة وكثرة فتوحاتها زاد عدد الأجانب في مصر سواء جاءوا كأسرى حرب أو كحقوق منازقة - وقد استخدم هؤلاء في مختلف الأعمال وارتفع شأن الكثير منهم وزاد نفوذهم وأصبح منهم عدد وفير من كبار موظفي الدولة ووصل بعضهم إلى مكانة سامية في بلاط الفرعون نفسه .

وقد أدى هذا التوسع أيضا - إلى جانب ما حدث من تطور اجتماعي - إلى تنوع الإدارات وضمخامة عدد الموظفين وكان أكثر هؤلاء عدداً بالطبع هم الكتبة الذين كانوا يسجلون كل شيء ، فما من وارد إلى المخازن وما من منصرف يمكن إثباته إلا إذا كان مسجلاً - كما كانت كل العقود والمعاملات الرسمية تسجل في وثائق تحفظ في إدارة السجلات وقد تعمل منها بعض النسخ أيضا - وكان كل موظف يحرص على مرضاة رؤسائه وعلى حسن معاملة زملائه له وإلا تعرض للكثير من المتاعب .

وكما هو الحال في كل عصر كان بعض كبار الموظفين يميلون إلى جمع الكثير من الاختصاصات في أيديهم ، وقد أدى ذلك إلى تمتعهم بالعديد من الألقاب بينما عجزوا عن الاضطلاع بمهام وظائفهم فاكثفوا بمباشرة شئون أهم هذه الوظائف تاركين بتمية اختصاصاتهم لصغار الموظفين ، وبالتدريج فقدت هذه الألقاب دلالتها وأصبحت ألقاباً جوفاء .

وكان يتبع كل إدارة من الإدارات عدد من العمال والصناع وهؤلاء كانوا ينقسمون إلى فرق لكل منها رئيس ، وقد وردت إشارات كثيرة يفهم منها أن العمال لم يكونوا دائماً طائفة بائسة بل كانوا يحصلون على

مخصصات تسمح لهم بحياة غير عسيرة ، فكان منهم المتزوجون ومنهم من كان له بيته ومقبرته الخاصتين به وبعضهم كان على شيء من الثقافة - غير أننا نجد من بعض الإشارات الأخرى ما يفيد إلى أنهم كثيراً ما كانوا يتعرضون للاستغلال أو الأزمات بسبب تأخير صرف أجورهم ومخصصاتهم حتى أنهم كانوا يثورون في بعض الأحيان ويضربون عن عملهم إلا إذا أجبرت مطالبهم كما حدث بين عمال المقابر في عهد رعمسيس الثالث ، ومن هذا نرى أن هؤلاء العمال كانوا يتمتعون بقسط من الحرية لا يتوافر للأرقاء الذين كانوا غالباً من الأسرى والعبيد .

الديانة

ليس من المغالاة في شيء القول بأن دراسة الديانة المصرية تشمل في الواقع نحو نصف علم المصريات ، وهي تستمد عناصرها الأولى من البيئة المصرية ، فالشعور بالولاء والحب أو الخوف والرهبة تجاه عنصر من عناصرها جعل المصري يعتقد بقدرة ذلك العنصر ويقدر صفاته وبدأ يتصرف إزاءه بما يتخيل أنه يرضى ذلك العنصر أو يتجنب أذاه . وبالطبع كانت بعض هذه العناصر شائعة معروفة للجميع مثل الظواهر الطبيعية ، وهناك عناصر أخرى كانت تؤثر في حياة الإنسان اليومية وهي تختلف من إقليم إلى آخر وبين جماعة وأخرى - وقد وجد الإنسان أن العناصر الطبيعية كالشمس والقمر وغيرها بعيدة عنه ولم يعرف كيف يتقرب لها تقرباً مادياً بينما كانت العناصر الأخرى المحيطة به أقرب مثلاً فتقرب منها ونسب نفسه إليها ومن ذلك نشأت الطواطم ، إذ كانت بعض الجماعات مثلاً تقدر بعض مميزات حيوان أو نبات معين فتتخذها لها رمزاً وطوطماً .

كذلك وجدت هذه الجماعات أن بعض الكائنات لها قدرة خارقة أو أنها كانت تتصف بالقدرة على الخلق أو الثبوت والدوام أو القضاء على غيرها من كائنات ، فرأت إحدى الجماعات أن الثور مثلاً قادر على الإخصاب وإنتاج الذرية فقدسوه كما وجدت جماعة أخرى أن نوعاً من الأشجار له صفة الثبوت والاستقرار فقدسوا هذا النوع من الشجر ورأت جماعة ثالثة بأن اللبوة تمثل البطش والقوة فقدسوها وهكذا .

تطور التفكير الدينى :

وجد المصرى القديم فى الكائنات المحلية صفات الخلق ولكنه لم يفكر فى كيفية الخلق بعد - ولم يكن هناك ما يمنع من تقديس الظواهر الطبيعية جنبا إلى جنب مع الكائنات المحلية كما أن انتصار جماعة من الجماعات على ما جاورها كان يعد بالتالى إنتصارا لمعبودها على معبود الجماعة المغلوبة ومع هذا كان يسمح لمعبود الجماعة المغلوبة بالبقاء كظهر آخر للمعبود الأقوى أو كمثل لصفة من صفاته .

ويعد الانتقال من تمثيل المعبودات المحلية فى صورة الحيوان أو بعض الكائنات الأخرى إلى تمثيلها فى صورة إنسانية تطورا كبيرا لم يصل إليه المصرى إلا بعد أن بلغ مرحلة معينة من الحضارة ، فبدأة تحكم الإنسان وسيطرته على الحيوان والعالم المادى من حوله من جهة وبداية التقليل من شأن القوة الجسدية من جهة أخرى جعل الإنسان يقدر ما للبشر من مزايا فتخيل آلهته فى صورة إنسانية . ولكنه للتمييز بينها صار يصورها على هيئة الإنسان رأس يمثل رأس المعبود الأسمى أو برأس أضيفت إليه علامة مميزة لذلك المعبود ، فمثلا صور الإله آمون

فى هيئة آدمية برأس كبش وصور الإلهة حتحور برأس آدمية ولها قرون بقره وهكذا .

وبالطبع كان تمثيل الآلهة فى هذه الهيئة الإنسانية مما ساعد على التفكير بأن هذه الآلهة لها من المشاعر ما يحاكي مشاعر البشر من حب وبغض ، وأن هذه الآلهة تحمى وتعطى وتعاقب وتأخذ وهكذا مما لا يمكن التعبير عنه عند الحيوان أو الجاد . ومن جهة أخرى أعطيت لهذه الآلهة صفات تتعلق بالإنتاج والتناسل وبالمخلوق والموت ودفن الموتى ... الخ .

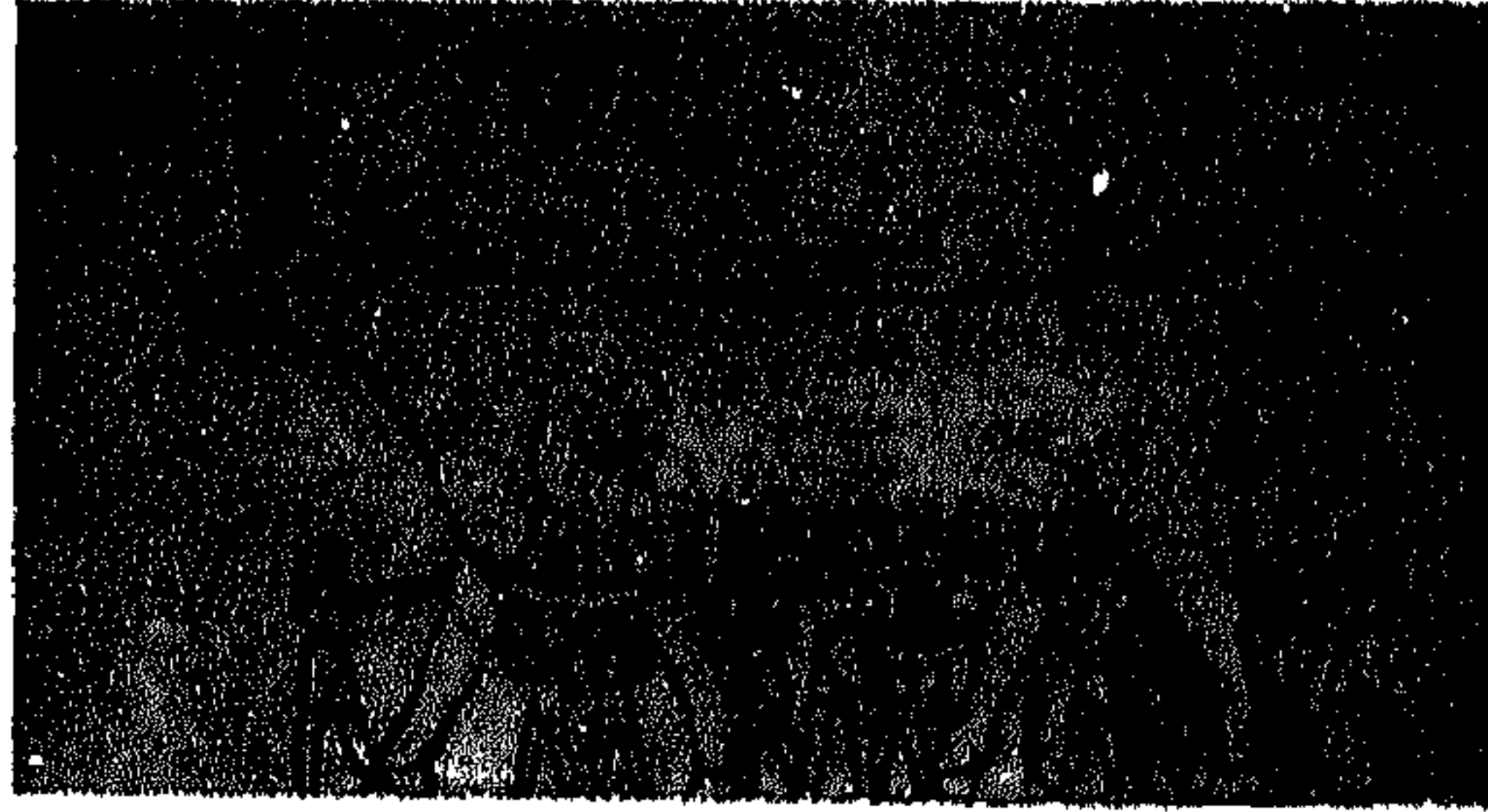
ولذا كانت بعض الآلهة من الذكور وبعضها من الإناث . . كذلك أعطيت الآلهة بعض المهام والأعمال الخاصة التى ظن المصري أنها تقوم بها فضلا عن صفاتها الأصلية ، فمثلا كان الإله خنوم فضلا عن اعتباره الإله الذى يصور الأجنة فى الأرحام أو الإله الخالق كان يعتبر كذلك إله الماء النقي أو إله منابع النيل وكان أبو منجل رمز إله القمر تحوت يعد كذلك الإله العالم وكاتب الآلهة .

وقد تطورت الديانة من رقت لآخر وظهرت معتقدات جديدة ولكن (كما سبقت الإشارة) لم تختف المعبودات القديمة وكانت النتيجة أن تعمدت الديانة المصرية تعقيداً شديداً لاشتراك كثير من الآلهة فى صفات واحدة وإن اختلفت مدلولاتها .

وكان المصري مسالماً بطبعه وقد أثر ذلك فى ديانته فلم تتسم آلهته بصفات العنف أو حب سفك الدماء كما هو الحال بين آلهة الممالك الأخرى .

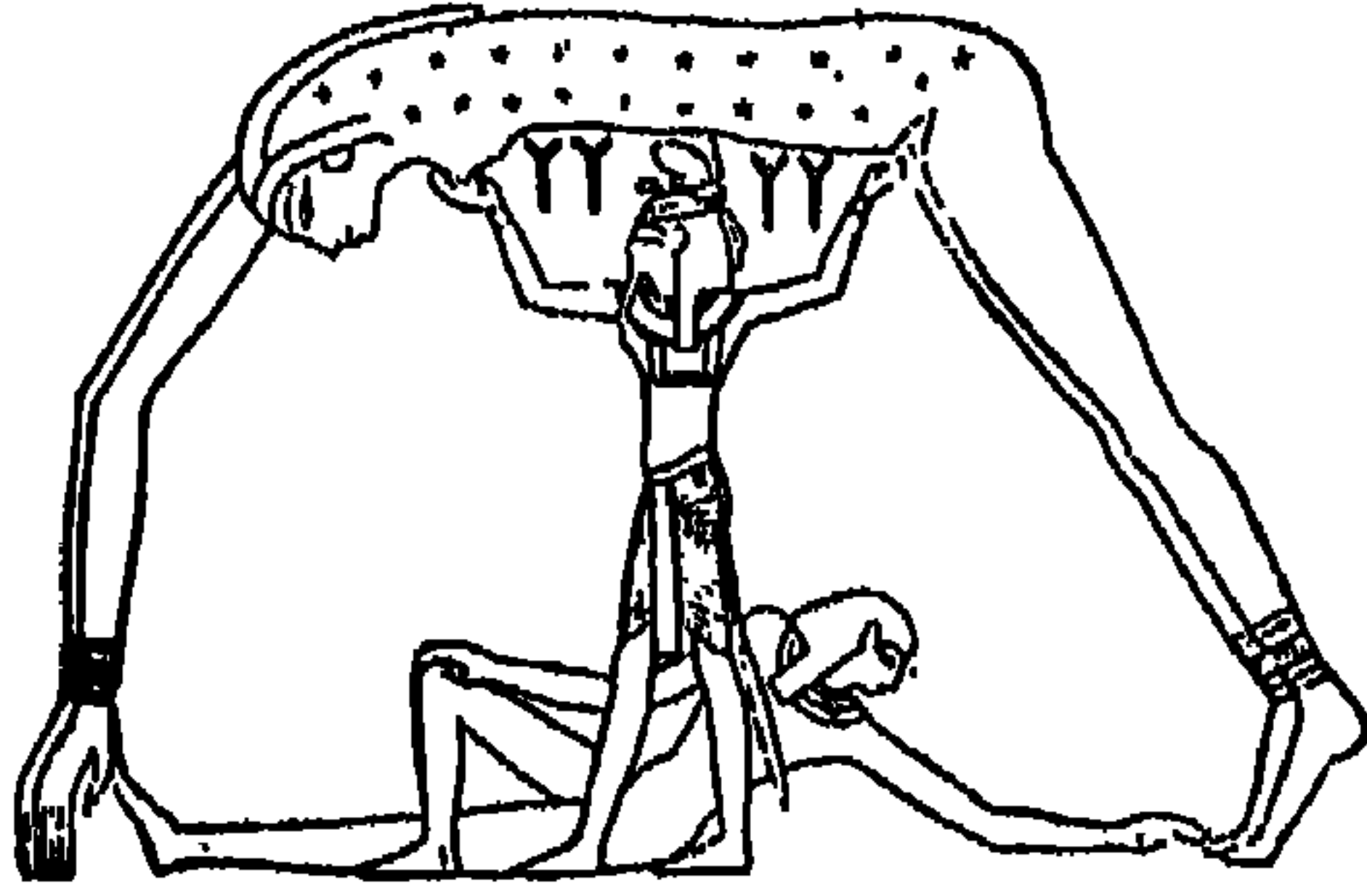
نشأة الأساطير :

سبقت الإشارة إلى أن المصرى قد تأثر في ديانتته بمظاهر البيئة التي عاش فيها واتخذ من عناصر هذه البيئة آلهة تميزت بصفات معينة، وكان يتخذ لهذه الآلهة نموذجاً من الحيوان أو الجماد أو يقيم له التماثيل التي تقرب المعبود لإدراكه - أما في حالة التفكير في المعبودات التي يصعب عليه إدراكها فإنه كثيراً ما كان يلجأ إلى الخيال ، فحينما قدس السماء مثلاً تصورهما على هيئة بطن بقرة عظيمة شكل (١٤) أو امرأة ترتكز بزوج



شكل (١٤) : إلهة السماء في هيئة بقرة

من طرفيها على الأفق الشرق بينما ترتكز بالزوج الآخر على الأفق الغربى - كما كان يتصور أحياناً أن أركانها قائمة فوق أربعة جبال أو عمولة على أربعة أعمدة ، كذلك تصور الأرض في هيئة رجل مستلق على ظهره (شكل ١٥) ، وهكذا ذهب به الخيال بعيداً - ولكنه في خياله هذا كان يحاول تفسير الظواهر الطبيعية بتفسيرات تتمشى مع ما يلمسه ويقع تحت حسه في بيئته - ولذا فإنه حينما أراد تفسير ظهور الشمس يومياً ثم اختفائها تصور إله الشمس في هيئة رجل (جمران) يدفع



شكل (١٥) : إلهة السماء في هيئة امرأة
وإله الأرض كرجل مستلق على ظهره

أمامه بيضته حيث ظن أن الجمل حيوان خثى يضع بيضه بنفسه ، أى أنه كإله الشمس خالق نفسه بنفسه - وعلى هذا تصور إله الشمس كجمل كبير يخاق نفسه بنفسه لأنه يولّد يومياً كل صباح في الأفق الشرقى ويختفى مساءً في الأفق الغربى .

ولم يترك المصرى مظهراً من مظاهر الطبيعة التى أحاطت به دون أن يفكر فيه ويحاول تفسيره فلهب خياله دوراً خطيراً فى تفسير ما عجز عن إدراكه وتعقدت الصور التى نتجت عن هذا الخيال وتعددت التفسيرات واختلفت باختلاف المذاهب أو المفكرين ونشأت أساطير مشوهة عن كثير من الآلهة بما زاد فى صعوبة إدراك كنه الديانة المصرية .

كذلك أشرنا إلى أن المصرى قد اعتقد بأن من الآلهة ما هو مذكر ومنها ما هو مؤنث فأدى به ذلك إلى إدماج الآلهة فى أسر إلهية بترابج بعض تلك الآلهة التى ترتبط معا ببعض الروابط وهدهاء تفكيره إلى إيجاد مجموعات أسرية تمثل الإله الأب والإلهة الزوجة والإله الابن، كذلك ربط هذه الآلهة بعضها ببعض بملاقات حسب الدور الذى يقوم

به الإله أو حسب وظيفته أو خصائصه، فثلا كان الإله أوزيريس إله خيراً
تزوج من أخته إيزيس وكان شقيقه ست إله شريراً وكان زوجاً لشقيقتهما
نفتيس وقد كاد لأخيه أوزيريس وقتله واستطاعت شقيقته إيزيس ونفتيس
(زوجة ست) أن تجمعاً أشلاء أوزيريس كما أمكن أن تعيد إيزيس الحياة
إلى زوجها أوزيريس فأنجب منها ولداً هو حورس، ولكنه فضل أن يترك
هذا العالم ويعيش في العالم الآخر ويحكمه بينما طالب ابنه حورس بحقه
في ملك مصر الذي اغتصبه عمه ست فكان الإله تحوت خير معين له
على استرجاع حقه المسلوب منه .

ومن الآلهة من كانوا يعتبرون حماة لطوائف معينة من الناس اعتماداً
على الخصائص التي امتازوا بها ولشهرتهم في نواحي معينة، فثلا كان الإله
تحوت يعتبر حامياً لطائفة السكتاب لما له من شهرة في العلم والحكمة كما أن
بتاح كان يعد حامياً للفنانين أما الأطباء فكانت الإلهة سخمت إلهة منف
التي في شكل اللبؤة راعية لهم ثم في العصور المتأخرة حينما أله واحتب،
أصبح هذا إلهاً للأطباء وكانت سخمت في نظرهم أما له كذلك كانت
الإلهة ماعت التي تمثل الحق والصدق والعدالة تعد راعية للوزراء والقضاء
وهكذا اتخذت كل طائفة من الطوائف المهنية حامياً أو راعياً من الآلهة
كما كان عامة الشعب يتخذون في الغالب معبودهم المحلي راعياً لهم .

ولا شك أن طائفة من العقلاء على الأقل اعتقدوا في وجود إله
خالق يسيطر على الكون بدليل أن بعض النصوص تشير إلى أن الإله
كتعبير عام أو كإله واحد، ومن ذلك مثلاً ما جاء في بعضها بأن دما
يحدث هو أمر الله، ولكن كان لابد من تقريب صفات هذا الإله

للعامّة فاتخذت له صورة ترمز إلى أكثر صفاته وضوحاً كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وعلى هذا لم تكن الحيوانات أو التماثيل التي قدست لتقدس على أنها المعبود نفسه وإنما كانت كرمز لصفة معينة في المعبود إلا أن العامّة قد أخطأوا فهم المقصود من تلك الرموز وتعبدوا لها . والواقع أنه لا توجد عقلية مهما كانت بدائية تعتبر الحيوان أو الجهاد أو حتى الإنسان إلا صورة أو موضعاً للقوة المقدسة أو الظاهرة المقدسة التي تمثلها ، والمصري شأنه في ذلك شأن الشعوب الأخرى أراد أن يتقرب إلى تلك القوى المقدسة ووجد أن أحسن وسيلة هي اختيار ما يمثل تلك القوة في عالمه المادى، ولكن مع الأسف حدث - كما يحدث في كل المصور - أن اتخذت الطوائف الدنيا من الشعب تلك التشبيهات بعرفيتها فعبدت الصورة المختارة نفسها من هذا العالم المادى .

وبالطبع كان كل إقليم يحاول جاهداً أن يجعل لإلهه المحلى دوراً هاماً فحاك حوله الأساطير التي تبرز هذه الأهمية وعمّلت الآلهة في هذه الأساطير كالإنسان فصارت محببة لدى الشعب ، وخضع الدين الرسمى لهذه الأساطير لما لها من سيطرة على النفوس .

ولا ريب في أن المصري كان يتساءل عن كنهه المخلوقات والظواهر الطبيعية التي من حوله وعن كيفية نشأتها ووجودها وبهذا تدرج إلى التفكير في مشكلة الخلق - ثم تساءل عن المشكلة الكبرى وهي مشكلة نشأة العالم المحيط به ، ولم يطل به التفكير كثيراً حتى اهتدى بخياله إلى تكوين فكرة اتخذ عناصرها من البيئة المحيطة به فتمثل في الفيضان ماء أزليا أطلق عليه اسم «نون» ، وقد دعاه إلى هذا التفكير أن الفيضان تستمر مياهه

فترة من الوقت ثم تبرز من تحتها الأرض تدريجياً وفي هذه ينبت الزرع وتنب الحياة ، وعلى ذلك ظن بأن العالم في بدء تكوينه نشأ من ماء أزل برزت فيه قمة تل مزدهر ثم ظهرت المعالم الأولى للحياة فوق هذا التل ، أو أن زهرة من اللوتس ظهرت فوق سطح هذا الماء وعلى هذه برز الكائن الأول في هيئة طائر أو كائن هو الذي خلق السموات والأرض والآلهة الأخرى - وقد اختلفت الأساطير المتصلة بنشأة الخليقة وبالطبع كان كل إقليم يحاول أن يجعل من إلهه المحلي الإله المهم في نشأة هذه الخليقة أو خالقها - وكانت أشهر المدارس التي اتجهت إلى ذلك هي مدارس هليوبوليس ومنف والأشمونين .

مدرسة هليوبوليس :

تذكر هذه المدرسة أن الإله آتوم تتكون في المياه الأزلية نون قبل أن تتكون السماء والأرض أو الدودة والعلاقة ولم يجد مكاناً يقف فيه فوقف فوق تل ثم صعد فوق حجر « بن بن » في هليوبوليس - ووجد نفسه وحيداً ففكر في خلق زملاء له وحمل من نفسه ثم تفل أو أمنى وأنجب شو وتفنوت اللذان أنجبا جب ونوت وأنجب هذان الأخيران بدورهما أزوريس وست ونفتيس وأيزيس ، وقد عرف هؤلاء الآلهة التسعة باسم الناسوع الكبير - وعلى حسب هذه النظرية لم يكن حوريس وتحت ومعات وأنوبيس ضمن هذا الناسوع وإن كان لهم دور هام في الأساطير المتعلقة به .

وقد تغالت المدن الكبيرة في محاکاتها لهليوبوليس وكونت مجموعة إلهية على رأسها إلهها المحلي فكانت هذه المجاميع تتجاوز التسعة في

كثير من الأحيان فمثلا كانت مجموعة طيبة الإللية تتألف من ١٥ إلهاء كما أن بعض المدن الأخرى لم تجد من الإلهة ما يناسبها فجعلت مجموعاتها تتكون من آلهة تتكرر أسماءها فمثلا كانت مجموعة أبيدوس تتألف من إلهين باسم خنوم وإله باسم تحوت وإلهين باسم أوب وات وهكذا .
والغريب أن كل مجموعة من هذه المجاميع كانت تعامل كإله واحد .

مدرسة منف :

اعتبرت منف إلهها بتاح أجدر من آتوم كما أنها ذكرت بأن بتاح خلق من نفسه ثمانية آلهة أخرى سميت كلها باسم بتاح (وإن كان البشر قد أطلقوا عليها أسماء أخرى) وذلك لتسكون مع بتاح الأصلي تاسوعا يعادل تاسوع هليوبوليس وقد أرجعت هذه المدرسة كل آلهة مصر إلى بتاح والإله الثانى بتاح نون والإلهة الثالثة (بتاح نونيت) فى هذا التاسوع هما اللذان أنجبا آتوم أى أن آتوم وهو أعظم آلهة هليوبوليس قد اعتبر فى هذه المدرسة أقل شأنًا من الإله بتاح كما أن شفقتى آتوم وأسنانه التى تغلب بها شو وتفنوت قد استعارهما من بتاح ، كذلك اعتبر القلب واللسان من أطراف بتاح وهذان كانا يمثلان تحوت وحورس وقد خلق اللسان ، (أى تحوت) كل شىء بواسطة الكلمة .

وقد تأثرت المعابد المختلفة بتعاليم منف فاعتبرت الآلهة التى قدست فيها أعضاء الإله الرئيس فى المعبد .

ولما كان لأوزير مركز خطير فى اللاهوت المصرى فإن تعاليم منف جعلت منه تابعا من أتباع بتاح وجعلت منف الميدان الذى جرت فيه

أهم الأحداث التي تعرض لها هذا الإله ففيها توجه أزوريس إلى العالم السفلي بعد أن انتشلتة إيزيس ونفتيس وفيها حاول جب (والد أزوريس) أن يصلح بين حورس وست وهكذا ...

مدرسة الاشمولين

سميت هذه المدينة كذلك لأن مجموعة الآلهة فيها تتكون من ثمانية لاتسعة كالمعتاد ، وتعتبر هذه المدرسة . من تخريج منف لأن أول الكاتبات فيها هو الإله تاتنن خالق الآلهة الثمانية وخالق البيضة التي خرج منها إله الشمس فهو جد (والد آباء) الآلهة جميعا - أما الآلهة الثمانية فكانوا عبارة عن آلهة تمثل أربعة ذكور في هيئة الضفادع وأربعة أناث في هيئة الحيات وكل زوج منها يمثل مظهرا من المظاهر التي كانت تسود العالم في البداية ، فالزوج الأول نون ونونيت يمثل الفراغ اللانهائي والزوج الثاني هو حوح وحوحيت ويمثل الماء الأزلي والزوج الثالث كوك وكوكيت يمثل الظلمة والزوج الرابع نياو وزوجته نيات أو آمون وأمونييت ويمثل الخفاء .

ولانعرف الكثير عن دقائق تعاليم الاشموين لقلة ما تخلف عنها ولكننا نعلم الكثير عن أثر هذه التعاليم في مدينة أخرى نقلت عنها في عصور تالية ، وهذه المدينة هي طيبة التي تشير الأساطير إلى أن بعض آلهة الاشموين تسربت إليها ، ومن هذه الآلهة آمون كما استقرت تعاليم كثيرة من تعاليم الاشموين في هذه المدينة أيضا إلا أن طيبة لم تكف بلآلهة ثمانية بل إن محاکاتها لمدرسة منف جعلتها تضع لها قبل هؤلاء الثمانية ولم يكن هناك بد من أن يكون آمون هو ذلك الإله الذي خلق

بقية التاسوع مع أنه أحد الآلهة الثانية في الأصل ، وعلى ذلك تخيلوا لها في هيئة ثعبان أطلقوا عليه اسم (كم ات اف) أى . ذلك الذى أكل زمانه ، أو بمعنى آخر هو الذى انتهى أمره ، وهذا الإله أنجب لها آخر اسمه « مير - تا ، أى (خالق الأرض) وهذا بدوره خلق الثانية آلهة الأولى التى منها نشأت الخليقة . ومع كل فقد كان « كم ات اف » فى نظرهم هو « آمون العظيم ، معبود الأقصر وخالق الأرض وإله التناسل .

طبيعة الآلهة

نظر المصرى لآلهته على أنها كائنات أعلى قدرا من الانسان ولا تختلف عنه كثيراً . والواقع أن المصرى قسم سكان العالم إلى ثلاثة أقسام هى الناس والآلهة والموتى . فالأسطورة التى قيلت عن نشأة الخليقة تبعا لتعاليم طبيعة أى التى تأثرت بمدرسة الاشمنونين تذكر أن الدنيا كانت (حينما خلقت الآلهة الثانية) لا تزال فى ظلام وأن هذه الآلهة الثانية اندفعت مع تيار المياه الأزل إلى الاشمنونين (أو وصلت إلى منسف أو إلى هليوبوليس) وهناك خلقت الشمس ثم رجعت إلى طبيعة ولما أتمت صنعها بخلق العالم انتهى أمرها ولحقت بالثعبان « كم ات اف » فى عالم الموتى بطبيعة حيث استراحوا فى مكان معبد صغير بمدينة هابو وكان آمون يزورهم كل عشرة أيام . فلم تكن فكرة موت الإله غريبة لدى المصرى بل كانت شيئا مألوفاً فى تفكيره وحلى ذلك اختلط أزوريس « بكم ات اف » كما أصبح آمون هو روح أزوريس أى أن جسد آمون فى الدنيا السفلى كان أزوريس وكان آمون هو الروح الذى يزور هذا الجسد ، أى أنه كان كإله الشمس عند تجواله فى الدنيا السفلى أثناء الليل حيث يزور جسده أزوريس .

واعتبار آمون روح أزوريس يجعلنا نتعرض لمتيدة المصرى بأن
الانسان كانت له روح « با » وقرين « كا » وبالعطبع كان للإله ما كان للبشر
وكانت روح الإله تسكن تمثاله الذى فى معبده ولكنها كانت كذلك طليقة تتجول
فى أماكن أخرى وخاصة فى السماء - كما أنها كانت تسكن الحيوان المقدس
فى معبده ، فكان أبيس مثلا روح بتاح كذلك كان فى عصر متأخر روح
أزوريس أيضا ، وكان الطائر الخرافى « فينكس » روح « سبك » أما
« تيس منديس » فكان يمثل أرواح أربعة آلهة هى « رع وأزوريس وجب
وشو » - ثم تطور الأمر فأصبح للإله الواحد أرواح مختلفة وقرائن متعددة
فللإله رع مثلا سبعة أرواح و ١٤ قرين ولم يمكن التعرف على هذه
الأرواح السبعة وإنما عرفت الأربعة عشر ١٤ قرينا التى كانت من
الذكور ولها ما يماثلها من الإناث وهذه القرائن هى التى تتمثل فى قوى
السحر والبهاء والنصر والقوة والنمو والطعام والاستمرار والنظر والسمع
والشبع الخ . كذلك تشير بعض الأساطير إلى أن إله الشمس كانت
له أربعة رؤوس على هيئة رأس الكباش وتقوم كلها على عنق واحد وكانت
له ٧٧٧ أذن ومئات الألوف من القرون ، ورؤوس الكباش الأربعة كانت
تمثل آلهة الرياح الأربعة إلى آخر ما جاء فى تلك الخرافات - كذلك كانت
القرائن الأربعة عشر مع إناثها تنشر الخير مثل النيل والحقل . . . الخ .
وبما أن الملك كان ذو صفات إلهية فقد كانت له أرواح كثيرة كذلك
كانت له قرائن مختلفة ، وبعض الأفراد كانت لهم أيضا أكثر من قرين
فى حالات خاصة - وكان يكنى عن عزيمة الملك أو سلطته القوية بتعبير
« أرواح الملك » ، إذا ما ترجمنا هذا التعبير حرفيا ، كما كان يكنى عن آلهة
المدينة بأرواح المدينة .

ولما كثر الخلط وأصبح عدد من الآلهة يسمى باسم واحد فقد حاول المصري أن يميز بينها فمثلا كانت هناك سخمتم محبوبة بتاح وسخمتم سيدة الصحراء العربية وسخمتم في بيت باستت - ولم يتسنى ذلك في كثير من الحالات إذ أننا نطالع في النصوص ما يفيد وجود مئات من الآلهات حتثور كما أن الآلهة ذات الاسم الواحد كثيراً ما اختلطت ببعضها ببعض فمثلا حدث الخلط بين حورس أدفو « قرص الشمس المجنح » وبين حورس ابن إيزيس . ويستدل من أسطورة حورس أدفو على أنه كان يصحب الإله رع هو وتحوت في سفره من الحدود النوبية إلى مصر وقد انتصر على أعداء رع ، وكان تحوت يسمى الأماكن والبلدان التي مروا بها - كذلك تدل الأساطير على أن الآلهة كانوا ملوكا على مصر العليا والسفلى وعرف الناس مدة حكمهم ، وقد ذكرتهم بردية تورين مبتدئة بالاله جب ثم أوزير وست وحورس ثم تحوت ومعات ومن بعدهم آلهة أقل شأننا وفي آخر القائمة ذكر « نخدم حورس » وكانوا عشرة وهم الملوك الذين حكموا في العصور الأولى .

الحوادث التاريخية وأثرها

لاشك في أن الأحداث التاريخية كانت ذات أثر كبير في تطور الديانة المصرية فإذا ما نظرنا إلى ألقاب الملوك وإلى القمص الديني والأساطير المختلفة فإننا نجد ما يشير إلى ذلك إذ يذكر مانيتون بأن مصر كان يحكمها قبل العصور التاريخية حكام من الآلهة أي أسرة الهية « بتاح ورع وشو وجب وأوزير وست وحوريس » وبعد ذلك حكمت أسرة من أشباه الآلهة ثم عشرة ملوك من الأرواح أو من أتباع حوريس حكموا قبل

مينا ، وتشير بردية تورين إلى نفس الترتيب تقريبا .

وتدل الشواهد الأثرية على أن أتباع حوريس وصلوا إلى وادى النيل عن طريق وادى الحمامات واستقروا بالقرب من قفط حيث كان إلهها المحلي مين ، وكان المعبود الوطنى فى مصر كلها هو الإله ست - وكان حوريس وأتباعه محاربين متفوقين بما لديهم من أسلحة فلم يهكثوا طويلا فى قفط أو ما جاورها فتحركوا شمالا حتى استقروا فى غرب الدلتا، ثم وفدت عليهم أقوام من شرق الدلتا يدينون بنفس الدين ويعرفون الأسلحة المعدنية وقد أطلق عليهم أصحاب الرمح فاتصلوا بأتباع الإله حوريس الذين كانوا فى غرب الدلتا حتى أصبح هذا الإله الها لغرب الدلتا كله .

ثم جاءت بعد ذلك هجرة من غرب آسيا تحت قيادة أوزير الذى كان على مايحتمل ملكا عبيد ثم آله فيما بعد وقد استقر هؤلاء فى شرق الدلتا، ولم يكونوا من المحاربين بل كانوا رعاة ورجال سلم وسرعان ما اندمجوا فى أهل البلاد الذين رأوا فى أوزيريس صورة للإله الطيب وأخا لإلههم ست ، كما أن أوزيريس وقومه كانوا يميلون إلى أهل شمال الدلتا وإلهته إيزيس - وفى نفس الوقت جاءت كذلك مجموعة أخرى من المهاجرين اخترقت الدلتا واستقرت عند رأسها فى هليوبوليس - وكان رع هو قائدهم وإلههم ويحتمل أنهم جاءوا من الشمال الشرقى للبحر المتوسط أو - من جزره وكانوا على جانب من الثقافة والفهم ومعظمهم من التجار وأصحاب الحرف .

وقد وجد حوريس وأتباعه أمورا مشتركة بينهم وبين أوزير وأتباعه وقد نتج عن ذلك أن غرب الدلتا تحت قيادة حوريس وشمال الدلتا تحت قيادة إيزيس ارتبطوا برباط ود وسلام مع أوزير وأتباعه وكذلك مع

ست ، ورأى المتعبدون في إيزيس زوجة لأوزير وحوريس ابن لها وست شقيق لأوزير : وبما أن حوريس الذى اعتبر إله السماء كان يعترف بالإله ست فإن أتباع رع كذلك اعترفوا بالإله الوطنى ست ولكنهم لم يعترفوا لأوزير فى أول الامر، وبعد أن استقرت الأمور بين رع وأوزير وأخذت وحدتها فى الظهور بدأ يظهر لون من التنافس بين ست وأوزير - « فبفضل النشاط الحربى لحوريس وطرق أوزير السلمية وثقافة رع تكونت مملكة فى مصر السفلى بقيادة حوريس وكانت عاصمتها بوتو، وكان طابع هذه المملكة سلباً وفقاً لما تميز به أوزير الذى نشط أتباعه فى التبشير له حتى امتد نفوذه إلى أييدوس، أو ما بعدها ويعد هذا أول اتحاد بين الدلتا والصعيد .

ولكن سرطان ما غضب ست وأتباعه ولم يكن أوزير قائداً حريصاً فراجع إلى بوزيريس موطنه فى الدلتا وذبح هناك، ولكن أتباعه اعتقدوا أنه بمث إيهكم العالم السفلى وأصبحت إيزيس وحيدة، أما رع فقد وقف موقف المحايد - إلا أن هذه الأمور استثارت حوريس الذى كان قائداً ومملكا على مصر السفلى فأراد أن ينتقم لأبيه وأنشأ صراع جديد بين حوريس وست وفى هذه المرة تغلب حوريس وغزا الصعيد فاضطر ست وأتباعه إلى التراجع أعلى النهر ثم إلى الواحات والصحارى، وقد يدل هذا على التوحيد الثانى الذى حدث من الدلتا أيضاً قبل التوحيد الذى قام به مينا ويعد بداية عصر الأسرات .

وفى نفس الوقت جاء وافدون جدد من الصعيد شقوا طريقهم إلى الدلتا وكانوا يحملون أفكاراً جديدة ، ولم يكن رع ليعنى كثيراً بالصعيد أو بأعمال

حوريس ولكنه كان يميل إلى ست ويفضله، وسرعان ما حدث احتكاك بين الصعيد والدلتا - وظل أتباع حوريس الأوفياء على ارتباطهم به وكان معظمهم من الجنوبيين، وأصبحت العداوة صريحة بين أتباع حوريس في الصعيد وأتباعه الشماليين الذين تأثروا بالأفكار الجديدة ولكن أهل الجنوب انتصروا آخر الأمر تحت قيادة أحد أتباع حوريس وهو الملك مينا الذى أعاد توحيد مصر، وهذا هو التوحيد الثالث الذى بدأت على إثره العصور التاريخية وقد أصبح اتخاذ اللقب الحوريسى لدى الملوك تقليداً طوال العصور الفرعونية باستثناء الملك « بر - اب - سن » الذى اتخذ لقب ست بدلا منه، وربما كان ذلك لأنه كان يدين بهذا المعبود ولا ينتمى لأتباع حوريس .

ومنذ عهد الأسرة الرابعة يبدأ نفوذ رع فى الازدياد حتى أن ملوكها اتخذوا أسماء تتضمن اسم رع فى نهايتها، وبعد ذلك انتقل الملك إلى بيت ينتمى إلى كهنة هذا الإله مؤسسا الأسرة الخامسة - وعلى ذلك يمكننا أن نستنتج أن نفوذ هليوبوليس وكهنتها قد أصبح مهيغرا وازداد هذا النفوذ قوة فتقربت الآلهة الأخرى إلى الإله رع ووجدت معه ولم يستثنى من ذلك إلا الإله بتاح .

ولما عظم شأن طيبة فى الأسرة الحادية عشرة ازداد مركز آمون الذى يحتمل أنه كان إله الأسرة الحاكمة لآتنا نعلم بأن الإلهين « مين ومنتو » كانا يعبدان فى طيبة قبل ذلك، ولكن آمون صارت له الصدارة منذ عهد تلك الأسرة .

ولما جاء الهكسوس إلى مصر واستوطنوا شرق الدلتا وجدوا أن

الإله ست الذى كان يعبد فى ذلك المكان قريب الشبه من إلههم سوتنخ فعبدوه واتخذوه إلها رسميا .

ولما طردت الأسرة السابعة عشرة الطليعية الهكسوس من مصر عاد آمون إلى سابق سيطرته وأصبح الإله الرسمى للدولة فى عهد الامبراطورية الحديثة ، وقد أصبح عظيم الخوار لأنه إله الأسرة التى أسست هذه الامبراطورية وإليه يعزى انتصارها . وقد وجدت معه آلهة كثيرة حتى أن رع وحور وحدا معه أيضا ، وظلت الهيئات والأوقاف تتوالى على هذا المعبود من ملوك الامبراطورية حتى أصبح ذهب بلاد النوبة وقفا عليه وسميت بلاد النوبة تبعا لذلك باسم بلاد الذهب الخاص لآمون ، وصيغت فى مدحه الأناشيد ، ومنها أناشيد أطلقت عليه اسم رع وأخرى أطلقت عليه اسم آتون وذلك فى عصر اخناتون .

ومنذ عهد امنحتب الثالث أو قبله بقبائل ييدا اسم آتون فى الظهور ، وربما كان ذلك لأن الملوك وجدوا فى نفوذ آمون خطراً يهدد الملكية فأرادوا أن يضعفوا من مركز هذا الإله بإيجاد منافسين له ممن يحظون بتأييد عام فعبدوا آتون كهورة لرع ، الذى ظل طوال العصور الفرعونية ذر مكانة مرموقة . كذلك لجأ امنحتب الثالث إلى إدخال عبادة الملك الحى أو صورته الحية على الأرض ، ولكنه لم يشأ أن يبدأ هذه الخطوة فى مصر بل بدأها بميدا فى السودان حيث بنى معابد لعبادته هو وزوجته هناك كما أنه فى نهاية عهده بنى معبداً للشمس فى الكرنك .

ولما جاء اخناتون أحدث ثورة عامة وقد صور إله الشمس فى شكل

يقرب إلى أذهان العامة (قرص الشمس تخرج منه الأشعة وهذه تنتهى بأيدي
تتدلى منها علامة الحياة) بخلاف التصوير القديم الذى كان يخلق على أفهام
العامة إذ أنه كان يصور إله الشمس فى هيئة إنسان برأس صقر - وربما كان
اخناتون لا يعتقد بأنه ارتكب إثماً نحو معبود أجداده آمون لأن هذا
الآخر كان موحداً مع إله الشمس فى صورة « آمون رع » ، إلا أن كهنة آمون
وجدوا فى فكرته الجديدة هرطقة حاولوا القضاء عليها فحدثت الثورة
المعروفة ، وتغالى اخناتون فى صب حام غضبه على آمون ونقل هذا
الغضب إلى كل المعبودات الأخرى وخرج اخناتون على كل التقاليد
وظهر أثر ذلك فى الفن خاصة - ولم تذكر ديانة اخناتون بملك الموتى كما
أن التوريات المعهودة عن الوفاة مثل « الطيران إلى السماء » أو « الرسو »
لم تذكر كذلك . بل ذكر الموت والدفن ببساطة ، ويظهر أن أتباع
اخناتون أحبوا الحياة ففضلوا التفكير فيها بدلا من الموت - ومع ذلك
ظلت العقيدة القديمة التى تذكر بأن الموتى يسكنون العالم السفلى وأن
الروح تستطيع الخروج من المقبرة والعودة إليها كما كانت ولم تتغير وظلت
الروح كذلك تمثل فى هيئة طائر يحتم فوق الجثة كما ظل الاعتقاد
بأن الميت يتقبل القرابين سائداً - أما محاكمة أوزير فلم تذكر ولكن
كلمة « مبرر » أو « مرحوم » كانت تذكر أحيانا ، وكان الجمل يوضع
على المومياة ولكن كان ينقش عليه دعاء لآتون كما أن تماثيل الأوشابتي
(المجبيين) ظلت تستعمل كذلك . ولكن الدعاء عليها كان لآتون أيضا
وبدلا من تمثيل الآلهة إيزيس ونفتيس وغيرها من الآلهة مجتمعة على
أركان التابوت مثلت الملكة بدلا منها .

ويرى بعض الآثريين أن عدم وجود الناحية التصوفية وناحية ما وراء الطبيعة هو سبب فشل هذه الديانة ولذلك فضل الشعب العقيدة القديمة ، ولكن يبدو أن محافظة المصريين على التقاليد وضعف قوة المملوكة في الخارج و وفاة الملك سريعا دون أن تستقر هذه الديانة الجديدة وعدم وجود خلف له من الذكور ، كل ذلك أدى إلى التحول ثانية إلى الديانة القديمة بل والرجوع إلى العاصمة القديمة أيضا - وكانت النعمة شديدة على اخناتون إذ أطلق عليه بعد وفاته اسم مجرم اخناتون .

وبعودة الحياة الطبيعية بعد هذه الثورة عادت عقيدة آمون بصورة لا تماثل قوتها من قبل فقد استعادت آلهة المدن المختلفة حقوقها مثل رع وبتاح - ومن جهة أخرى لما كان لاطيبة شرف القضاء على الهرطقة فإنها صارت أعظم الأماكن قداسة . وقد ازدادت ثروة آمون زيادة لا مثيل لها فحقوله أصبحت خمسة أضعاف حقول رع وتسعين ضعفا لحقول بتاح وقد شيدت له المعابد الفخمة في الأسرة التاسعة عشرة ولما عظمت فخامة هذه المعابد لم يكن يسمح لعامة الشعب بدخولها فأصبح دين آمون دين الخاصة وأصبح غريبا على أبناء الشعب الذين فكروا في آلهة أكثر شعبية ومنها إله الشمس كما عادت الحياة إلى كثير من الآلهة القديمة التي حاول الملوك لإرضاءها ببناء معابد لها ، فمثلا بنى رمسيس الرابع معبداً في أييدوس للإله أزوريس الذي كان يعبد في نظر الملك من أكثر الآلهة غموضا وخفاء وأنه هو القمر وهو النيل وهو الذي يحكم في العالم الآخر ... كذلك احتل الإله ست مركزاً متخفا في عصر الأسرة التاسعة عشرة .

ورغم أن عامة الشعب لم يكن من الميسور دخولهم إلى المعابد الفخمة

التي بناها ملوكهم إلا أن ذلك لم يخل دون تقواهم وقد نقشوا الصلوات
تعبداً لآلهتهم ولجأوا في حالات كثيرة إلى آلهة تكون أقرب منلاً ، بل
وتطور الأمر حتى أصبح كل فرد يقدر من الكائنات ما يقنع تحت
نظره وما يصادفه فشلا عبدوا الآثار القديمة وعبدوا بعض الحيوانات
والجمادات في بيئتهم المحلية كما تصوروا آلهة أخرى خرافية تجمع في صفاتها
وتكوينها عميزات كائنات متعددة مثل تويس وبس^(١) وبعل وغيرها
وكذلك صور لهم الوهم عبادة بعض المعالم الجغرافية مثل قمة الجبل
في البر الغربي لطيبة - وازدادت عبادة العامة والسذج للحيوان وانتشرت
حتى أصبحت شائعة ، وقد تغالى الرومان في هذا بعد ذلك إلى درجة أن
أحد شعرائهم واسمه جوفنال^(٢) تهكم من ذلك بقوله مخاطباً رجال عصره
« أيها الأظفار الذين تولد لهم تلك الآلهة في الخدائق ، » .

ويبدو أن الآلهة التي تمثل النواحي الأخلاقية كانت آخر العبادات
ظهوراً ومن أمثلة ذلك ماعت وبس وغيرها ...
ولاهمية المعايير الأخلاقية توقف مصير الميت على مسلكه في الحياة
وأصبح الموت من أهم المشاكل التي شغل المصريين أنفسهم بها ، ولذلك
أصبحت أسطورة أزوريس من أوسع الأساطير انتشاراً وصارت عبادته
أقرب العبادات إلى القلوب .

(١) تويس معبودة تجمع بين رأس التمساح وأني فرس النهر ، بس معبود يجمع في
شكله بين رأس الهر وجسم القزم .

(٢) شاعر روماني عاش حوالي (٤٢ - ١٢٠ م) وقد اشتهر بسخرية اللاذعة من

العقائد الجنزية :

لا نعرف كثيراً عن العقائد الجنزية في أقدم العصور الفرعونية وأول ما يطالعنا عن تلك العقائد هو ما ورد في متون الأهرام التي دونت في الأهرام ابتداء من عهد أوناس آخر ملوك الأسرة الخامسة ، وهي لا شك ترجع إلى أصول قديمة لأننا نعلم بأن المصري منذ أقدم العصور كان يعني بموته عناية فائقة ولا يدخر وسعاً في سبيل المحافظة عليهم - كما أن الميت كان يزود في مقبرته بما يلزمه من متاع يحمل على الظن بأن اعتقاد المصري في حياة ثانية كان اعتقاداً راسخاً وأن هذه الحياة تشبه حياته الأولى .

ومع أن متون الأهرام تدور في معظمها حول الملك وواجب الآلهة نحو العناية بشخصه المقدس فقد وجدت بها أوراد تدل على أن الميت لم يذنب في حق الملك بما يدل على أن هذه الأوراد في أصلها كانت تستخدم لعامة الشعب أيضاً أو أنها كانت شائعة - ومن الأوراد ما يدل كذلك على مصير متواضع إذ تشير إلى الرقاد في التراب أو الرمل .

وبما نلاحظه في نصوص الأهرام أن الإله أزوريس الذي كان يعد إله الموتى اتخذ في بعض الأوراد مكان إله الشمس أو مكان إلهة السماء .

ومما تجدر الإشارة إليه أن المصري كان يعتقد بأن الإنسان يتألف من ثلاثة عناصر : هي الجسم والكا (القرين) والبا (الروح) ، وكان يفسر الموت بأنه هجر الكا للدوتى علماً بأن الكا كان يستقبلها عند ولادته بأمر رع وهي تشبه صاحبها تماماً كما اعتبر القبر ، دار للكا وأن القرابين تقدم إليها ، كذلك كانت الكا في نظر المصري هم الملاك الحارس

الذى يهتم بالإنسان وهى التى تتجلب له الانشاء ولكنها ظلت مع ذلك كائنات إلهيا غامضا بالنسبة له كما يفهم ذلك من النصوص المختلفة التى تشير اليها . أما الباقى فى الروح التى تترك الجسد عند الموت وقد صورها المصري فى أشكال مختلفة فهى أحيانا كطير ولذلك كان من المحتمل فى نظره أن تكون روح الميت طائرا بين طيور الاشجار التى غرسها بنفسه، وأحيانا تكون فى هيئة زهرة اللوتس أو فى هيئة الثعبان الذى يندفع من جحره أو التمساح الذى يزحف من الماء إلى الأرض . وقد تساءل المصري كذلك عن مقدرة الروح وظن أنها تستطيع اتخاذ تلك الاشكال جميعا وغيرها من أشكال كثيرة لا حصر لها كما أنها كانت فى نظره تستطيع الاستقرار فى أى مكان تشاء .

ولما رأى الشمس تغرب يوميا فى الغرب وتعود إلى الشروق فى الشرق اعتقد بأنها كانت تجوب ليلا عالما سفليا ، وهذا العالم لا يدخله الاحياء بل هو عالم الموتى الذين يهبطون إليه فى الغرب ويعيشون فى عالم مظلم إلا إذا مضت من فوقهم الشمس فى رحلتها بالليل ، ولذا أطلق على عالم الموتى اسم « عالم الغرب » ، كما أن الموتى كانوا يسمون « أهل الغرب » واعتبر « سكر » اله الموتى فى منف « أول أهل الغرب » .

وكما يختلف الناس فى حياتهم كذلك لا يمكن أن تكون هناك مساواة بعد الموت أى لا بد من وجود أماكن أفضل ومتر أحسن « للأرواح الممتازة » - هذا المقرر كان فى السماء ، أى أصبح هناك عالم ثان للموتى وقد أطلق عليه اسم « دوات » ثم تطور هذا الاسم فأصبح يطلق فيما بعد على عالم الموتى السفلى كذلك - وقد ظن المصري بأن نجوم الليل

هم موتى أو أرواح سعيدة ظلت فى سناء دائم مع الآلهة إذ مد اليهم رع يده أو أخفثهم لآلهة السماء ونظمتهم بين ما لا يفنى من نجوم جسدها .

وقد ظهر أثر التضارب فى التفكير الدينى فى متون الاهرام نفسها إذ نجد فيها ما يشير إلى أن الميت يطير فى شكل طائر إلى السماء إلى جانب إخوته الآلهة حيث تمتد إليه إلهة السماء يديها وتقيمه عليها نجما لا يفنى ، وهو يولد منها فى الصباح وينتسب إلى الذين يقفون من وراء رع والذين يقفون أمام نجمة الصباح ، يبحر إلى الجانب الشرقى من السماء حيث تولد الآلهة فيولد معهم متجسدا القوة والشباب . ومن أمثلة التضارب فى النصوص أن الملاك (ليس إنسانا وليس آباءه من البشر... لأنه تحوت أقوى الآلهة أعظم من رع وهو ابنه) ، كما تصور النصوص الميت كصائد يتصيد نجوم السماء ويلتهم الآلهة يعيش على آباءه ويتغذى بأمهاته .

أما مقر الأبرار فقد تخيله المصرى كمجموعة من الجزر تمثل « حقل الاطعمة » و « حقل يارو » أو « مقر المجددين » - هاتان الجنتان تخيلهما المصرى على شكل البلاد المصرية يغمرها الفيضان ويزدهر فيها الزرع وتقوم آلهة السماء فيها بإطعام الميت طعاما طاهرا بريئا ، ترضعه نوت أو الحية التى تحمى الشمس ولا تفتطمه أبدأ أو يتلقى نصيبه من شونة الإله العظيم ويلبس ما لا يفنى وله من الخبز والجمعة ما يبقى أبدا طعامه بين الآلهة وشرابه التبيذ على نحو شرب رع . ويعطيه رع بما يأكل ويشرب .

وكان الوصول إلى حقول الأبرار هذه صعبا عسيرا فكان الميت

يرجو عطف حورس (الصقر) وتحت (أبو منجل) لينقله إلى هذه الحثول أو يرجو إله الشمس ليعبر به في سفينته أو يرجو ملاح (نوتي) حقل يارو الذى لا ينقل غير الرجل القـويم الذى لا قارب له .

وتبدو مبادئ الأخلاق فى نصوص الأهرام من كثير من العبارات التى منها : « ما من شر ارتكبه ، ولم يتقـول السوء على الملك » و « لم يحترم الآلهة ، و « طاهر الجسد » ، ومن ذلك يتبين أن معاملة الفرد مع الناس والآلهة كانت تعتمد على مكارم الأخلاق واحترام الملك والآلهة .

وبانتشار عقيدة أوزيريس تأثر الأدب الجزى وأصبح خليطاً مشوهاً أكثر من ذى قبل ، ولا نجد إلا القليل من السحر فى متون الأهرام . ولما تطورت الحياة الاجتماعية فى مصر الفرعونية أصبح للأفراد حق كتابة نصوص جزئية على توابيتهم منذ عهد الدولة الوسطى تقريباً وهذه النصوص عرفت باسم « نصوص التوابيت » وهى عبارة عن مختارات من نصوص الأهرام (التى كانت وقفاً على الملوك) صيغت فى صورة جديدة وأضيفت إليها مواد أخرى - وقد تطورت هذه فى عهد الدولة الحديثة إلى ما يعرف باسم « كتاب الموتى » وهو عبارة عن النصوص الجزئية التى دونت فى المقابر أو فى البرديات ابتداءً من عهد الدولة الحديثة حتى العصر الرومانى - وكتاب الموتى هذا يرجع فى تكوينه إلى مجموع متون الأهرام ونصوص التوابيت وقد أطلق المصريون عليه اسم « تعريفات للخروج نهاراً » أى أن الغرض من كتاب الموتى هو تمكين المتوفى من الخروج من ظلمة القبر إلى ضوء الشمس وتمكينه من الحركة بعد الموت ، وكثير من تعزيمات هذا الكتاب يفهم منها توفير

السعادة في العالم الآخر والتهرب من الأخطار التي تصادف الميت - وهذه كانت تتمثل في هيئة آلهة شريرة أو شياطين أو ما يذتاب المرء من جوع وعطش . . . الخ ،

وابتداء من عهد الأسرة الثامنة عشر ظهر كتابان آخران لأول مرة وهما : ايم دوات ، (ما في العالم السفلي) و : كتاب الابواب ، وهذان الكتابان يدوران حول موضوع واحد هو رحلة الشمس ليلا في العالم السفلي - وكان المعتقد أن إله الشمس يواصل السفر ليلا من الغرب إلى الشرق في أسفل الأرض وفي هذه الرحلة يزور بمالك الأموات ويضفي عليهم من ضوئه وكان عليه أثناءها أن يناضل أنواعا من المردة تسمى لوقف تسياره ولمنع من الشروق على الأرض ثانية - وكان العالم السفلي في نظر المصري مقسما إلى اثني عشر قسما طبقا لساعات الليل يجتاز إله الشمس كلا منها في ساعة معينة وفي صورة تختلف عن صورته في النهار - وكان المتوفى يأمل أن يلاحق بموكب إله الشمس فاستعان على ذلك بالنصوص التي أطلق عليها : كتاب ما في العالم السفلي ، حتى يتمكن من تخطي الأخطار التي تكتنف طريقه ليلا .

أما كتاب الأبواب فيتحدث عن نفس الموضوع أي رحلة الشمس خلال أقسام العالم السفلي الاثني عشر، ولكنه يقتصر على وصف الأبواب والبوابات التي تؤدي إلى هذه الأقسام والكائنات التي تحرسها .

وكان الميت دائما يأمل أن تكون روحه ضيفا يرحب به في بيته عند زيارتها للعالم الآخر لا ضيفا غير مرغوب فيه ، كما اعتقد المصري بأن روح المتوفى في إمكانها أن تتدخل في شؤون الأحياء - وقد وردت إلينا نصوص

كثيرة تبين هذه العقيدة ، ومن ذلك مثلا أن أحد الناس كتب خطابا إلى روح زوجته المتوفاة يرجوها فيه أن تكف عن أذاه ويذكرها بها كان يبذله من أجلها أثناء حياتها - كذلك اعتقد المصري بأن الميت كان يبرر موقفه أمام أوزيريس الذى كان قاضيا وحاكما فى العالم السفلى فيتقدم بسلسلة من الاعترافات الإنكارية أو السلبية حتى يقبله فى مملكته التى يعيش فيها المبرئين المرحومين ، ومن هذه الاعترافات مثلا : أنا لم أسرق ولم امتن أرملة ولم أكذب . . . الخ .

وكانت قاعة المحاكمة يمثل فيها أوزيريس كرئيس للحكمة ومن حوله اثنان وأربعين قاضيا وفيها يشرف تحوت على الميزان الذى يوزن فيه قلب المتوفى فى مقابل ريشة العدل التى توضع فى الكفة الأخرى من الميزان ، فمن كان قلبه أثقل منها ثبتت براءته واعتبر فى عداد الأبرار الذين لهم الحق فى الوصول إلى حقل يارو - أما من ثبتت إدانته فيلقى قلبه إلى حيوان خرافى متوحش يخيف ليلتهمه ويلقى الميت جزاءه فى النار ولا يصحب اله الشمس فى رحلته ولا ينتظم بين الأرواح السعيدة التى تتلأل فى السماء .

ومن ذلك يقين أن الدين كان يحن على مكارم الأخلاق وأن تلك المعايير الأخلاقية لاشك فى أنها كانت فى أول الأمر عادات اجتماعية فرضها المجتمع وأصبح لها من القوة ما جعلها من التعاليم الدينية .

ولما كان المصرى لا يشك إطلاقا فى البعث فإنه حرص على المحافظة على جسده حتى تتمرف عليه الروح وتعود إليه بسهولة كما كان يحرص على بقاء هذا الجسد سليما حتى لا يبعث فى حالة غير التى كان عليها ،

وقد احتاط كذلك بعمل تماثيل له حتى إذا ما أصيب الجسد أمكن للروح أن تحل في تمثال له ولكن نلاحظ في هذه الحالة أن التمثال كان يمثلُه وهو في ريعان شبابه طمعا في أن يبعث وهو في خير هيئة له .

وبالطبع كانت المحافظة على الجثة تتطلب أن يكون الدفن في مكان أمين بعيد عن المؤثرات الجوية والحيوانات الضارية ، وكانت المقبرة في أول أمرها عبارة عن حفرة بسيطة يوضع فيها الميت ثم يمال عليه الرديم ، ثم أمكن تسقيف هذه الحفرة بالبوص ثم بالخشب - ولاشك في أن أهل المتوفى كانوا يميزون مقبرته من غيرها بكومة من الرمال أو الحصى ، وهذا الجزء الذي يعلو سطح الأرض أصبح جزءا متما للبقرة وخضع لتيار التطور . ومنذ عصر ما قبل الأسرات أصبح الجزء الذي تحت سطح الأرض مستطيل الشكل لأن تسقيف حفرة الدفن واختراع اللبن الذي أستخدم في تبطين هذه الحفرة كان يحتم ذلك أو ييسره على الأقل . وفي أواخر هذا العصر تقريبا قسمت حفرة الدفن إلى حجرات كما أن الجزء الذي يعلو سطح الأرض فوق هذه الحفرة Super - structure أصبح عبارة عن بناء من اللبن مستطيل الشكل مائل الجوانب إلى الداخل قليلا وهو الذي عرف باسم «المصطبة» وكثيرا ما أصبحت كلمة المصطبة تطلق على المقبرة بأكملها أي على الجزئين معا . وكانت جدران المصاطب تبنى بحيث تكون ذات تعرجات (مداخل ومخارج) أشبه بأسوار الحصون ثم اقتصر على فجوتين فقط في جدارها الشرقي منذ عهد الأسرة الثانية وكانت الفجوة الجنوبية منها أكبر من الشمالية ، وقد وضعت لوحة جنزية لصاحب المقبرة

في الفجوة الجنوبية - وهذه اللوحة هي التي تطورت فيما بعد إلى ما يعرف باسم الباب الوهمي .

ومنذ عهد زوسر أمكن بناء مقبرة بأكملها من الحجر وفي عهد الدولة القديمة ظل الجزء الذي تحت سطح الأرض ينحت في الصخر في هيئة حجرة للدفن يؤدي إليها طريق منحدر أو بئر عمودي مع اختلافات بسيطة في أهرام الملوك . أما الجزء الذي يعلو سطح الأرض فقد ظل الإشراف والشعب يبنونه في هيئة المصاطب ولكن المنجر استعمل في هذا البناء - بينما تدرج الملوك ابتداء من عهد زوسر من الهرم المدرج إلى الشكل الهرمي في بناء هذا الجزء الظاهر من المقبرة - وقد ظل هذا الشكل محبباً لدى الملوك إلى عهد الدولة الوسطى وإن كان بعض هؤلاء لم يستطيعوا إلا بناء أهرام صغيرة من اللبن .

وكانت القرابين تقدم إلى روح المتوفى أمام اللوحة الجنزية ولما عظم اتساع الفجوة التي بها اللوحة حولت إلى حجرة لتقديم القرابين وللقيام بالطقوس الدينية نحو المتوفى - أما بالنسبة للأهرام فكان كل ملك يبنى في الجهة الشرقية من هرمه معبداً جنزياً يصله بالوادي طريق منحدر ينتمى إلى بناء صغير للاستقبال على حافة الوادي .

وحينما عظم نفوذ الإشراف في عهد الاقطاع الأول والدولة الوسطى نحتوا مقابرهم في الصخر في مناطق أقاليمهم .

ومنذ عهد الدولة الحديثة أخذ الملوك والإشراف في نحت مقابرهم في الصخر خشية سطو اللصوص عليها وفصل الملوك بين مقابرهم وبين المعابد الجنزية التي شيدها بعيداً عنها حتى لا يهتدى اللصوص إلى مكان دفنهم - أما الإشراف فكانت حجرات تقديم القرابين جزءاً من صميم المقبرة نفسها .

وقد تبين المصرى منذ أقدم العصور أن الدفن وحده لا يكفي للحفاظة على الجثة فلجأ إلى التحنيط ولا نعرف على وجه الدقة متى بدأ رغم العثور على جثث من الأسرة الثانية كفنت بعناية ودقة وكان كل عضو فيها ملف على حدة بما يشعر بوجود نوع من التحنيط - ومنذ عصر الأسرة الرابعة عثر على جثث مخططة تحنيطا تاما وما زال صندوق حطب حرس يحوى صرة كانت بها الاحشاء محفوظة في النظرون غير أن الجثة لم يعثر عليها - وأقدم مومياء معروفة ترجع للأسرة الخامسة في المتحف الملكى لكلية الجراحة بلندن ، وقد استمر التحنيط مستخدما حتى أوائل العهد المسيحى .

ومعظم مواد التحنيط وطرقه أصبحت معروفة إلا من بعض التفاصيل وأقدم وصف للحنيط وصل إلينا من هيروdot ثم من ديودور . وقد روى هيروdot بأن المصرى كان يستعمل ثلاثة طرق مختلفة :-

(١) وهي تكلف وزنة من الفضة ذات قيمة كبيرة - وفيها يستخرج نخاع المخ من الخياشيم بآلة خاصة وما يتبقى منه يزال بعقاقير لم يذكر اسمها كما كانت محتويات الجوف والصدر (ما عدا القلب والكليتين) تستخرج عن طريق فتحة في الجانب الأيسر ثم ينظف مكانها بنبيذ البلع والتوابل ويملأ بعد ذلك بالمر وبعض المواد العطرية والكتان والراتنج والنشارة والنظرون وقشر البصل وغير ذلك . ثم تخاط الفتحة ويعالج كل الجسم بالنظرون لمدة ٧٠ يوما ثم ينسل ويلف في لفائف من الكتان تلتصق بالصمغ .

(٢) كان زيت خشب الارز يستخدم في هذه الطريقة حيث كان الجسم

يحقق به ولا يسمح بتسربه إلا بعد أن يعالج الجسم بالنظرون.
(٣) أرخص الطرق وكانت للفقراء وتتلخص في تنظيف الأحشاء
بأنواع من السوائل (ماء أو شربه) ثم يعالج الجسم بعد ذلك بالنظرون
لمدة ٧٠ يوما .

ويعطينا ديودور بعض تفاصيل لم يذكرها هيرودوت إلا أنه لم يذكر
سوى طريقة واحدة للتحنيط تتلخص في إزالة الأحشاء ما عدا القلب
والكليتين وتنظيفها بلبنيذ البالح وتوابل مختلفة لم يعين أسماءها ويدللك
الجسم بزيت خشب الأرز ثم يمسح بالمر والقرفة ومواد مماثلة بالاضافة إلى قار
البحر الميت (حيث أشار في إحدى المناسبات عند وصف قار « البحر
الميت » أنه كان يحمل إلى مصر ليباع فيها لتحنيط الموتى) لأن الأجسام لا
يمكن أن تحفظ مدة طويلة دون تعفن إلا إذا خلطت بالتوابل العطرية
المستعملة بهذه المناسبة .

وربما كان الاختلاف بين الطريقة التي ذكرها ديودور وطرق هيرودت
راجع إلى أن فن التحنيط قد تطور في الأربعة قرون التي تفصل
بين هذين المؤرخين .

وبعض الجثث لم تنزع منها الأحشاء مثل مومياء «عاشيت» من الدولة
الوسطى أما الأحشاء التي تنزع فكانت تعالج بمخلوط من الرمل والقار
وتدفن في صندوق خاص قد يكون مقسما إلى أربعة أقسام ثم أصبحت
توضع في أربعة أواني إلى جوار الجثة ، وهذه الأواني تعرف باسم
أواني الأحشاء .

وأحدها كانت توضع به الأمعاء الغليظة والمعدة والثاني توضع به

الأمعاء الدقيقة والثالث توضع به الرئتين والرابع يوضع به الكبد -
وأغطية هذه الأواني على هيئة أحد أبناء الإله حورس الأربعة التي كانت
تعتبر حامية للأحشاء .

والظاهر أن التحنيط اكتشف مصادفة حينما تبين المصري أن بعض
الاجساد التي دفنت في تربة ملحية كانت تحفظ من التعفن ، ويذكر هيرودوت
أن الإثيوبيين كانوا يجففون الأجسام لتحنيطها ويدلسكونها بالحصى ثم
يضعونها في أوعية شفافة .
هذا وقد كانت عمالة التحنيط تجريها فئة خاصة يبدو أنها كانت فئة
غير محبوبة .

القضاء

كان الوزير في أقدم العصور على رأس القضاء فكان يحكم وظيفته كبيراً
للقضاة ، ومنذ عهد الأسرة الخامسة أصبحت هذه الوظيفة وراثية في
أسرة نبيلة - وقد وجدت في الوجه القبلى ستة محاكم كبيرة - يحتمل أن
كلا منها كانت تختص بقسم من أقسام ستة رئيسية يرجع أن العرف
جرى على تقسيم الوجه القبلى إليها في بعض الشئون العامة ، وكان كل
من عظماء الوجه القبلى العشرة يعتبر مستشاراً في إحدى هذه المحاكم ،
أما رئيس هؤلاء العظماء فكان يعتبر مستشاراً فيها جميعاً ، وبالطبع كان
لكل محكمة قضائها - وإلى جانب هؤلاء كان هناك قضاة لا ينتمون إلى
أى محكمة وهؤلاء كانوا يعملون كمساعدين لسكبير القضاة عندما تعقد
جلسات ذات سرية أو ذات أهمية خاصة ، ومثل هؤلاء القاضى الذى كان

يلقب بلقب « قم نخن » ولما كانت الإلهة « ما عت » تعد إلهة للعدالة فإن القضاة كانوا يعدون من كهنتها .

ويبدو أن هذا النظام قد تعرض للتبديل ، ففي عصر الدولة الوسطى تغير تشكيل هذه المحاكم وأصبح منصب كبير القضاة - وإن ظل مرتبطا بمنصب الوزير - لقبا تقليديا ولم تعد له نفس الاختصاصات السابقة كما أن لقب « قم نخن » أصبح هو الآخر لقبا شرفيا يمنح لبعض أمراء الأقاليم - أما في الدولة الحديثة فإن ماورد من إشارات يدل على أن أعضاء المحاكم كانوا عرضة للتغيير والتنقلات ، وكانوا عادة من الموظفين والكهنة الضالعين في القانون غير أن كاتب المحكمة كان غالبا ثابتا في وظيفته - ولهذا الأمر أهميته بالطبع لأنه كان يكاف بحفظ محاضر الجلسات باعتبارها الوثائق الحاسمة في المحاكمات .

ولم تصل إلينا القوانين التي كانت المحاكم تسترشد بها ولكن هناك ما يشير إلى وجود مجموعة للقوانين الرسمية كانت مدونة على ملفات من الرق وجدت ضمن مناظر المحكمة التي كانت تعقد في قاعة الوزير ورخمى رع ، (من عهد الأسرة الثامنة عشرة) كما تظهرها نقوش مقبرته في الهرم الغربي للاقص - ومعظم هذه القوانين ترجع في أصولها إلى عصر - وسحقه إلا أن الحاجة كانت تدعو بعض الملوك إلى سن المزيد من سن القوانين كما حدث في عهدي سنوسرت الأول (الأسرة الثانية عشرة) وحور محب (مستهل الأسرة التاسعة عشرة) .

وكانت ظروف بعض القضايا توجب الخروج على الإجراءات القضائية المعتادة فن ذلك القضية التي اتهمت فيها زوجة الملك بيبي الأول حيث جرت

المحاكمة فيها بسرية ولم يشترك فيها سوى عدد محدود من القضاة وعلى رأسهم «أونى» الذى كان مقربا للملك - كما أن قضية المؤامرة التى دبرت لاغتيال رحسيس الثالث لم تنظر أمام محكمة عادية بل شكلت لها هيئة محاكمة خاصة منحت سلطات مطلقة وقد جرت المحاكمة فى سرية وسرعة إذ أن غالبية المشتركين فى المؤامرة كانوا من حريم الملك ومن كبار موظفى البلاط والضباط .

وكانت الدعاوى المدنية تقدم أمام المحاكم الدائمة وكان على الشاكي أن يثبت حقه بما لديه من وثائق رسمية أو شهادة الشهود أو بهما معا ، وكان على المدعى عليه أن يقسم بأن ينفذ قرار المحكمة كما كان على الشهود أن يتسموا على قول الصدق .

أما أهم الوثائق التى كان يعتمد بها فى الوصايا التى يوصى فيها السلف إلى المدعى بما يدعى ملكيته ، وقوائم الضرائب الرسمية التى تثبت حقه فيما يدعى أنه حقه ، وعقود الشراء إلى جانب الوثائق التى تنص على الهبات والأوقاف والإعفاء من الضرائب وغيرها

العسكرية

لم يكن في مصر في أقدم عصورها جيشا موحدا بل كانت لكل مقاطعة قوتها العسكرية الخاصة ولكل من المعابد الكبيرة ولإدارة بيت المال فرقها الخاصة ، وهذه كلها كانت تجمع عند الحاجة كما حدث عندما هاجم الآسبويون مصر في عصر الأسرة السادسة - وقد ظل الحال كذلك إلى عهد الدولة الوسطى حيث ظل كل أمير يحتفظ في إقليمه بجيشه الصغير الخاص به ، ولم يكن هذا الجيش يستخدم دائما في الحروب بل كان يقوم بأعمال أخرى وقت السلم ، فإلى جانب حماية البعثات التجارية وبعثات استغلال المناجم والمهاجر في الصحراء كان الكثيرون من الجنود يستخدمون كعمال وخاصة في هذه البعثات الأخيرة لجر ونقل الاحجار - وقد تذبذبت ملوك الدولة الوسطى إلى أن فرقا كهذه لا يمكن أن تكون لها فاعلية الجيوش الموحدة المنظمة فأنشأوا لهم حرسا خاصا ثابتا استخدموه في حروبهم ، وقد عرف هذا الحرس باسم « أتباع الحاكم » ،

أما في عهد الدولة الحديثة فقد أخذ الطابع الحربى يسود البلاد بعد أن نجحت في طرد الهكسوس وذاقت طعم النصر في القتال وأقبل المصريون على الانخراط في سلك الجندية لما كانوا ينالونه فيها من شرف وفخار فضلا عن المكاسب المادية التي يحصلون عليها في انتصاراتهم ، وأصبح الجيش المصرى ثابتا يتألف من عدد من الفيالق أو الوحدات التي كانت على الأرجح تختلف في ملابسها وأسلحتها - ويغلب على الظن أن الجيش المصرى لم يخل في أى وقت من المرتزقة وخاصة من النوبيين الذين استمر استخدامهم منذ أقدم العصور ، ففي الدولة القديمة عملوا

كحرس للجبانات والمناطق الصحراوية ، وفي عهد الفوضى الأول كانوا يعملون في جيوش المقاطعات وظلوا كذلك يستخدمون في الجيش في عهد الدولة الوسطى ، أما في الدولة الحديثة فكانوا يؤلفون فرقا حربية تعمل في حفظ الأمن إلى جانب بعض النواحي الإدارية الأخرى - وقد زادت العناصر الأجنبية في الجيش ابتداء من عصر الأسرة التاسعة عشرة حتى أصبحوا في العصر المتأخر يشكلون غالبية الجيش المصري ، وكان يرأسهم رؤساء من بني جلدتهم - وما يلاحظ في هذا الصدد أن جماعات الشردان والليبيين أخذت تسود في أواخر عصر الدولة الحديثة بينما أفسحت مكانها في عصر النهضة (الأسرة ٢٦) وما بعدها للعناصر اليونانية .

وكما تطور الجيش في تكوينه تطورت كذلك الأسلحة التي استخدمها ، ففي فجر التاريخ كان السلاح الشائع الاستعمال هو الهراوة (دبوس القتال) ذات الرأس الحجري التي ظلت تبين في النقوش حتى أواخر العصور الفرعونية كسلاح تقليدي يستخدمه الفرعون في تحطيم رؤس أعدائه ، وفي عصر الدولة القديمة كان الجنود يسلمون بفتوس للقتال وبالقي والسهام - وفي عهد الفوضى الأول ظل استخدام القسي والسهام إلى جانب استخدام الحراب العاوية والتروس في حالة الالتحام عن قرب ، ولم يزد تسليح الجنود في عهد الدولة الوسطى عن ذلك كثيرا غير أن بعض الجنود كانوا يكتفون بالتسلح بمجرد مقلاع فقط . ومن المحتمل أن الخنجر استعمل في مختلف العصور ولكنه لم يمثل مع الجنود في صورهم إلا نادراً . وقد تفسر شكل الفأس النحاسية في الدولة الوسطى حتى أصبحت تبدو كأنها السلاح الذي تطور إلى السيف المنحني

الذى كان يحملة ملوك الدولة الحديثة ، وهو على شكل المنجل .
وفى عهد الدولة الحديثة كان الجنود يتسلحون بالحرا ب مع الخناجر
أو السبوف التى على شكل المنجل وترس ثقيل ، وقد يتساح البعض بحربة
خفيفة وترس أو رماح طويلة و سيوف أو القسى والسهام ، وكان بعض
الجنود يلبسون الدرع (قميص الحرب) - هذا إلى جانب استحداث
العجلات الحربية كأداة فعالة فى الحروب منذ طرد الهكسوس من مصر،
وهذه كان يركب فيها عادة محاربان أحدهما لقيادة الخيل والآخر يرمى
بالسهم من قوسه أو يقذف به زارق كانت توضع فى جعبتين عند حافة
المركبة فى متناول يده ، وقد أصبح هؤلاء الفرسان يشكلون قسما هاما فى
الجيش المصرى .

وفى بلد كصر عرضة للإغارة عايتها من بدو الصحارى المناخنة ومن
النوبيين فى الجنوب كان لابد من وجود عدد من الحصون والثكنات عند
مناطق الخطر، وتدل البقايا الأثرية على وجود مثل هذه الحصون عند الحدود
الجنوبية فى عهد الدولة القديمة - وفى عهد الدولة الوسطى وجدت حصون
على حدود الدلتا الشرقية وفى جنوب مصر كما بنيت سلسلة من القلاع
فى النوبة السفلى للسيطرة عليها وحماية الممتلكات المصرية بها - أما فى
عهد الدولة الحديثة فلم تكن الحاجة تدعو فى أول الأمر لإنشاء مثل
هذه الحصون وربما استعاضوا عنها بإنشاء مدن عسكرية فى الدلتا .

ويبدو أن المصريين لخبرتهم. بمثل هذه التحصينات قد أكتسبوا مهارة فى
طرق حصارها وتحطيمها منذ عصر الدولة القديمة على الأقل حيث يبدو
ذلك واضحا من منظر يمثل اغتصابهم لحصن آسيوى بالمراقى وقضبان الهدم

جاء في نقش بإحدى مقابر دشاشة (١) ، وفي إحدى مقابر بني حسن مناظر تمثل حصار أحد الحصون حيث يتقدم إليه المهاجمون تحت مظلة واقية وهم يدفعون في جداره قضيبا طويلا للهدم ويرمون المدافعين عنه بوابل من السهام (٢) .

الحياة الاقتصادية

الزراعة وتربية الحيوان

لا بد عند الكلام عن الزراعة أن نتخيل البيئة المصرية في بداية العصور الفرعونية . فالمعروف أن النهر كان متسع المجرى قليل الغور لأنه لم يكن قد عمق هذا المجرى تماما فكانت مياه الفيضان تغمر الجانبين إلى مسافات بعيدة وتنتج عن ذلك أن المستنقعات والغابات كانت شائعة وخاصة في الدلتا . أى أن هذه البيئة المصرية كانت في أول الأمر بيئة صياد بطيئعتها، ثم عرف الإنسان استئناس الحيوان - وحينما تعددت مطالبه وعجز عن الاكتفاء بهاتين الحرفتين وتوصل إلى الزراعة بدأ حياة الاستقرار فأخذ يقطع الغابات ويزرع مكانها ، وقد أدى ذلك إلى الإفادة من مياه النيل وأخذ ينظم جهوده المشتركة ليستطيع التغلب على مياه النهر والتحكم فيها لفائدته ، ولذا كان النيل من أهم البواعث التي أدت إلى ظهور المجتمعات المنظمة . وكان ظهور المجتمعات الصغيرة بعضها إلى جوار بعض سببا في اشتداد المنافسة بينها وبجبالا لنشأة الصراع في سبيل فرض النفوذ ونشر

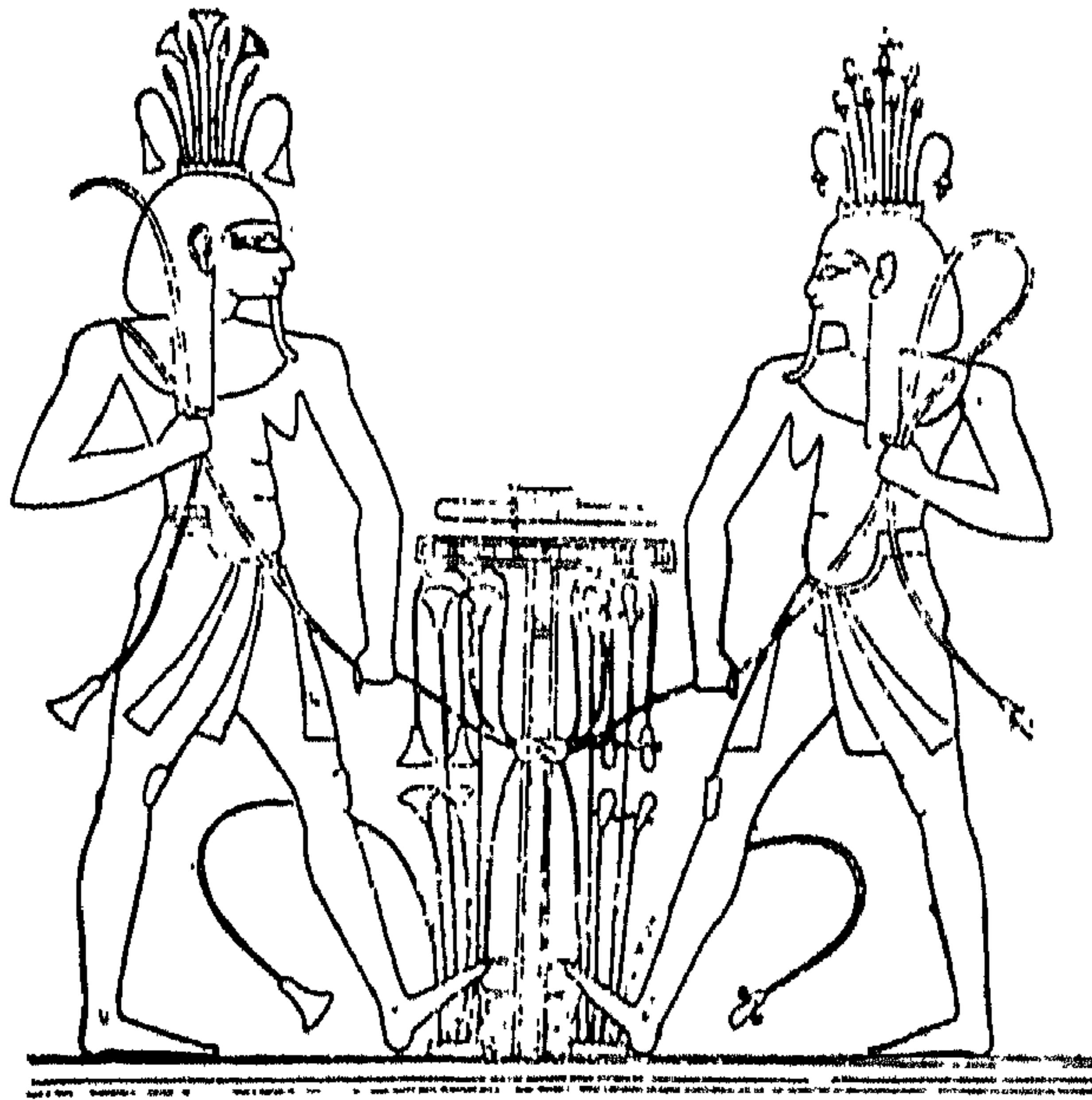
Petrie, Deshashah, pp. 5; ff; pl. 4.

(١)

Newberry, Beni Hassan I, 14; II, 15,

(٢)

السلطان فكان الإقليم الأقوى يحاول بسط سيادته على الأقاليم المجاورة .
ولا يكاد يوجد في العالم نهر اعتمد سكان واديه عليه في حياتهم
مثل اعتماد المصري على نهر النيل بل وإلى هذا النهر يرجع الفضل في
وجود الإنسان في هذه البقعة من العالم وعلى ذلك ليس من المستغرب
أن اعتبره المصريون إلهاً وتخيّلوه في هيئة إنسان عظيم الثديين كبير
البطن ممتلئ الجسم كناية عن الخير والبركة ويقوم بحزم وربط رمزي
الوجه القبلي والوجه البحري شكل (١٦) وكثيراً ما وجد مع غيره



شكل (١٦) : إله النيل يمثل رجلاً ممتلئ الجسم
وهنا تمثيل لرمزين للنيل يوحدان رمزي الوجهين
القبلي والبحري

من الآلهة مثل أوزوريس كما أطلق على هذا الإله الموحد اسم أوزير - أبليس في العصر اليوناني .

وقد يصبح النيل خطيراً أحيانا ، ولا يتمثل هذا الخطر في شدة الفيضان فقط وإنما يتمثل أيضا في قلة ما يجيء به من مياه في بعض السنوات مما يؤدي إلى هلاك الزرع وانتشار المجاعات ، وإذا ما انخفض منسوب المياه فإن الفلاح يلجأ إلى وسائل تعينه على رفع الماء إلى حقله - وقد توصل إلى هذه الوسائل منذ أقدم العصور وظل يستعملها حتى يومنا هذا ، ومن أهم هذه الوسائل الشادوف - كذلك مازال الفلاح يمد أرضه بالمحراث أو الفأس لإعدادها للزراعة .

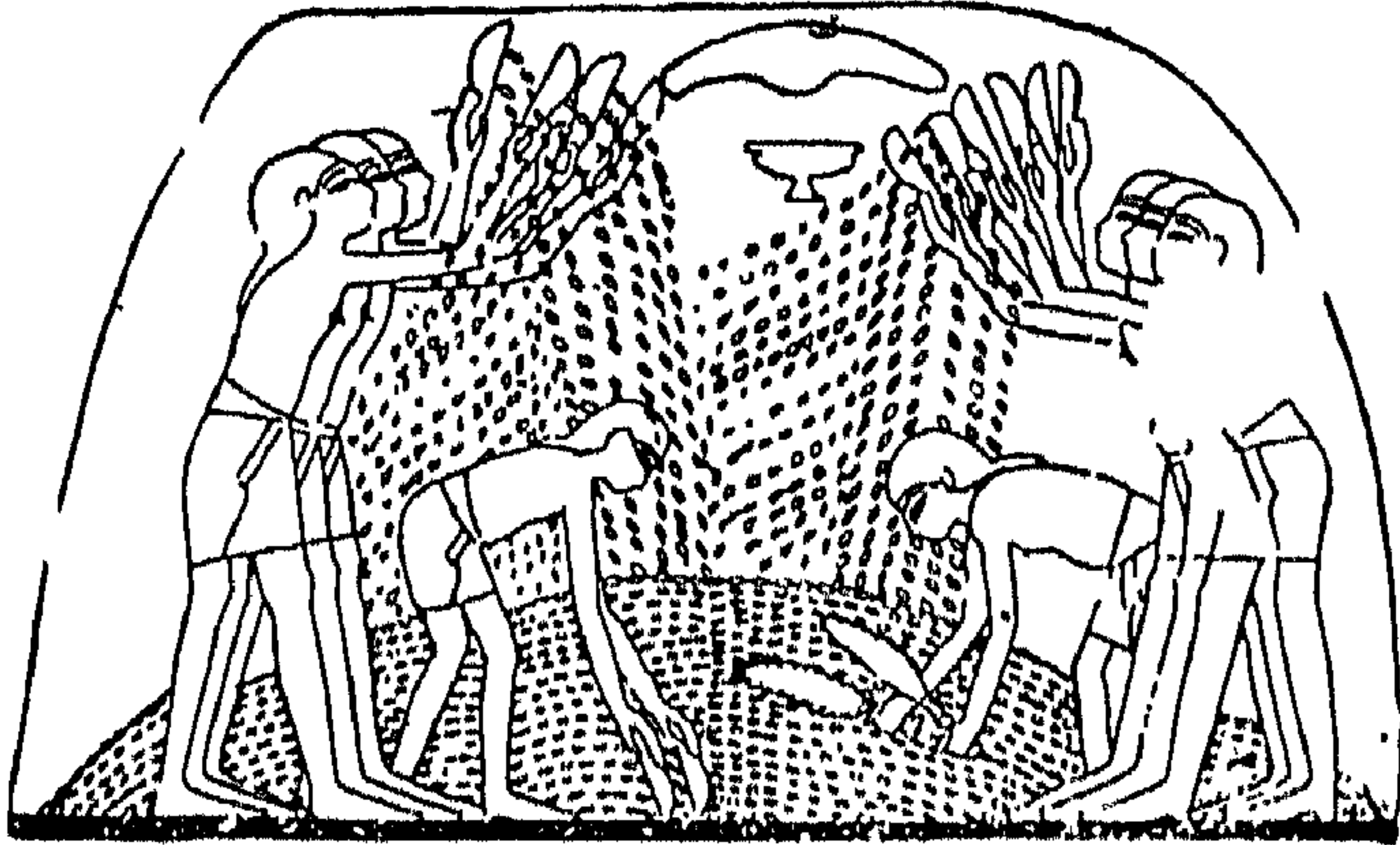
وكان الجو المهرى يساعد على أعمال الزراعة المختلفة فالجـو صحو في معظم أيام السنة وأتاح ذلك للمهرى أن يؤدي أعماله بنظام ونشاط ، وكان المحراث الذي استعمله المصري القديم عبارة عن سكين خشبي تثبت إليها يدان أو مقبضان وعريش طويل ينتهي بنير (ناف) - وكانت الثيران هي التي تجر المحراث في الدولة القديمة أما في الدولة الحديثة فقد استعملت البغال أيضا .

وطريقة بذر البذور هي نفسها التي ما زالت مستعملة حتى اليوم إذ يسلك الفلاح بسلة مصنوعة من البوص أو القش أو البردي ويلقي بيده البذور ثم يسير الخراف في الحقل لتغرز هذه البذور في التربة ، وقد تمرر الخراف عدة مرات لكي يضمن الفلاح تغرير معظم الحبوب .

أما الحصاد فكان يتم بمنجل قصير ويستعين الفلاح على العمل في الحقل بماعز للنأي أو أحد المنشدين الذي يشجى العمال بألحانه ، وكثيراً

ما نرى فى النقوش مناظر الحقول أثناء فترة الحصاد وفيها نشاهد مناظر تمثل العمال أحياناً فى راحتهم يتناولون طعامهم بالقرب من مكان جمع المحصول حيث نرى حزم النبات مكومة فى قطعة أرض فضاء فى أحد أركان الحقل أو بالقرب منه ، ثم تنقل هذه الحزم إلى مكان الدرس - وكان الحمار هو المستعمل فى النقل أما الدرس فكان يتم بواسطة إمرار الحيوانات ذوات الحوافر على تلك الحزم مثل الحمار والثيران ، ثم أصبح الأمر قاصراً على استعمال الثيران فقط .

وكانت التذرية بمذراة ذات ثلاثة أسنان أو كانت الحبوب وما يختلط بها ترفع على لوحات خشب قليلة التقوس (شكل ١٧) - وهذه الطريقة الأخيرة كانت تستعملها نساء معصوبات الرؤوس ، وربما كان الغرض من ذلك حفظ شعورهن من الأتربة المتصاعدة عن هذه العملية إذ كانت الحبوب ترفع على اللوحات الخشبية إلى أعلى ثم تترك لتسقط فتهبط الحبوب فى مكانها بينما تنطير الأتربة والتبن والقش بعيداً فى الهواء .



شكل (١٧) : يمثل نساء يقرمن بتذرية القمح

وتقدم من باكورة الحصاد قرابين مختلفة كما أن صاحب المزرعة كان يأخذ شيئاً من هذا المحصول المبكر، أى تقدم له كذلك باكورة الحصاد الجديد لتجربتها والاطمئنان على نوع المحصول - وكثيراً ما نجد في مناظر الدولة القديمة منظرأ يمثل المذبح المعد لتقديم القرابين بين أكوام القمح، وكانت إلهة الحصاد التى تقدم لها القرابين عادة هى (رنوت) .

أما حفظ المحصول فكان يتم بعد أن يقوم كاتب الصوامع والكيال بعملها حيث كان الكيال يكيل المحصول بينما كان الكاتب يسجل عدد الكيل، وبعد ذلك كان ينقل إلى أهراء كبيرة لحفظه. وكانت الصوامع على أنواع فبعضها من الفخار وبعضها من الخشب وبعضها كبير إلى درجة أنه كان يكفى لاستعمال مدينة أو قرية بأكملها، وهى عموماً ذات شكل مخروطى وبها فتحة فى القمة وباب من أسفل - وكان التخزين يتم عن طريق الفتحة العليا أما الاستهلاك فكان عن طريق الباب السفلى .

وقد عرف المصرى من الحبوب القمح ونوعاً من الشوفان وكان كل منها يختلف فى نوعه فى مصر العليا عنه فى مصر السفلى . وهناك بعض أنواع من الحبوب لم يمكن تحديدها فثلاً كان هناك نوع اسمه « سخت » كذلك كان من الحبوب ما هو أبيض ومنها ما هو أخضر، وربما كان هذا الأخير نوعاً من البازلاء . أو ما شابهها من البقول - أما الخضروات فكانت متعددة .

وكان المصرى يحب حيواناته الأليفة ويتعلق بها وخاصة تلك التى تساعد فى أعماله، واشتدت عنايته بالأنواع الحسنة من الثيران فكان ينفق

فى تزئينها بأغطية جميلة وجلال وقد وصل به الأمر إلى تقديس الثور والبقرة وكذلك قدس الكباش - وقد نقش كثيراً من المناظر التى تمثل تلك الحيوانات ومن بينها مناظر تمثل قيام الثيران بالعمل فى الحقل ، كما أحب مناظر منطقة الثيران وغيرها .

وكانت ثروة المصرى من الثيران ضخمة وهى تنقسم عموماً من ناحية خصائصها الحيوانية إلى ثلاثة أنواع: الأول ذو قرون طويلة تشبه القيثارة أو هلالية الشكل، والثانى قصير القرون، والثالث بدون قرون - وكثيراً ما كان يتحكم فى شكل قرون ثيرانه بأن يجعلها تنمو فى اتجاهات خاصة وما زالت هذه العادة معروفة فى أواسط أفريقيا - وتبين العناية بغذاء الحيوان من كثير من المناظر ومن بعض مخلفات الأدب المصرى .

كذلك كان يعنى بتربية السلالات الأصيلة والاكثار منها ، وعند جمع الجزية من بلاد النوبة مثلاً كانت الأصناف الممتازة من هذا الحيوان تزين وترسل إلى بيت الملك - أما الحيوانات الأخرى فى الجزية فكان الموظفون المصريون فى تلك البلاد يحتفظون بها للاستهلاك المحلى ، وكان غذاء التسمين المفضل هو عبارة عن عجين الخبز يصنع فى خيوط ويطعم للحيوان - وكانت عملية حلب البقر من الأمور الصعبة فلم تقم بها النساء بل كان يقوم بها الرجال .

وكان الرعاة نخشون المظهر يظهرون وكأنهم أنصاف متوحشين لبعدهم عن المدينة ، وكانوا يمثلون عراة أو بنقبة غريبة الشكل من النوع القديم المصنوع من القش المضغوط - وكانوا معروفين بالمهارة فى أعمال خاصة بالفلاحة ومتعلقة بها مثل صنع القوارب والحصر من الخوص وصيد

الطيور والأسماك ، ولم يكن متاح الراعى ليتدعى قدر كبير من الفخار وسلة تحوى أواني صغيرة وبضعة حصر من البردى يصنعها بيده وهى فى نفس الوقت الغطاء الذى يلتحف به ليقويه الرياح العاتية والجر البارد . وكانوا ينتقلون بالقطعان من مكان إلى آخر فى مهارة غريبة وكثيراً ما كانوا يلجأون إلى حمل الحيوان الرضيع فتتبعه الأم ويتبع هذه بقية القطيع - وكان أصحاب الضياع يمتلصكون قطعاناً كبيرة ولسكنهم لم يفخروا إلا بالحيوانات الكبيرة فقط ولم يعنوا كثيراً بغيرها كالماعز والخير والخراف - ولا تجد فى نقوش العصور القديمة مناظر تمثل قطعان الخنازير ولم تذكر هذه الحيوانات فى النصوص إلا نادراً ولا نعرف هل كان هذا الطيوان كثير الوجود فى مصر أم لا - ولا ندرى هل وجد منذ أقدم العصور أو أن وجوده لم يتعدى الأنواع البرية منه فقط.

والى جانب الحيوانات المستأنسة كانت تكثر بمصر الحيوانات البرية مثل الظباء والتبائل والوعول والغزلان ، وكان الظبي السمين يعتبر من الأطعمة الشهية ويمثل كقربان دائماً - أما الطيور فكانت عديدة ولسكن لم تعرف الدواجن ، وقد احترف صيد الطيور صيادون مهرة وكانوا يسمنونها بخيوط العجين مثل الماشية إلى جانب بعض الحبوب التى تنثر لها .

وللتمييز بين حيوانات القطعان المختلفة كثيراً ما كان يعمد أصحابها إلى وشمها بعلامات مميزة ؛ وكانت الحيوانات تحفظ فى حظائر نظيفة ، وقد وجدت آثار للأحجار المثقوبة التى كانت تربط إليها هذه الحيوانات - ويستدل منها على أن الحيوانات كانت تربط فى الحظيرة فى صفين متقابلين

بحيث تكون رؤوسها إلى الخارج مواجهة للجدار بينما تكون مؤخرة كل حيوان أمام مؤخرة الحيوان الآخر المقابل له .

وكان للأوز مكانة خاصة واعتبر حيوانا مدالا في كثير من الأحيان حتى أن زوجة أحد موظفي معبد آمون اتخذت أوزة كحيوان مدلل تتبعها أينما ذهبت .

ورغم ما كان يبذله الفلاح من جهد ورغم أنه كان عماد الثروة في مصر القديمة إلا أنه كان يعتبر مخلوقا بائسا يستحق الرحمة والرثاء ، ويبين لنا خطاب أحد الكتّاب لتلميذه مقدار ما كان يعانيه الفلاح من مرارة العيش فقد جاء فيه أن المحصول كانت تأكله الدود وإذا ما وضع في الأجران فإن الفئران والعصافير تأتي على معظمه وعند تسليم المحصول لا يجد الفلاح لديه ما يكفى لما هو مطلوب منه فيضرب ويعذب .

الصناعة :

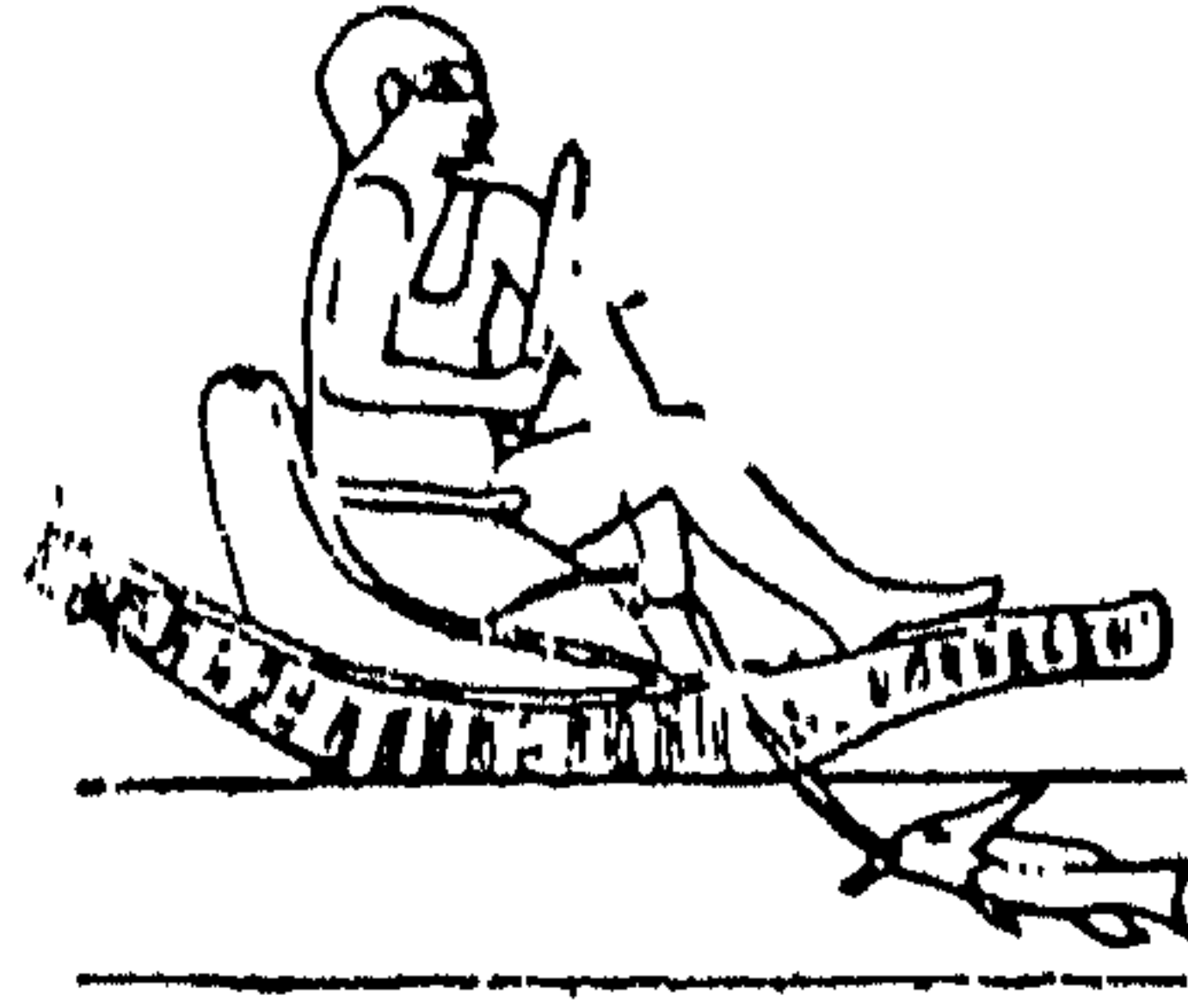
كان الاعتقاد السائد عند المصرى المثقف بأن الصانع كالفلاح كلاهما مخلوق بائس وأن حالة الصانع تدعو إلى السخرية فمن ذلك قول أحد شعراء الدولة الوسطى عن صناع المعادن بأن الحداد لا يوفد كسفير لبلاده ولا يؤدى الصانع رسالة ، كذلك وصف الحداد بأنه يقف بجانب موقده وأصابه مثل جلد التمساح ورائحته اتن من بيض السمك أما النجار فهو مرهق فى عمله دائم العناء - ولكن هذه النظرة لا يمكن أن تكون عادلة لأن الصناع المصريين أخرجوا من آيات صناعاتهم ما لا يمكن أن ينتجه إلا كل شغوف بعمله أى أن إنتاجهم لم يكن مفروضا عليهم فى جميع الحالات وإن كانت بعض التقاليد

قد حتمت عليه قواعد خاصة ، إلا أن التفاوت في الإلتقان ووجود بعض النماذج التي يميز عنها الصانع الحديث بإمكانياته الضخمة يجعلنا نعتقد أن الصانع المصري كان يؤدي عمله برغبة واهتمام - وكثيراً ما كانت له فرصة للحرية في اختيار بعض النماذج وابتكار ما يراه مناسباً عند إخراج قطعه فنية .

أما المواد الخام التي كان يتناولها الصانع في صناعته فكانت بما تلتجته البيئة المحلية أو بما يستورده من البعثات المجاورة - وكانت العلاقات بين وادي النيل الأدنى ووادي النيل الأعلى (أى بين مصر والسودان) وبين وادي النيل وآسيا الغربية نشيطة منذ فجر التاريخ ، وقد تمثل التبادل التجازى بينها أو مايدل على هذا التبادل في مقابر عصر ما قبل الأسرات إذ وجد بها المساج وبعض المنتجات الصناعية التي تهائل ما وجد في جنوب غربى آسيا ورغم أن الفيل كان يعيش في غربى آسيا كما كان يعيش على حدود الصحراء الغربية لمصر نفسها فإن من المسلم به أن المساج كان يأتى من النوبة وإن كان من الممكن الحصول عليه من هذه المصادر الثلاثة جميعاً أى أن التبادل التجارى بين مصر وجيرانها في عصور ما قبل الأسرات لا يمكن إنكاره .

وإذا ما تأملنا البيئة المصرية نجد أن أهم المواد الخام فيها هى :

(١) البردى - كان هذا النبات يمثل عنصراً هاماً للغاية إذ أنه دخل في صناعات كثيرة - وأول ما يتبادر إلى الذهن في هذا الشأن أن سيقان البردى استخدمت في بناء الأكواخ وعمل القوارب (شكل ١٨) والحصر والسلال والحبال ثم النعال - كذلك كانت سيقان البردى تجميع في حزم لتقوم مقام الأعمدة عند تسقيف المنازل أو عند رفع تعريشاتها الخفيفة



شكل (١٨) : زورق من البردى يجلس به صائد بالشص

أو لتقوية الجدران ، وكان من أثر استخدام البردى في المباني القديمة أن ظل المصرى يمثل سيقانه في المباني الحجرية حتى نهاية العصور الفرعونية ، كذلك مثلت زهوره أيضا في العمارة المصرية ، وبما يدل على أثر هذا النبات في حياة المصرى أن زهرة البردى كانت تعتبر رمزا للوجه البجرى (بينما كانت زهرة اللوتس ترمز للوجه القبلى) - ثم استخدم البردى كذلك في عمل صحف الكتابة وبالطبع كانت الكلمة اليونانية Papyrus الدالة على هذا النبات هى الكلمة التى اشتقت منها الكلمة الدالة على الورق أو الصحف فى معظم اللغات الحديثة حيث تسمى بالانجليزية Paper وبالفرنسية Papier .. الخ - وكانت طريقة عمل الصحف منه تتلخص فى قطع سيقان البردى إلى شرائح تلتصق بعضها إلى جوار بعض طولاً وعرضاً وتطرق بشدة ثم تجفف ويقوى طرفها وإذا ما أريد عمل قرطاس للكتابة فإن طرفى هذا القرطاس يقويان ، وكان القرطاس لا يستعمل مرة واحدة فقط بل كان من الجائز استعماله عدة مرات بعد أن تمحى الكتابة السابقة منه فى كل مرة - وكان البردى سلعة رئيسية فى الصادرات المصرية فى العهد اليونانى الرومانى .

(٢) السكتان - وهو يلي البردى في الأهمية وقد وجد في مصر منذ أقدم العصور بالنسبة لكثرة وجود المستنقعات بها . وجادت زراعته لوفرة المياه - وقد استعمل في أنواع مختلفة من النسيج منها الخشن والرقيق الشفاف حيث نهضت صناعة الغزل والنسيج منذ أقدم العصور ، وكان يحترفها الرجال في معظم الأحوال - وكانت الأنوال المستعملة تتطور بتطور الزمن : ففي الدولة الوسطى كانت ساذجة والعمل عليها مرهقا لأنها كانت تحتم على النساج الجلوس في هيئة القرفصاء ، أما في الدولة الحديثة فكانت الأنوال من النوع المركب التي أباحت شيئا من الراحة للصانع الذي يقوم بالعمل عايقا - وقد أشرنا فيما سبق إلى دهشة هيرودوت حينما وجد أن النساج المصري كان يدفع بلحمة النسيج إلى الاتجاه المضاد للاتجاه المستعمل في النسيج عند الشعوب الأخرى .

وكانت الطريقة التي يتبعها المصري في صناعة السكتان تبدأ بجمع سيقان هذا النبات ثم تمشيظها بعد التجفيف ثم تغلى السيقان ليلاين لحاؤها وتطرق بعد ذلك لإزالة هذا اللحاء وبعدئذ تندى الألياف بالماء ثم تفتل بمغزل - وقد اشتهرت الغزالات في الدولة الوسطى بالبراعة ، وكان قتل الحبال من الصناعات المشهورة التي لقيت رواجا كبيرا - وبعد غزل السكتان كانت تؤخذ خيوطه للأنوال لنسجه حسب الطلب .

(٣) - الجلود - استخدمت الجلود في الصناعة منذ أقدم العصور وكانت الجلود المستعملة لا ينزع عنها شعرها الجليل مثل جلود الفهود أو الحيوانات التي كان جلودها أقرب إلى الفراء واستخدمت هذه الجلود في عمل الملابس وظل استعمالها تقليديا بالنسبة لجلد الفهد ، إذ ظل مستعملا

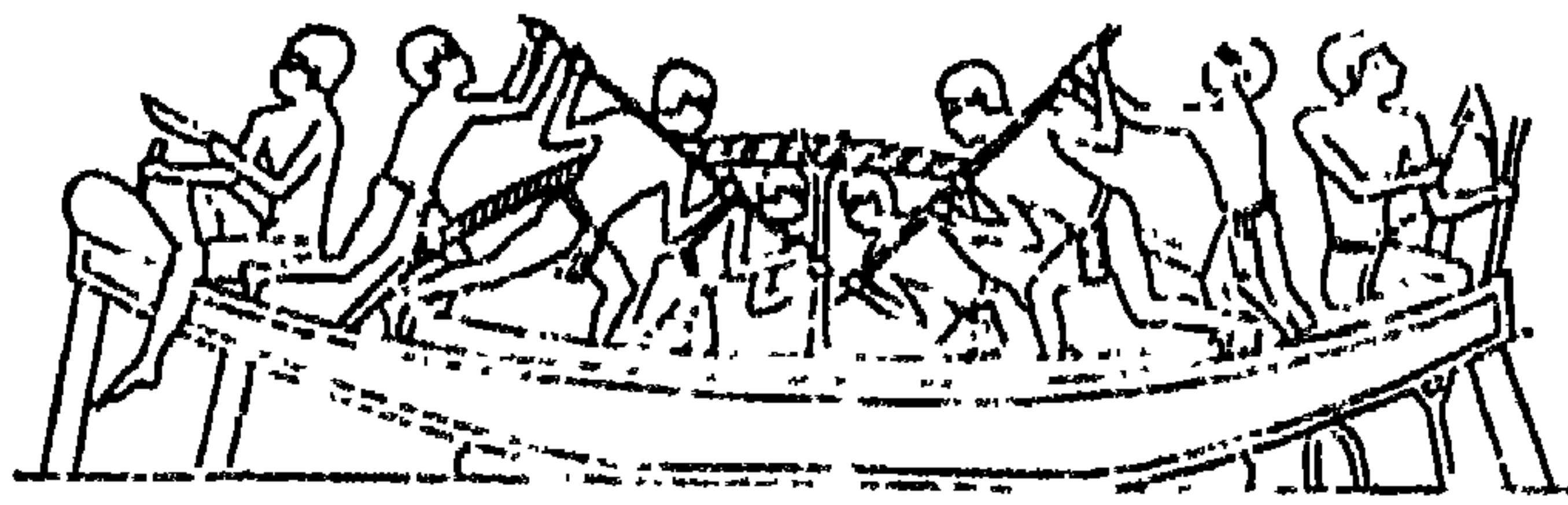
كزى للكهنه فى كل العصور الفرعونية تقريبا - كذلك استخدم الجلد فى الصناعات المختلفة مثل صناعة التروس والجعاب وعلب المرايا وفى صناعة أغطية الرأس وفى النعال والأحزمة ، وقد ظلت النقبة المصنوعة من الجلد لباساً للصيادين والرعاة - والجلد كمادة خام كان له تقديره الخاص فى نظر المصرى فاستخدم فى الكتابة ليدل على مدلولات خاصة : فالرمز الذى يصور عنزة بدون رأس أو جلد الحيوان بأكمله استعمل فى كلمات كثيرة وبمعانى مختلفة ، كما استخدم الرمز الدال على جزء من جلد الحيوان كمخصص فى كثير من الحالات وقد استعمل الرق الأبيض فى ملفات الكتابة كذلك .

(٤) الأخشاب : لم تعرف مصر الأنواع الجيدة من الأخشاب حتى أن بعض الأنواع المتوسطة كان يحافظ عليها بشدة ، ولعل هذا قد انتقل إلى المعاصرين فى الوقت الحاضر إذ كثيراً ما نجد أن الفلاح يتشائم من قطع بعض الأشجار مثل التوت والجيز . وأهم الأنواع التى كانت شائعة فى مصر هى الجيز والنخيل والدوم والإبل والسنت وكها أنواع غير جيدة - أما الأخشاب الجيدة فكانت تستورد من الخارج مثل الأرز الذى كان يجلب من لبنان ، وكثيراً ما كان المصرى يلجأ إلى عكاكة الخشب الثمين بتغطية الأخشاب المحلية بطبقة من الألوان أو بطبقة من الجص الملون .

وكان النجار وهو من أهم الصناعات فى مصر يستعمل أدوات بسيطة من النحاس أو البرنز يستعين فى تثبيت أجزائها بسيور من الجلد - وبهذه الآلات (رغم بساطتها) أمكن للنجار أن ينتج كثيراً من روائع فنه وصناعاته الدقيقة

والضخمة فقد تمكن من عمل المراكب والمركبات وأجزاء المنازل والآثاث والأسلحة والتوابيت وغيرها .

وبالطبع لم يكن في استطاعة المصري الحصول على ألواح كبيرة عظيمة الطول سواء من بيئته المحلية أو من الأخشاب المستوردة فكان يتحايل على ذلك بلصق الألواح الصغيرة جنباً إلى جنب ، وكثيراً ما كان يزخرف صناعته فيحفر الخشب ويطعمه بالعاج أو بالابنوس أو أن يملأ الحفر بمادة ملونة . وإذا ما تأملنا المراكب المصرية فإتينا نجد أنها تتقوس من الطرفين وقد توصل المصري إلى تقويس الخشب بطريقة بسيطة للغاية تتلخص في أنه كان يضع عاموداً اسطوانياً في وسط القارب ينتهي من أعلى بفرعين يثبت بينهما حبل ويوصل طرف كل فرع بطرف القارب المقابل له ثم توضع عصا في الحبل الموصل بين الطرفين وبإدارة العصا تضيق المسافة بين الفرعين وبالتالي يشد طرفاهما طرفي القارب نحو الداخل (شكل ١٩) .



شكل (١٩) : طريقة بناء السفن

وكان العاج والابنوس من المواد التي كثر استخدامها في صناعة الآثاث ولكنها كانتا يعتبران من المواد الثمينة وفي المصور المتأخرة وخاصة في العصر اليوناني الروماني كان نوع من الكرتون يستخدم في صناعة الأقفعة التي كانت توضع على وجه المومياء وتزود بعيون صناعية من الأحجار

الثينة فكانت تحاكي وجه الميت تماما، بعد أن كانت هذه الاقنعة تصنع أولا من قطع من السكتان وتاصق بعضها فوق بعض ثم تغطى هذه بطبقة من الجص .

(هـ) الفخار - عرفت خامات الفخار في مصر منذ أقدم العصور وكان لهذه الصناعات أثر بالغ في الحضارة المصرية إذ أن حياة الاستقرار تطابت أن يقوم الانسان بحفظ حاجياته ، وكان المصري محظوظا في بيئته لأن النيل كان يجلب الطمي في كل عام فصنع منه الاواني اللازمة لحفظ أطعمته، ولا بد أنه في أول الامر كان يصنع تلك الاواني من الطمي دون حرقه، أي أنه لم يعرف الفخار دفعة واحدة - وربما كان الجفاف الذي تتعرض له تلك الاواني سببا في معرفة المصري بأنها تزداد صلابة وتاسكا كلما تعرضت لارتفاع درجة الحرارة إلى أن توصل إلى أن الحرق يزيد من صلابتها وتاسكها ، وما زالت صناعة الفخار حتى الآن تجمد سوقا رائجة في البلاد .

ويبدو أن صناعة الفخار في مصر لم تتأثر بمؤثرات خارجية كثيرة في أوائل الامر بل ولم تستخدم آلات لصناعتها إذ لم تكن هذه مروفة بعد ، ومع أنها كانت تصنع باليد فإن الفخار الذي وجد من حضارة البداري وهو يمثل تلك الصناعة اليدوية يعد من أعظم الاواني التي عرفت في تاريخ مصر بأكمله من حيث الجودة والالتقان . وبعد ذلك عرفت العجلة وكثر إنتاج الفخار فأصبح تجاريا وبدأ يفقد الدرجة الرفيعة التي وصل إليها من قبل في الدقة والالتقان .

وقد نشأت تبعها هذه الصناعة صناعات بسيطة فثلا وجدت قواعد خشبية لهذه الاواني أو كانت تصنع حلقات من الفخار لترتكز عليها،

كما أن تلوين الاواني الفخارية وزخرفتها قد أوجدت مجالا لصناعة فنية فن الاواني ما كان يكتفى فيها برسم خطوط محفورة تجعلها تحاكي السلال ومنها ما كان يلون بألوان تجعلها تحاكي الاواني الحجرية - ومن الاواني الفخارية كذلك ما صنع في هيئة الحيوانات أو في أشكال خيالية ، كما كانت صناعة التزجيج أو القاشاني معروفة منذ فجر التاريخ - وقد نشأت هذه الصناعة في مصر ولكن لا يعرف كيف توصل لها المصري بل ولا نعرف المواد التي بدأ بها المصري هذه الصناعة ، ونجد أمثلة لصناعة الزجاج نفسها في العصور التاريخية - وكان هذا الزجاج ينفخ بأنابيب من الفخار يحمى طرفها من الاحتراق غشاء من طمى النيل .

(٦) صهر المعادن - لم يثر على نماذج للكور في الدولة القديمة أو الوسطى ولكنه وجد في الدولة الحديثة ، وقد عرف النحاس والبرنز منذ أقدم العصور - وكانت سيناء هي المورد الذي جاء منه النحاس الذي استخدم بكثرة منذ أقدم العصور ، وكان البرنز أكثر استعمالا منه بالطبع فلصلا بته استغل في صناعة كثير من الآلات ، أى أن المصري عرف خلط المعادن منذ أقدم العصور وكان أغلى ما يستخدمه منها هو مزيج من الذهب والفضة بنسبة ٢ : ٣ يعرف باسم الالكترون - وكان الذهب مستعملا في الحلى منذ الدولة القديمة وكانت قيمته كبيرة وبلغ الصانع في صناعته درجة كبيرة من المهارة - ولقيمة هؤلاء الصناع في الأوساط المصرية اعتبر المشرف على الصياغ مشرفا على الفنانين في مصر العليا والسفلى ولقب كذلك بأنه هو الذى يعرف الأسرار في بيوت الذهب - كذلك عرف المصري صناعة الميناء ، أى خيوط الذهب المغطاة بطبقة زجاجية كما عرف التمويه بالذهب ، ومع هذا كانت الفضة أغلى من الذهب وذلك لندرتها

نسبياً مع أنها عرفت قبل الذهب وكان المصري يقسم الذهب إلى أنواع حسب المورد الذي يؤخذ منه : فهناك ذهب مياه وذهب جبال وذهب بلاد النوبة ، وكان غسيل الذهب والعمل في المناجم من أشق الأعمال ولذا كان الأسرى أو العبيد يقومون بها ويشرف عليهم الجنود ورؤساء البعثات - وقد لاقى المعدنون الكثير من الأهوال دون شك وأخطر هذه كانت ندرة المياه في الطرق المؤدية إلى المناجم ، وكثيراً ما كانوا يستنفدون الجزء الأكبر من طاقة الحمل عند الدواب في حمل المياه اللازمة لهم ولذلك نجد رعمسيس الثانى يفتخر بأنه نجح في حفر بئر في الصحراء حيث أخفق والده سبتى الأول في مثل هذا العمل ، كذلك بلغ الاهتمام بالذهب أن عملت التخطيطات والرسوم التى تبين مواقع مناجمه فقد عثر على بردية من عهد سبتى الأول رسم بها تخطيط لموقع مناجم الذهب فى وادى مياه ، وتعد هذه أقدم خريطة فى العالم .

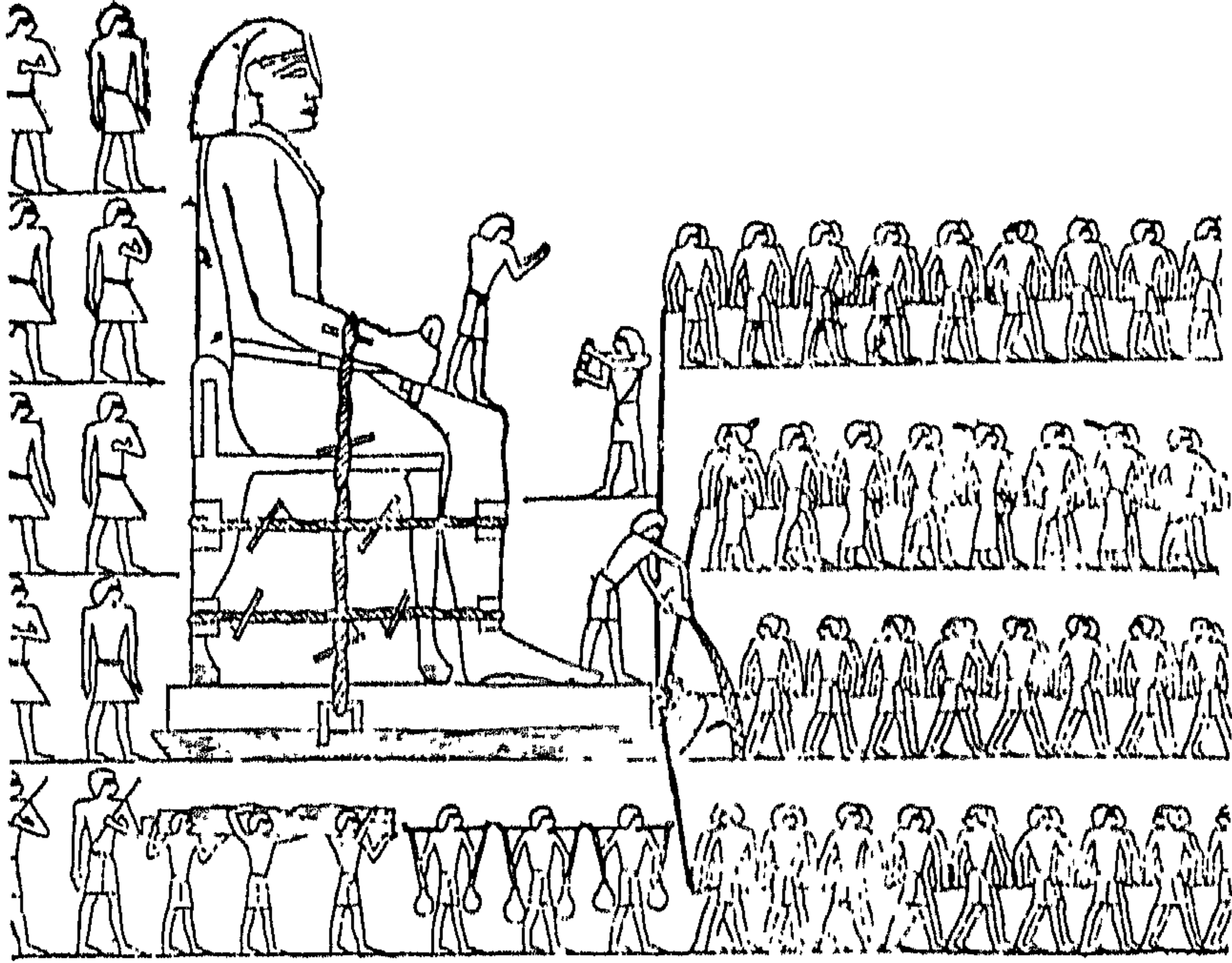
وقد عرف الحديد منذ العصر الباكر ولكنه لم يستعمل فى الصناعة إلا فى عهد الدولة الحديثة وربما كانت صعوبة الحصول عليه هى السبب التى جعلت استخدامه عسيراً - وقد قصر استعماله على رؤوس السهام وبعض أدوات القتال .

(٧) الأحجار - كانت الأحجار التى استخدمها المصرى كثيرة متعددة ، ويعد الحجر الجيرى الحجر الخالد فى حياة المصرى إذ بنيت منه المعابد والمقابر والهياكل المختلفة كما نحتت منه التماثيل وصنعت منه الأواني واللوحات وغيرها - واستخدم الصوان منذ أقدم العصور فى صنع الأدوات والأسلحة ، أما المرمر فقد استخدم فى البناء وصناعة الأواني واستخدم الحجر

الرملي في البناء، ولشدة صلابته استخدم كذلك في صناعة التماثيل - وكان الجرانيت من الاحجار العظيمة الالهية لانه كان الحجر الفخم الذي زينت به المعابد وعملت منه المسلات والتماثيل والاثواني، وكثيرا ما كان يستخدم في تكسية الجدران في المباني الهامة .

وقد استغلت المحاجر الموجودة في أماكن متعددة من القطر مثل طره وساسلة وحمامات وأسوان وحتتوب - وكان نقل الاحجار من هذه المحاجر يتطلب جهداً وعناية فائقتين، وكان الموظفون المنوط بهم نقل هذه الاحجار يصلون إلى مراتب رفيعة ويعتبرون الاشراف على نقل الاحجار من القاب الشرف الكبيرة التي يعتزون بها - وكانت البعثات المكلفة بنقل الاحجار ضخمة العدد، فمثلا نعلم أن بعثة قامت لهذا الغرض في عهد رمسيس الرابع كانت تتألف من ١١٠ ضابط من مختلف الرتب و ٥٠ من الموظفين المدنيين و ١٣٠ من البنائين و مصوران و ٤ نقاشين و ٣ رؤساء مبانى ومشرف على الفنانين و ٥٠٠ جندي عادي و ٢٠٠ جندي من صيادي السمك للبلاط و ٨٠٠ رجل من الفرق المساعدة السورية و ٢٠٠٠ من عبيد المعابد ويراقب سلوك هؤلاء ٥٠ من رجال الشرطة أى أن البعثة كانت حوالى ٨٠٠٠ رجل - وكان الاسرى الاجناب يقومون بعملية النقل وهي عملية شاقة عسيرة وخاصة عند نقل الاحجار الضخمة، وقد وضحتنا بعض النقوش وخير مثال لذلك نقش فى إحدى مقابر من الدولة الوسطى يبين كيفية نقل تماثيل تحوت حتب أمير البرشة (شكل ٢٠) .

وقد تفنن المصري فى صنائه الاوانى من الحجر واستخدم فى ذلك الاحجار الصلبة الجميلة التسكويينات ، وكثيرا ما كان المصري يقوم بتطع



شكل (٢٠) : منظر في مقبرة بالبرشة

يمثل نقل تماثيل ضخم

الأحجار الثمينة ، السكرية ونصف السكرية ، مثل الزمرد والاماتيسيت
وغيرها من محاجر خاصة .

المواصلات والتجارة :

أشرنا فيما سبق إلى أن النيل هو أهم مظهر في الحياة المصرية فهو
الذي يسر الاتصال بين أجزاء البلاد المختلفة وقد استخدم المصريون للتنقل
فيه زوارق صغيرة من سبستان البردي تدفعها مرادى ذات شوكتين ،

وهذه الزوارق عبارة عن حزم من البردى شد بعضها إلى بعض توضع في وسطها كتلة من الخشب أو تفرش بالحصير - أما السفن الكبيرة فكانت تصنع من الخشب وتزود بمجاديف ، وقد وجدت صورها منذ أقدم العصور على الأواني الفخارية وعلى جدران إحدى المقابر في هيراكوبوليس من عصر ما قبل الأسرات وكانت تزود بشرع مربع الشكل أو مستطيل يثبت إلى الساري بعوارض مستقيمة - وقد تقدمت صناعة السفن واختلفت أشكالها ولسكنها كانت على العموم تزود بقمرتين ، وكان ارتفاعها في مؤخرتها كارتفاعها في مقدمتها وذلك لكي يسهل تزويد من يدفعها بالمرادى بسند جيد يدفعها منه أو ليكون كدعامة لتدعيم مكان المجذاف الطويل الذي يقوم مكان السكان .

وإذا ما تأملنا خريطة القطر المصري أوجدنا أن النيل يمتد من الجنوب إلى الشمال في اتجاه مستقيم - وكان المصريون يلزمون النهر ، أى أنهم كانوا موزعين على جانبيه باستثناء الدلتا التي كثرت بها المستنقعات فكانت الحركة في النهر من الشمال إلى الجنوب تتطلب استخدام الشراع الذي تدفعه الرياح التجارية الشمالية الشرقية السائدة بينما كان تيار النهر كافيا لدفع السفن من الجنوب إلى الشمال ، وفي هذه الحالة كان من الممكن إناخة الصاري ونزع العوارض التي يثبت بها الشراع ثم يلف الشراع ويطوى .

وفي الدولة القديمة كانت السفن تختلف في الأشكال والغرض التي تستعمل من أجله فمنها السفن العريضة وسفن تجر غيرها أو سفن يجرها غيرها - وكان للسفن الفسخرة قمره كبيرة لا يسمح معها بوجود الشراع ، كذلك لم تكن سفن الشحن مزودة بتممرات إذ كان كل فراغ يستغل

فيها للنقولات- وكانت هناك قوارب خفيفة للشحن يديرها ملاح واحد وهي لنقل الأثقال الخفيفة ، وكانت غالبا تتبع سفينة الشريف وحاشيته كقوارب الزاد مثلا - ومن الشائع جر السفن باللبان (الحبل) الذي كان يربط إلى قائم في مقدمة المركب، وكانت مراكب الشحن الكبيرة التي تنقل الأثقال الضخمة لا تستعمل الشراع أو المجاديف بل كان يجرها الرجال أو تجرها سفن أخرى ومثل هذه السفن المعدة للنقل كانت تنقل الأحجار في كافة عصور التاريخ .

وقد تطورت السفن في أشكالها تطورا عظيما في عهد الدولتين الوسطى والحديثة وازدهرت بكثير من الزخارف وخاصة سفن الرحلات والحملات البحرية التي تميزت عن سفن النيل في بنائها نظراً لما كانت تتعرض له في أسفارها الطويلة - وقد أشارت بعض الأساطير والقصص إلى ما كان يتعرض له المسافرين في البحر من المخاطر ومن أمثلة ذلك قصة الملاح الغريق .

أما المواصلات البرية : فكانت أقل شأنا من مواصلات النهر وذلك لأنها لم تكن وسيلة مجدية أو اقتصادية في نقل البضائع الكبيرة الحجم و العظيمة الوزن ولهذا ظلت دون تطور يذكر - وقد استخدم الإشراف في تنقلاتهم محفلات هي عبارة عن مقاعد يمكن حملها والشريف جالس فيها ، وكانت تزود أحيانا بمظلة وكثيرا ما نجد أن المحفة كانت توضع فوق حمارين متجاورين (شكل ٢١) ، أو يحملها بعض الرجال - وكان الحمار أحسن وسائل النقل الشعبية ، ومع هذا لم يمثل المصري وهو يركب الحمار ولسكننا نشاهد هذا الحيوان في النقوش وهو ينقل الحاصلات الزراعية وما شابهها - ولضخامة الدور الذي يقوم به هذا الحيوان في مصر القديمة قال بعض العلماء أن الحضارة المصرية بأكملها قامت على ظهر الحمار

فهو الذى ساهم بجهوده فى كافة الاعمال التى هيات هذه الحضارة .

وفى الدولة الحديثة أبطلت المحنة والحرار وإن ظلت المحفة تستخدم فى الحفلات فقط أو فى مناسبات خاصة ، وقد استعويض عن ذلك باستخدام



شكل (٢١) : نزيل على محنة يحملها حماران

المركبات - ولم يستعمل الحصان وحده إلا فى بعض الحالات الضرورية الملحة لأننا لم نثر إلا على أمثلة نادرة لنقوش تصور إنسانا وهو يركب الحصان ، وربما كان ذلك فى حالة قهرية كفرار من معركة حربية أو لمهمة سريعة كطلب نجدة أو غيرها .

ويغلب عل الظن أن عربات ضخمة تجرها الثيران كانت تستخدم لنقل الزاد والامتعة لعمال المناجم ، أما المركبات فكانت غالبا للسفر والصيد والحرب .

ولا ينبغي أن يتبادر إلى الذهن بأن الاتصال كان ميسرا دائما ، ولا يصح أن نفهم بأن المصرى كان كثير التثقل إذ يبدو أن الرحلات كانت قاصرة على نطاق ضيق فكان كل إقليم يتصل بجيرانه مباشرة ولكن إلى جانب

ذلك كان البيت المالك يعمل على تيسير الاتصال بالاقطار المجاورة ويشجع هذا الاتصال كما أن الحاجة الملحة إلى بعض المواد الخام كانت تضطر فئات خاصة من السكان إلى القيام بدور الوسيط التجارى بين البيت المالك وبين الاقطار المجاورة لمصر وخاصة فى الجنوب ، ومن أمثلة ذلك أمراء اليفاتيين الذين قاموا برحلات محفوفة بالمخاطر لكي يتبادلوا التجارة مع أهل البلاد الجتوية وليحصلوا للفراغة على الحاصلات التي يرغبونها ويقدرونها وكان من أثر هذا أن عظم شأن هؤلاء الأمراء وأصبحوا يتمتعون بنفوذ كبير فلم يخضعوا إلا للملك مباشرة ، وكانوا يذهبون إلى منف للاستماع إلى أوامر الملك قبل القيام بأية رحلة أى أنهم كانوا يتلقون تعليماتهم منه مباشرة - كذلك كان أرز لبنان من العوامل التي شجعت المصريين على المخاطرة بالذهاب إلى شرق البحر المتوسط ، وقد شجع هذا على غزو تلك الاقطار فى الدولة الحديثة .

وإذا كنا قد ذكرنا بأن الاتصال لم يكن نشيطا إلا بين الاقاليم المنجاورة وأن المصرى لم يتصل بالاقطار الاجنبية إلا للحصول على سلعها المختلفة ، أى أن هذا الاتصال حددته عوامل سياسية واقتصادية مختلفة فإننا من جهة أخرى نرى بأن الاتصال بالرسائل والمكاتبات كان أكثر نشاطا - ويبدو أنه لبعد المسافات وجدت طائفة من الرسل الذين كانوا فى خدمة الخاصة من الشعب حيث يشير أحدهم فى رده لأحد زملائه بأن غلامه لم يصل بعد ، وتشير إحدى المكاتبات إلى أن الغلام اضطر لتخفيف حمله فألقى ببعض الحاجيات أو تخلص منها أى أنه كان هناك اتصال ثابت مستمر ورسل منتظمون - ولاندرى هل كان هؤلاء الرسل

موظفين أو أن مثل هذه الوظيفة لم يكن لها وجود ، وعلى أى حال إذا كانت هذه قد وجدت ضمن وظائف الدولة فإن ذلك لم يحدث إلا في عصر متأخر - وكان الرسل عادة يحملون بعض الهدايا والسلع الخفيفة ولما كانت البيئة المصرية تشابه في معظم جهاتها فإن الفرصة للتبادل التجارى على نطاق واسع لم تكن ميسورة ، وعلى هذا كانت التجارة الداخلية ضعيفة لتشابه الحاصلات بين إقليمي وآخر وليس كما يظن بعض الاثريين بأن صعوبة المواصلات هي التي حالت دون ازدياد النشاط التجارى .

التجارة والتجار :

أخطأ بعض الاثريين ومن بينهم إرمان Erman في الزعم بعدم وجود ذكر للتجار في النصوص المصرية لأننا نعلم بأن الرحالة في الدولة القديمة كانوا يذهبون إلى النوبة للتبادل التجارى ولا يغير قيامهم بهذا العمل لحساب الملك من حتمية أنهم كانوا تجاراً ، كذلك تشير قصة الملاح الغريق إلى أنه كان هو الآخر يقوم برحلته للتجارة ، وقصة الفلاح الفصيح تدل هي الأخرى على أنه كان يتاجر في بعض سلع وادى النطرون ، ولا تخرج رحلة بونت التي حدثت في عهد حتشبسوت عن كونها رحلة تجارية قامت بها بعثة ملكية - ولكن رغم هذا لم يكن للتجار كيان واضح في النصوص المصرية .

والغريب أن التبادل التجارى في الأسواق المحلية كان يتم عن طريق المقايضة وقد ظهرت له صور في عهد الدولة القديمة أما في الدولة الوسطى فلم توجد أمثال تلك الصور ، وفي الدولة الحديثة تعود صور المقايضات إلى الظهور ولكنها كانت تحدث في الموانئ الكبيرة بجوار مكان رسو السفن .

ومن الطبيعي أن المقايضة لم تحدث دون الاصطلاح على أساس وحدة للقيمة ، وهذه الوحدة وإن لم تكن موجودة من الناحية العملية فإن الأشياء كانت تقدر بالنسبة لها من الناحية النظرية - وعلى هذا يمكن القول بأن أساس (سعر) المقايضة كان ثابتا ، والوحدة التي شاع استعمالها عرفت باسم « دين » وهي تساوى ٩١ جراما من النحاس فكان الثور مثلا يقدر بنحو ١٢٠ دينا والحمار بنحو ٤٠ دينا أى أنه كان من الممكن مقايضة الثور نظير ثلاثة حمير .

وكانت الحاصلات التي يرغب فيها المصري من الأقطار الأجنبية هي القردة وخشب الأبنوس والعاج وجلود الفهود وهي تأتي من النوبة وهنا نلاحظ أن البفانتين التي كانت تمثل إحدى مدينتي الحدود بين مصر والنوبة كان يطلق عليهما اسم « أبو » أى العاج أما المدينة الثانية فهي « سونت » أى « السوق » وهي أسوان الحالية ومن موارد النوبة الأخرى العبيد والذهب والحيوانات والخشب وريش النعام - وكان المصري يأتي بالنحاس من مناجم سيناء كما يجلب الأحجار من محاجر وادي حمامات والأحجار الثمينة ونصف الكريمة من الصحراء الشرقية ، أما بلاد بونت فكان يأتي منها البخور - ويأتي من البلاد الشمالية مثل لبنان بالارز والأسلحة ، وكان بدو فلسطين يجلبون السكحل والعطور إلى مصر وكذلك الوعول - ومنذ عهد الدولة الحديثة وردت المنتجات السورية إلى مصر بكثرة كما كانت مصر ترسل الذهب إلى الملوك الموالين لها .

العلوم والآداب

عرف المصري بحبه للعلوم وتقديره لها وكان ينظر إلى مركز العالم أو الكاتب نظرته إلى الشخص المحترم الذي يحكم بنفسه أما من عداه من الطبقات الأخرى فكان يحكمه غيره ، وربما كان هذا التقدير راجعاً إلى عظم شأن الكتاب حيث كانوا يرتفعون سريعاً ويتقدمون أعظم المناصب وأرفعها - ويقول أحد الكتاب في ذلك أن الرجل المحفوظ هو الذي يضع العلم في قلبه ، وعند مناقشته لمهنة الكتابة فضلها عن كل ما عداها من المهن الأخرى وذكر بأن الكاتب قد يصبح أميراً حكيماً - وكان المصري يعتقد بأن الكاتب يصل إلى الإله تحوت الذي بهبه العلم وينير له السبيل ولذا كان الكاتب إذا ما وصل إلى مرحلة حاسمة في حياته يقوم بعمل تمثال لنفسه وهو يكتب أمام تمثال لهذا الإله .

وإذا ما أردنا أن نتعرف السبيل الذي كان يسلكه المصري في التعلم فإننا نلاحظ أن بيوت التعليم أو المدارس كانت في أول الأمر تلحق بالبلاط وكان يتعلم فيها الأمراء والنبلاء ويندمج معهم بعض أفراد عامة الشعب أيضاً - أما في الدولة الحديثة فكانت المدارس تلحق بمختلف أقسام الحكومة ، وعلى ذلك كال التلاميذ في هذه الأقسام يتمثلون في طائفتين : طائفة العسبية وطائفة المرؤوسين - وقد يغير التلميذ اتجاهه بعد أداء الخدمة العسكرية فشلا كان «باك أن خنسو» رئيساً للاسطبلات الملكية قبل أن يصبح كبيراً للسكينة أى أنه في سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة كان رئيساً للاسطبلات ثم تحول بعد ذلك لدراسة اللاهوت .

وكان النظام المدرسى عنيفا قاسيا والدراسة تنتهى فى منتصف النهار تقريبا وكان من المعتاد أن تذهب الأم بطعام ولدها إلى المدرسة ، وهو يتألف غالبا من إناءين من الجمعة تحضرها الأم من المنزل ، ومن مبادئ التربية فى ذلك العهد أن « أذنا الطفل على ظهره لا يسمع إلا إذا قرع عليهما » ، ومن هذه المبادئ أيضا أن « الإنسان استطاع أن يستأنس الحيوان ويخضعه فحيوان « كاروى » الذى استقدم من النوبة تعلم فهم اللغة والأسود أمكن تعليمها وترويضها والخيال استؤنست وذلت والصقور تعلمت فلماذا لا يتعلم الكاتب الشاب الصغير بنفس هذه الطريقة ؟ ، أى أن العنف والشدة كانا يستخدمان فى التعليم وكثيراً ما نجد فى البرديات المختلفة تكراراً للتنبيهات التى يجب على الشباب مراعاتها فى مهنته ككاتب ، وفى السكراسات التى عثر عليها والتى كان يكتب فيها التلاميذ نسخت قواعد الحكمة والسلوك من نماذج قديمة وهى فى صورة توجيهات من حكيم قديم أو خطابات من أستاذ إلى تلميذه .

أما الأدوات المستعملة فى الكتابة فكانت عبارة عن أقلام من البوص تبرى أطرافها ، وكان لا بد للكاتب من أقلام احتياطية يضعها خاف أذنه أما الألواح فكانت عبارة عن ألواح من الخشب تغطى بطبقة رقيقة مصتولة من الجص يسهل محو الكتابة منها - ولم يستعمل البردى إلا الكتبة المتمرنين ، هذا وكان الكتاب يستعملون لوحة بها قدحان صغيران للحبر الأسود والأحمر وبقيّة اللوحة عبارة عن صندوق أنبوبى لوضع الأقلام ويضاف إلى ذلك قدح للباء ، وكان الكاتب المتدين يصب بعض هذا الماء كقربان للإله تحوت قبل البدء فى الكتابة .

وكان التلاميذ يهتمون اهتماما بالغاً بهكراساتهم وكانت تدفن معهم وقد احترم المصري الكتابة وقدسها واعتبرها أساس كل تعليم وثقافة وأنها من اختراع الإله تحوت الذى علمها للمصريين .

وكانت الكتابة فى بداية أمرها تصويرية بحتة ، أى أن المصرى كان يعبر عن الأشياء المرئية بصورتها ، ولهذا كان من الصعب التعبير عن الأشياء غير المرئية أو عن الأفعال والحروف والظروف - ثم أمكن التعبير عن المعنى المراد برسم الرمز الذى ينفق فى النطاق مع المعنى المقصود مع إضافة مخصص يبين نوع المعنى المراد - وتلى ذلك تطور آخر هو استعمال الرمز كجزء من الكلمة وبذلك ظهرت الكتابة المقطعية ، وهذا يدل على أن الكتابة بدأت تتخذ شكلاً يقرب من الكمال حيث توصلوا من هذه الخطوة إلى اختراع الهجائية - ومع ذلك لم يستعمل المصريون الهجائية وحدها بل كانوا يكتبون بالرموز فى كل وظائفها السابقة ، بل وكان شكل الكتابة نفسها يختلف على حسب الحاجة وعلى حسب المادة التى كتبت عليها فكانت الهيروغليفية - وهى أول صورة للكتابة - تكتب على جدران المعابد والمقابر وفى اللوحات أى أنها كانت كتابة زخرفية وتتفق مع طابع الفن المصرى القديم الذى ظل مرتبطاً بها حتى نهاية العصور الفرعونية فكانت أشكال الأشخاص والمخلوقات الأخرى يعبر عنها فى النقوش والتماثيل بصورة مماثلة لما تظهر به فى هذه الكتابة .

ومنذ الدولة القديمة وجد المصرى أن كتابة الهيروغليفية تستغرق وقتاً وجهداً كبيرين كما أنها تشغل حيزاً لا يستهان به فاجأ إلى استعمال كتابة مختصرة ، أى أنه اختصر الرموز الهيروغليفية إلى أشكال أكثر بساطة ليوفر

الجهد والمساحة اللازمين واستعملت هذه الكتابة الجديدة المختصرة في كتابة الأدبيات وفي الدواوين وفي المعاملات وما أشبه ذلك ، وتعرف هذه باسم الهيروغليفية - ولما تعقدت مطالب الحياة وانتشرت المعاملات التجارية وغيرها وازدهرت الحضارة وتطورت في عهد الدولة الحديثة وما بعدها ظهرت كتابة أخرى مختصرة عن الهيروغليفية وهى شديدة الاختزال ، استعملها العامة في معاملاتهم وكتبت بها بعض البرديات القانونية والأدبية ، وهذه هى الكتابة الديوطيمية التى ظهرت على الأرجح في بداية العصر المتأخر من مصر الفرعونية - وفي نفس الوقت تقريبا أو بعده بقليل استعمل المصري كتابة جديدة أخرى هى الكتابة القبطية ، وربما كان ذلك للرغبة في التيسير على الجنود المرتزقة اليونانيين الذين وفدوا بكثرة على البلاد ، فقد كتبت هذه الكتابة بحروف يونانية مع إضافة سبعة أحرف لاستكمال الهجائية اليونانية بما يفي بنطق سائر الأصوات السامية - وبالطبع يعتبر إطلاق لفظ اللغة القبطية على هذه الكتابة تجاوزا ، فهى لغة مصرية كتبت بحروف يونانية وحروف أخرى أضيفت إليها مع إدخال بعض ألفاظ قليلة من اليونانية ،

وعلى إثر ظهور الكتابة تقدمت العلوم والفنون بالطبع وظهرت النظريات الفلسفية العميقة في اللاهوت وفي الديانة ، كما أن من المرجح أن الكتابة ساعدت أيضا على اختراع التقويم وإن كان من المحتمل جداً بأن المصري قد توصل إلى تقسيم السنة إلى فصول قبل معرفته للكتابة ولكنه لم يضع الاسس الثابتة لهذا التقسيم إلا بعد أن عرفها - وكانت السنة المصرية تبدأ في التاسع عشر من شهر يوليو أي أن هذا اليوم

كان يمثل رأس السنة بالنسبة للمصريين وقد عرف هذا بحلول الفيضان في مثل هذا الموعد من كل عام وهو ما كان يتفق كثيرا مع ظهور نجم الشعرى اليمانية الذى يعاود ظهوره كل ٣٦٥ يوما، فقسم المصري السنة إلى اثني عشر شهرا كل منها ثلاثين يوما وأضاف إليها في النهاية خمسة أيام أطلق عليها اسم الشهر الصغير كما قسم السنة إلى ثلاثة فصول هي فصل الفيضان وفصل الزرع وفصل الحصاد (أو الجفاف)، وقسم اليوم إلى ساعات الليل وساعات النهار - وتوصل إلى معرفة ساعات النهار بقياس الظل على سطوح مستوية أى عرف ما يشبه المزولة، كما وجدت لديه ساعات مائية لقياس الزمن في الليل غالبا، وهذه كانت عبارة عن أواني مملوءة بالماء الذى ينظم تصريفه منها بحيث تفرغ محتويات الإناء في اثني عشرة ساعة - كذلك قسم الليل إلى اثني عشرة ساعة ورصد الكواكب التى تظهر في تلك الساعات وسمى بعض النجوم بأسمائها أو على العكس سسمى الساعات بأسماء النجوم التى تظهر فيها . وقد اعتقد المصري بوجود أيام سميدة وأخرى منحوسة وأشار إلى ذلك كثيرا في النصوص، كما أنه كان يعتقد بأن من يولد في أيام معينة يصاب بأمراض معينة وهكذا لجأ إلى السحر واعتقد في قوته ونفعه، وكان من أثر هذا أيضا أن اختلط السحر بالطب فلم يخل الطب من السحر في معظم الأحيان حتى أصبح في واقع الأمر مزيجا من التعاويذ والطب العملى .

وقد وردت لنا أسماء بعض مشاهير الأطباء ولكن إذا ما تأملنا وظائف هؤلاء نجد أنهم كانوا يجمعون بين البيطريين والبشرى والسحرة في نفس الوقت، ومع كل كان الطب يسير على أساس سليم لأن المصري اهتم كل الاهتمام بتشخيص المرض حيث كان يرى أن العلاج الناجح لا يمكن، منه إلا معرفة الداء تماما - وقد وصل إلى درجة رفيعة في علم التشريح وربما كانت معرفته للتخنيط

السبب في نجاحه الذي أحرزه في هذا المضمار - أما العقاقير فكانت في غالبيتها نباتية والقليل منها من أصل حيواني، وكثيراً ما نجد من بين هذه العقاقير ما تعافه النفس وتشمئز منه ولا ندرى سبباً لاختيار المواد التي كانت تتركب منها العقاقير وربما كان معظم هذا الاختيار مبني على أصل خرافي إذ كثيراً ما نجد أن من بين هذه المواد ما لا يمكن أن نتخيل استعماله لبشاعته .

أما في الرياضيات فقد وصل المصري إلى نتائج عظيمة في المتايدس والمساحة والحساب وإن كان قد توصل إلى هذه النتائج بطريقة ساذجة فثلاً في عماليات الضرب والقسمة كان يسير خطوة خطوة بطريقة بدائية فثلاً عند ضرب 8×5 يصل إلى النتيجة باحتساب تكرار العدد ثمانية من مرة واحدة إلى خمس مرات .

أما في حالة القسمة فإنه كان يتساءل عن المقدار الذي إذا ضرب في المقسوم عليه ينتج العدد المقسوم ، أي أنهم يهلون إلى خارج القسمة بضرب المقسوم عليه في أعداد صغيرة محاولين الوصول إلى خارج القسمة من جمع الأرقام الصغيرة التي تقابل في المجموع العدد المقسوم .

أما في الأدب فإن من الممكن القول بأن الكثير من أدبنا الشعبي الحديث يرجع في أصله إلى الأدب المصري القديم ، وكثيراً ما نجد أن التشابه شديد بين قصصنا الشعبي الحديث وبين القصص في الدولة الوسطى فثلاً قصة الملاح الغريق التي تذكر بأن ملاحاً كان راحلاً في بعثة تجارية كسر قاربه وتعلق بقطعة من الخشب ووصل إلى جزيرة خالية من السكان كانت تسكنها حية ضخمة حملته إلى المكان الذي تعيش فيه - وقد ذكر بأن

هذه الحية كانت إلهة الجزيرة وقد أخبرته بأنها هي الأخرى قد نجت وحدها من شهاب سقط على الجزيرة فأحرق كل أقاربها وإخوتها ، ويسترسى في قصته فيذكر بأنه عاش فترة على هذه الجزيرة الى أن جاء قارب حمله الى مصر وهو يحمل بهدايا كثيرة من الجزيرة - وبعد أن صعد الى القارب الذى أخذه الى مصر اختفت الجزيرة ، فهذه القصة اذن تشبه إحدى قصص السندباد البحرى - ومن القصص فى الأدب المصرى القديم ما يشير الى سوء الحالة السياسية فى بعض الاوقات أو الى حدوث بعض أحداث تاريخية هامة مثل قصة الفلاح الفصيح التى تبين كيف أن بعض الحكام كانوا طغاة مستبدين وأن بعض الأسراء والمملوك نفسه كانوا يميلون الى الأدب الجيد حتى أنهم تعمّدوا إهمال هذا الفلاح ليسكثر من شكواه فيتمتعوا بسماع الجيد من الكلام ، وبعد هذا جازاه الملك وأكرمه ورد اليه حقوقه - وتشير قصة سنوحى الى فراره من مصر ولكنها لا تبين السبب الذى من أجله ترك البلاد ، إلا أنه يبدو من سياق القصة بأنه كان من عنصر مناوىء لسنوسرت الأول حينما كان ولياً للعهد فلما تولى هذا على العرش خشى سنوحى على نفسه وفر الى فلسطين - ويبين ذلك مقدار ما كان يحدث فى البلاط من مؤامرات ودسائس ، كما أن إكرام بدو فلسطين لسنوحى يدل على أن البدو كانوا يكتنون الاحترام للمصريين - وفى الدولة الحديثة نجد بعض القصص التى يظهر فيها الخيال بشكل واضح ويعكس صورة من أحداث التاريخ فى العصور القديمة ، فمثلاً قصة خوفو والساحر ددى التى تشير الى أن ملوكاً من سلالة رع سيعتلون العرش بعد أن يحكم خوفو وولده وحفيده ، وهذه القصة تدل على أن الملك قد انتقل من الأسرة الرابعة الى ملوك الأسرة الخامسة الذين كانوا من أصل ينتمى الى الإله رع أو من السمكة - ومن بين القصص المشهورة

أيضا قصة الأمير ذو المصير المحتوم التي تذكر بأن ملكا كان لاينجب أبناء فطلب إلى الآلهة أن تمنحه ولدا فاستجابت هذه لدعائه ولكن كان مقدرا لهذا الأمير أن يموت بلدغة ثعبان أو يأكله تمساح أو يقضى عليه كلب وتبين القصة كيف أنه نجى من التمساح ولكن القصة مع الأسف لم تكمل فلا ندرى هل لدغه ثعبان أو قضى عليه كلب - وفي قصة أخرى يتمثل إخلاص شقيق لشقيقه وإفساد زوجة الشقيق الأكبر للعلاقة بين الشقيقين وهذه القصة المعروفة بقصة الأخوين وهي قصة من النوع الخرافي العميق ربما كانت قد تأثرت بقصة أوزوريس .

ولم يتناول الأدب المصرى القصص والأساطير فحسب وإنما نجد فيه الكثير من المتنوعات ففيه النقد وفيه الحكم وفيه الأغاني والأناشيد الدينية وغير الدينية وأناشيد النصر والملاحم وأغاني الشراب والحب وغير ذلك .

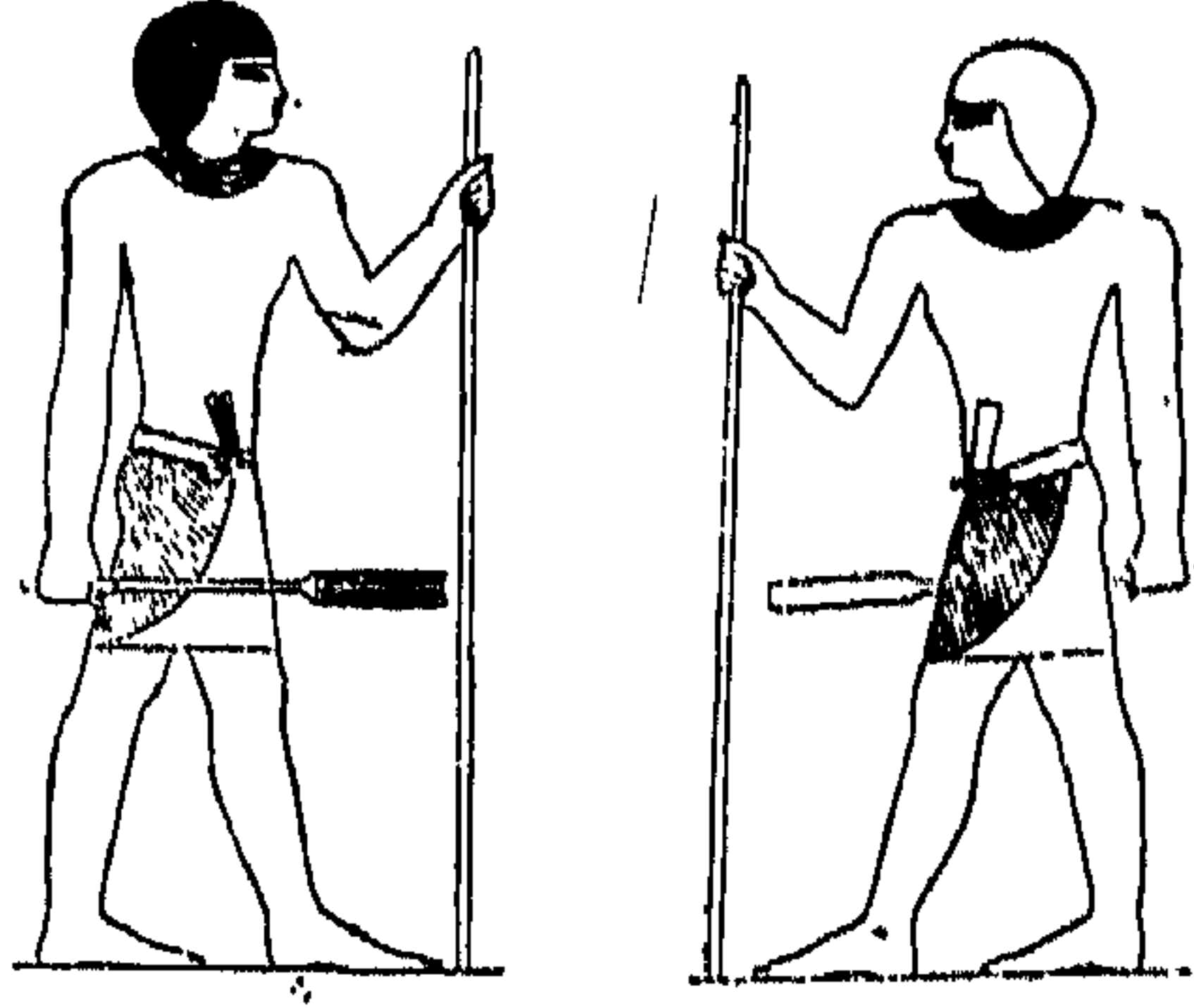
الفنون

وإذا ما تحدثنا عن الفن عند المصرى القديم فإن أبرز الفنون التي أبدعها تتمثل في الرسم والنقش والتصوير والنحت . وهذه كلها خضعت لقانون الاتجاهات المستقيمة التي سبقت الإشارة إليه عند الحديث في المقدمة عن أثر البيئة المصرية .

هذا وقد خضع الفن المصرى في هذه الأمور إلى أصول وقواعد لم يحد عنها إلا قليلا طوال عصوره الفرعونية - ومهما قيل عن اختلاف المدارس الفنية في مصر فإننا نلاحظ أنها جميعا خضعت لتلك القواعد والتقاليد المرعية ، ففي النقش والرسم والتصوير نجد أن صور الانسان

تتميز بانها تجعل الرأس ينظر من الجانب والكتفين من الامام أما بقية أجزاء الجسم فتتظر من الجانب كذلك. (أنظر أشكال الأشخاص التي وردت في هذا الكتاب).

وفي المآظر التي تركها الفنان المصري أخطاء كثيرة يبدو أنه تعمد لها محافظة منه على التقاليد الموروثة أو لغرض ديني خاص إذ نجد أن الوجه وإن كان يرسم من الجانب فإن العين ترسم من الامام ، كذلك كان الكتفان يرسمان من الامام بينما يرسم الصدر من الجانب - أما الأيدي فت رسم بعرضها الكامل من سطحها الخارجى فتبدو فى أمثلة كثيرة وكأن الكتفين يمثلان كف اليد اليمنى أو اليسرى فقط . كذلك نجد أن الاقدام ترسم من الجانب بحيث يظهر لمبهام أصابع القدم فى كل منها دون بقية الأصابع فكان للشخص قدماان أيسران أو أيمنان مع أن الفنان كثيرا ما كان ينجح فى بيان اختلاف الساقين - ومن القواعد التي اتبعها الفنان المصري كذلك أنه كان يرسم الشخص الذى يمد ساقه اليسرى إلى الامام مثلا بحيث تظهر ذراعه اليسرى ممتدة كذلك وعلى العكس إذا ما أريد تمثيل شخص ممد ساقه اليمنى فإنه يمد الذراع اليمنى معها أيضا (أنظر شكل ١١) وهذا الوضع غير الطبيعى الذى يتنافى مع الحركة الانسانية قصد منه الفنان بالطبع أن يبرز أعضاء الجسم واضحة - وقد اعتاد المصري كذلك أن يمثل الأشخاص وهم يتجهون إلى اليمين أى أن القدم اليسرى والذراع اليسرى إلى الامام فاذا ما اضطرت الظروف إلى رسم شخص يتجه إلى اليسار فإنه يقع فى بعض الارتباكات الفنية كأن يقلب جانب الازار الذى يلبسه الشخص أو أن يجعل اليد اليمنى تقبض على العصا الطويلة بينما تقبض اليد اليسرى على العصا القصيرة (شكل ٢٢) ، كذلك كان



شكل (٢٢) : يبين خطأ الفنان (إلى اليمين) عند خروجه
على الوضع التقليدى للرسم

الفنان يحرص على إبراز الاشكال من أخص مظاهرها المميزة وبذلك
كان الشكل الواحد فى الصورة يرسم بحيث يبدو وكأنه أخذ من جهات
نظر مختلفة لا كما تقتضى قواعد الرسم المنظور - فرائد الفنان فى هذا أن
تكون الصورة واضحة تعطى فكرة تامة عن الشكل المراد رسمه ، أى يرسم
الشخص كما قلنا ورأسه من الجانب والكتفين من الامام وهكذا - وإذا أريد
رسم سمكة فإنها ترسم وكأنها واقفة على جانبها ، كما أن الفنان كان يعتنى
بتظيم أجزاء مناظره ومفرداتها بحيث يرى كل شكل من الاشكال
وكانه مستقل عن غيره فلا يخفى أحد تلك الاشكال شكلا آخر
أو جزءا كبيرا منه ، وإذا ما أريد ترتيب عدد من المناظر فإنها كانت تنظم
فى صفوف متتالية بعضها فوق بعض وتفصلها خطوط مستقيمة سميكة
يمثل كل منها مستوى الأرض - ورغم أن المصرى لم يتقيد فى صورته
ونقوشه بقواعد المنظور إلا أنه بلغ الذروة فى طريقتة الخاصة وأن
الفنان رغم إدراكه بوضع الأشياء معا يجعل بعضها يخفى ما وراءه

كما أن الأشياء البعيدة تبدو أصغر حجماً إلا أنه راعى في نقوشه وصوره أن يمثل الأشياء على حقيقتها وعلى أوضح ما تكون دون اعتبار لما يظهر أو يختفى منها لعين الراى وربما كان مرجع هذا إلى اهتمام المصرى بعقيدة البعث وبأن تلك الأشياء المرسومة تتحول إلى أشياء حقيقية عند تلاوة التعاويذ أو عند البعث ولذلك حتمت التقاليد أن تكون هذه الصور أقرب إلى أصلها الحقيقى ، فإذا أراد المصرى أن يرسم مثلاً مائدة قرابين وعليها بعض المأكولات فإنه كان يمثل تلك المأكولات كاملة على المائدة ، وإذا ما كانت بما يوضع فى أوانى فإن الآنية كانت ترسم بحيث تظهر محتوياتها فوقها أو فى داخلها دون مراعاة لعدم شفافية الإناء ودون مراعاة لقواعد الرسم - كذلك كان من الأصول المرعية أن يكون أهم الأشكال فى المنظر أكبرها حجماً ويتمثل هذا بصفة خاصة فى رسوم الأفراد إذ كان الشخص المهم يبين فى حجم أكبر ممن عداه من أشخاص آخرين فى نفس المنظر كصورة الملك أو النبيل مع أفراد عائلته أو بعض رجال حاشيته (شكل ٢٣)

وقد تنوعت موضوعات النقوش والرسوم وتناوت أغراضها شقى فرسم المصرى كل ما تمثله فى حياته وكان لكل عصر طراز فنى خاص رغم أن الفنانين التزموا قواعد الفن التى سبقت الإشارة إليها فى كل العصور . وكانت طريقة العمل فى النقش تماثل ذلك إلى حد كبير فى الرسوم كانوا يبدأون برسم الأشكال بتفاصيلها ثم يلوونها بالألوان المختلفة ولكن النقش كان يتميز عن الرسم بمرحلة متوسطة إذ كانت الأشكال المرسومة تحفر غائراً أو بارزاً قبل تلوينها أى أن النقش كان



شكل (٢٣) : منظر يمثل أحد النبلاء وحوله الأشخاص أصغر حجماً

على نوعين النقش البارز وهو الذى تزال فيه الاجزاء الخلفية أو المحيطة بالرسم بحيث تبرز الاشكال عن السطح الخلفى بضعة ملليمترات ، والنقش الغائر الذى كان يكتفى فيه بحفر السطح الداخلى للشكل ونحته بتفاصيله . ولا يختلف الغرض الذى تريخاه المصرى من التماثيل عن الغرض من الصور والنقوش فكلاهما كان يهدف الى أن تنقلب هذه التماثيل وتلك الصور الى أشكال حقيقية عند البعث - وعلى ذلك حرص الفنان على أن يجعل منها صوراً صادقة لما تمثاها حتى أنه لجأ الى توضيح عيون التماثيل والنقوش بحيث تحاكي الطبيعة ، فبياض العين كان من حجر أبيض (سرو أو مسمر) والقرنية من حجر البلور الشفاف وفى وسطه تحفر

بؤرة صغيرة تملأ بهادة سوداء لتمثيل انسان العين ولم تختلف التماثيل عن النقوش في خضوعها لقانون الاتجاهات المستقيمة ، أى أن التماثيل والنقوش المصرية كانت تعوزها الحركة بينما كانت التماثيل اليونانية كأنها صور أخذت من فيلم سينمائي ورغم هذا فإن المتأمل في كلا الفنان المصرى واليونانى يجد أن الأول يشعر الانسان بالوقار والعظمة والخلود أما الثانى فيشعر الانسان بالحياة كما هى - ويمكن تلخيص هذا فى أن الفنان المصرى أراد تمثيل الحياة كما ينبغى أن تكون بينما أراد الفنان اليونانى أن يصور الحياة الطبيعية كما هى .

ولا شك أن الفنان فى مصر لم يصل إلى غاية فنه دفعة واحدة أى أن صناعته للتماثيل مثلاً لم تكتمل منذ بداية العصور ، فالمحاولات الأولى تبين أن الفنان حتى عصر الأسرة الأولى لم يستطع أن يصور إنساناً خاصاً بل صور مجرد إنسان يمكن تمييزه عن الكائنات الأخرى ، وفى عصر الأسرة الثانية تقدمت صناعة التماثيل ولكن إذا ما نظرنا إلى أى تمثال منها فإننا نجد أن المادة المصنوع منها التمثال ، تسترعى انتباهنا أكثر من الانتباه الذى نوجهه إلى الانسان المصنوع له التمثال ، أى أن المادة نفسها التى صنع منها التمثال كانت تتغلب على الفكرة - وفى آخر عهد هذه الأسرة قربت الفكرة أكثر من ذى قبل أى بدأ التمثال يسترعى انتباهنا كمثال لشخص معين - ومنذ ذلك الحين ارتقت صناعة التماثيل واكتملت الأصول الفنية ولكن كان لكل عصر مميزات الخاصة كما سبقت الإشارة إلى ذلك - فإذا ما أخذنا تماثيل الملوك فإننا نجدها فى الدولة القديمة تتميز بالوقار والعظمة وتشعر الرأى بأنه أمام قطعة تمثل شخصية لها

بجدها، أما تماثيل الدولة الوسطى فتبين فيها دلائل الصرامة والقوة ومضاء العزيمة وكان الجزء الأسفل منها لا يعتنى به عناية تامة وخاصة في أوائل ذلك العهد ، أما تماثيل الدولة الحديثة فتمتاز بالرشاقة وإبراز تقاطيع الجسم في شيء من الليونة كما تمتاز باستطالة الوجه - ومما تجدر ملاحظته كذلك أن نسبة الرأس إلى الجسم كانت تختلف فهي في الدولة القديمة ١ - ٩ وفي الوسطى ١ - ٨ وفي الحديثة ١ - ٧ تقريبا ، كذلك من الممكن الإشارة إلى بعض المميزات العامة التي تبين الاختلافات بين تماثيل كل عصر عن تماثيل العصور الأخرى - ففي الدولة القديمة امتازت التماثيل باستقامة الخطوط وكان التمثال الواقف تمثل يداه مستقرة على الجانبين أما في التماثيل الجالسة فكانت إحدى اليدين تستقران على الصدر والأخرى على الركبة ثم أصبحت اليدين تستقران على الركبتين منذ عهد خفرع - أما تماثيل الدولة الوسطى فأهم ما يميزها ضخامة الجزء الأسفل وعدم مطابقته للواقع وخشونة المظهر وعدم تناسق الأعضاء تناسباً تاماً أما تماثيل الدولة الحديثة فقد امتازت برشاقتها كما سبقت الإشارة ورقبة التمثال في الدولة الوسطى عادة أكبر منها في تماثيل الدولة القديمة والرأس أكبر وقتها أقل تسطحاً ، كذلك يمكن ملاحظة بعض مميزات خاصة في زى التماثيل وطريقة تصفيف الشعر وغير ذلك مما يلاحظ المتخصصون .

ولذا ما تحدثنا عن الفن يجب ألا يفوتنا ذكر ما وصل إليه المصري في فن المعمار حيث ارتبطت به الفنون السابقة ارتباطاً وثيقاً - ومن المعروف أن المادة الطبيعية كانت في أول الأمر تتمثل في سيقان البردى وطى النيل ، وقد بدأ البناء أولاً بشكل دروة بسيطة من البردى أو البوص

أوما شاكلها من المواد الخفيفة ثم استعمل الطمي في هيئة كتل غير منتظمة، وكان مما يساعد على تدعيم هذه الكتل واستقامتها حزم من البردى تثبت إلى الجدران وتحدد أشكالها وكان المصري في أول عهده بالبناء يضطر إلى جعل قواعد الجدران التي يبنها بالطمي أضخم وأسمك من أطرافها العليا ويدعم أركانها بحزم البردى أو بقوائم خشبية مستديرة وكذلك يقوى الأطراف العليا للجدران بمثل هذه القوائم لتتحمل ثقل السقف، وعلى ذلك يمكن أن نتصور بأن الجدران كانت تميل إلى الداخل وقد ظل هذا الشكل يحافظ عليه حتى بعد اختراع اللبن الذي كان يصنع عادة من الطمي المخلوط ببعض التبن وأحجامه في معظم الأحيان هي $١٢ \times ١٨ \times ٣٨$ سنتيمترا ولما بدأ الإنسان يستعمل الحجر لم يتخل عن محاكاة المباني القديمة في الشكل والمهنية العامة إذ كثيراً ما كانت جدران المقابر والمعابد تميل إلى الداخل كما مثل شكل حزم البردى في أركان هذه المباني ومثل اسطوانات الخشب كذلك في السقف . ولم يستعمل الإنسان الحجر في بناء المنازل فيما عدا الأجزاء المحيطة بالأبواب والنوافذ أي أن لإطارات هذه صنعت من الحجر بينما كانت بقية المنزل من اللبن .

وقد استعمل الحجر في المباني الجنزية وفي المعابد لأنها كانت هي المباني النخالة في نظر المصري القديم . فإذا ما أخذنا المقابر فإننا نجد أنها كانت في أول الأمر عبارة عن حفرة يوضع فيها الميت ثم تهال عليه الرمال ، ثم أمكن تسقيف المقبرة بالبوص وبعدئذ استعمل الخشب في هذا التسقيف وكنيجة لذلك ولاختراع اللبن أصبحت المقبرة مستطيلة الشكل، وابتداء من أواخر عصر ما قبل الأسرات عمق الجزء المحفور في باطن الأرض وقسم إلى عدة

حجرات بنى فوقها بناء مستطيل مائل الجوانب من اللبن يشبه المصطبة جدرانها تشبه جدران الحصون ذات المداخل والمخارج ثم فى عهد الأسرة الثانية خلت الجدران من هذه الفجوات إلا من فجوتين فى الناحية الشرقية والجنوبية من هاتين الفجوتين كانت أكبرهما وفيها كانت توضع لوحة جنازية ومع أن الحجر استعمل فى بناء بعض أجزاء أو تبليط بعض حجرات من المقابر فى نطاق ضيق جداً فى عهد الأسرتين الأولى والثانية إلا أن بناء مقبرة بأكملها من الحجر لم يتم إلا فى عهد الأسرة الثالثة ، وأول المقابر الملكية التى بنيت من الحجر هى هرم زوسر المدرج ، ثم أصبح من المعتاد أن يتخذ الملوك أهراماً كمقابر لهم ، أما الأفراد فتدبّنوا مصاطب حجرية ونحت أمراء الأقاليم فى عهد الاقطاع الأول مقابرهم فى الصخور وبنوا بعض أجزاء منها بالحجر وفى عهد الدولة الوسطى بنى الملوك أهراماً صغيرة الحجم من اللبن ، أما فى الدولة الحديثة فقد نحتت المقابر فى الصخور لإخفائها عن العيون خشية السرقة .

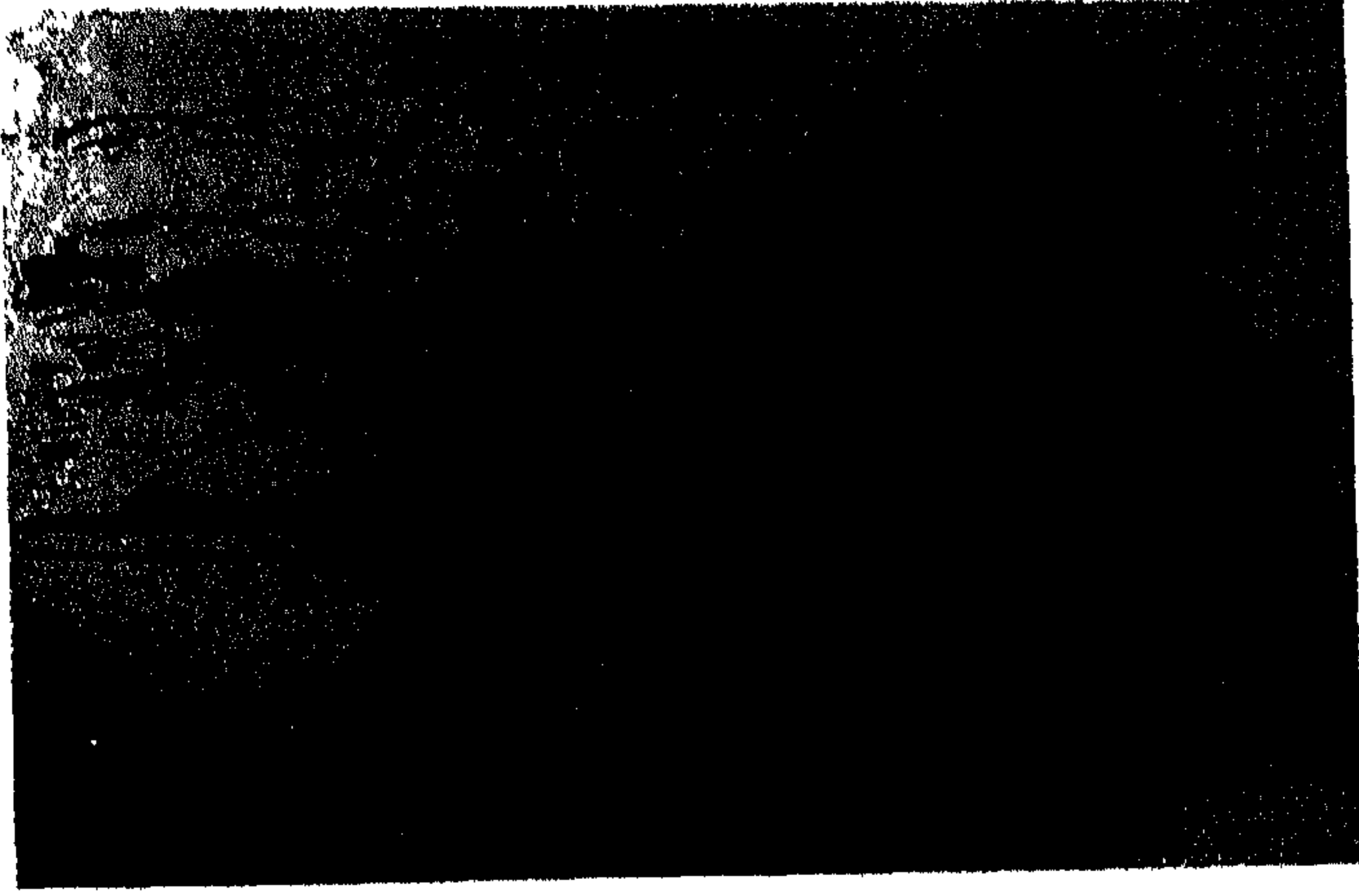
ولما كان من المعتاد فى الدولة القديمة أن تلحق بالآهرام معابد جنزية (شكل ٢٤) ، وكذلك كان الحال فى الدولة الوسطى فإن ملوك الدولة الحديثة استعاضوا عن ذلك ببناء معابدهم الجنزية فى أماكن منفصلة بعيدة عن مقابرهم .

أما معابد الآلهة فكانت فى أول الأمر عبارة عن تعريشة أو دروة من البوص أمامها العلم الخاص بالمعبد ، ولانعرف على وجه التحديد شكل هذه المعابد فى الأسرتين الأولى والثانية وأغلب الظن أنها بنيت من اللبن كذلك . وأقدم ما وصلنا من المعابد هى المعابد المعروفة باسم معابد الشمس



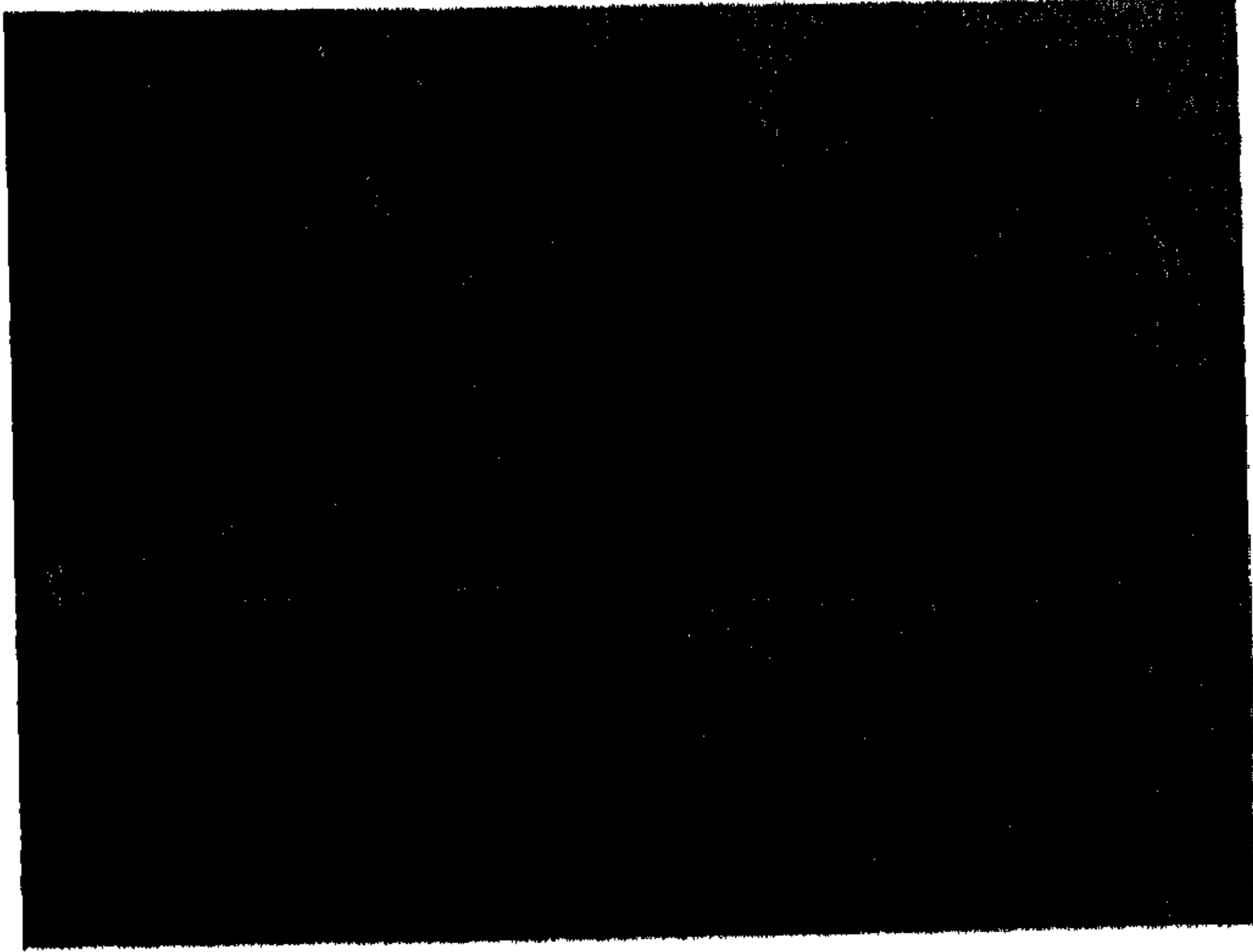
شكل (٢٤) : منظر هرمى خفرع ومنقرع .
أمامهما مما بدهما الجنزية

وتتمثل فى بناء على حافة النيل أشبه بمكان للاستقبال يخرج منه طريق صاعد إلى المصنبة وهذا الطريق مسقوف إلا من فتحة ضيقة تمتد بطول السقف، وفى وسطه، وهذا الطريق ينتهى إلى المعبد بالمعنى الصحيح ويبدأ بمدخل ثم حجرة للبواب أو حجرتين وهو صغير يتفرع منه فرعان أحدهما يتجه إلى اليمين حيث المخازن والحجرات الخاصة بالكهنة والآخر يتجه إلى اليسار وهو عبارة عن دهليز طويل مظلم ينتهى إلى سلم يصعد داخل قاعدة ضخمة تقوم عليها المسلة التى تقع فى فناء مكشوف، وأمام المسلة مائدة ضخمة للقرايين ومجارى طويلة تنتهى إلى أوانى تتجمع فيها دماء



شكل (٢٥ أ) : معبد الشمس

القرابين التي تقدم لإله الشمس ، كذلك توجد مجموعة أخرى من المجارى أصغر عدداً من السابقة في الجانب الآخر من قاعدة المسلة المقابل للجانب الذي به بداية السلم وهذه المجموعة تنتهى بدورها إلى مجموعة من الأوانى (شكل ٢٥ أ) . أما معابد الدولة الوسطى فكانت تشبه الشرفة المرتفعة أو المنصة التي تحيطها جدران قليلة الارتفاع بينما تتخلل هذه الجدران أعمدة مربعة مرتفعة يقوم عليها السقف ، ويؤدى إلى المنصة سلبان في جانبيين متقابلين كما يتوسطها مذبح كبير الحجم (شكل ٢٥ ب) ، أما معابد الدولة الحديثة فكانت لا تخرج في تصميمها عن بوابة ضخمة تؤدى إلى فناء مكشوف إلا من جوانبه حيث توجد بوائك مسقوفة ، وهذا الفناء يؤدى إلى صالة للأعمدة تنتهى إلى قدس الاقداس أو الهيكل - ويلاحظ أن البوابة والفناء وسائر أجزاء المعبد كلها تقع على محور مستقيم ، كما أن



شكل (٢٥ ب) معبد من الدولة الوسطى

البوابة يحيط بجانبها برجان عظيمان يواجهتهما تجاويف أعدت لوضع ساريات الأعلام وتثبيتها وقد يسبق البوابة أحيانا طريق للكباش كما أن بعض المسلات توضع أمام المعبد وفي بعض أفنيته - وبما تجدر ملاحظته هنا أن التأثير على المتعبدين في معابد الدولة القديمة يأتي على أثر المسير في الطريق الصاعد شبه المظلم ثم الدخول في الممر الطويل المظلم وبعد ذلك يفاجأ المتعبد بسطوع الشمس على قمة المسلة أو بالخروج إلى النور التام في وضوح النهار ، أما في معابد الدولة الحديثة فإننا نلاحظ أن التأثير يتم بدخول المتعبد من البوابة إلى الفناء المكشوف ثم صالة الأعمدة ثم قدس الأقداس الذي يكاد يكون مظلما لإظلاما تاما بما يوحى بالرهبة في النفس .

وإذا ما تحدثنا عن المسلات فإننا نجد أنها عبارة عن كتلة ضخمة

من الحجر تميل جوانبها تدريجياً إلى قرب نهايتها حيث نجد قمة مدببة تميل بزاوية ٦٠°م تقريباً، وكانت المسلة عادة توضع على قواعد مكعبة من درجة أو درجتين والشائع أنها كانت توضع في أزواج أمام مداخل المعابد ولكن وجدت كذلك مسلات صغيرة في مقابر الدولة القديمة وأقدم مسلة لمعبد مازالت قائمة في موضعها هي تلك التي أقامها سنوسرت الأول في هليوبوليس وارتفاعها ٦٨ قدماً ، وكانت أمام معبد الأقصر مسلتان إحداها ما زالت في مكانها والأخرى نقلت إلى باريس سنة ١٨٣١، وتوجد بعض المسلات الأخرى في مصر ومن أمثلة ذلك مسلة لتحتمس الأول ومسلة لحثشبسوت وكلاهما بالكرنك. وقد أعجب الرومان بالمسلات المصرية ونقلوا كثيراً منها حتى أن روما وحدها بها ١٢ مسلة، وواحدة بالقسطنطينية - ومن المسلات التي أقامها تحتمس الثالث مسلتين كانتا في هليوبوليس نقلهما الامبراطور أغسطس إلى الاسكندرية ثم نقلت إحداها سنة ١٨٧٧ إلى لندن والأخرى نقلت سنة ١٨٧٩ إلى نيويورك ، وأكبر مسلة معروفة كانت هي الأخرى من عمل تحتمس الثالث وكان قد أقامها في هليوبوليس أيضاً وهي الآن موجودة في ميدان القديس جون لاتيран في روما ، وقد أقامها هناك البابا سكستوس الخامس .

ولا شك في أن نحت المسلات وإقامتها كان يتطلب عملاً ووقتاً كبيرين كما يتبين ذلك من النص الموجود على قاعدة مسلة حثشبسوت في الكرنك والذي يفخر فيه مهندسها بأنه أتم قطع هذه المسلة في سبعة شهور فقط وأن هذه كانت أقصر مدة عمل فيها مثل هذا العمل.

ويحتمل أن أصل المسلات هو الأحجار المقسدة أو الشواهد

التي كانت تقام تمجيداً للبوتى والآلهة لأننا نعرف بأن لوحات منقوشة بأسماء الملوك كانت توضع في أزواج في مقابرهم بأبيدوس ، ويقال بأن أزواجاً من المسلات الصغيرة كانت توجد في مقابر الأشراف من الأسرة الرابعة . ولم تكن هذه المسلات لمجرد الزينة أو لتسجيل بعض ذكريات الملوك وأعمالهم فحسب بل كانت بعض المسلات تغطى في قتها بمعدن الالكترن ومزيج الذهب والفضة ، لتعكس أشعة الشمس إذ أن المسلة كانت ترمز لإله الشمس ، ولذلك نجد أنها كانت كثيرة في هليوبوليس متمر عبادة هذا الإله . وقد رمز في الكتابة الهيروغليفية لبعض معابد الشمس بقرص الشمس فوق قمة المسلة .

ثانيا : بلاد العرب

من المعروف أن بلاد العرب ظلت بيئة مقفلة أمام العالم المتحضر ، فلم تقم بها بحوث أثرية ولم يصل إليها من الرحالة الذين تركوا وصفا لمشاهدتهم فيها إلا في القليل النادر .

وكان اهتمام أقدم من عرفناهم من هؤلاء منصبا بصفة خاصة على التعرف على مايجرى في داخل الحجاز وخاصة فيما يتعلق بمراسيم الحج ، وبما زاد في إثارة الرغبة عند هؤلاء تحريم دخول غير المسلمين إلى مدينتي مكة والمدينة .

وأقدم الرحلات التي سمعنا بها كانت في أوائل القرن السادس عشر ، ولكن الرحلات التي جاءت عنها تفاصيل أكثر إسهابا ودقة هي تلك التي بدأت منذ أوائل القرن التاسع عشر .

ورغم أن مثل هذه الرحلات لم يكن الغرض منها وصف المعالم الأثرية إلا أن هناك رحلات أخرى كانت تهدف إلى مشاهدة بقايا ماكتب في التوراة عن بياكة سبأ وغيرها من أماكن متعددة من بلاد العرب وما حوته من كنوز ونفائس . كما أن بعض المؤرخين اليونان والرومان وبعض كتاب العرب ذكروا قصصا عن بلاد اليمن وما فيها من قصور وحصون ألهمت خيال بعض الرحالة وحفاتها على التفكير في السفر إليها .

وبالفعل قامت بعثة ذكريّة أوفدها ملكها سنة ١٧٦١ مكونة من خمسة أعضاء مات رئيسها عند وصوله إلى المخا ميناء اليمن ومات إخصائي النبات بين المخا وصنعاء واستمر الثلاثة الباقون حتى عادوا إلى المخا متجهين إلى الهند فمات اثنان منهم ولم يرجع بعد إتمام الرحلة سوى واحد هو نبؤور الذي كان مكلفا بعمل الخرائط فقط ولكنه أعد جميع الأبحاث والرسوم للنشر .

وكانت نتائج هذه البعثة من أحسن النتائج العلميّة التي أمكن الوصول إليها .

وفي سنة ١٨٤٣ قام شاب فرنسي برحلة إلى مأرب ونقل كثيراً من النقوش السبئية ، نشرها القنصل الفرنسي في جدة في سنة ١٨٤٥ . ثم قامت رحلات أخرى بعد ذلك في فترات متباعدة ولكنها جميعا لاتلقى ضوءاً كافياً على ما كان في هذه المناطق من حضارة .

ومهما كان الأمر فإن شبه جزيرة العرب لم يكن فيها من التيسيرات التي تسمح للرحالة والعلماء بالتجوال فيها أو الكتابة عنها ، واقتصرت الجهود على مناطق محدودة منها ، وإذا ما نظرنا إلى الظروف المناخية وما نشاهده من أحوال الطبيعة في الوقت الحاضر يمكننا أن نستنتج أن أهل شبه الجزيرة وإن اتحدوا في صفاتهم الجنسية فإنهم كانوا يختلفون في ظروف معيشتهم بين بقعة وأخرى ، ويمكن القول إجمالاً بأن المناطق التي سبقت إلى ميدان الحضارة هي تلك التي جمعت الاستقرار فيها يمكننا ، وبعبارة أخرى فإن مناطق الحضارات القديمة يمكن تتبعها في الأطراف الجنوبية والشمالية لشبه الجزيرة .

ومع كل فان مخلفات هذه الحضارات التي ظلت قائمة والتي أمكن الكشف عنها قليلة للغاية ولا تكفى لأن تكون فكرة كاملة عن مظاهر الحضارة المختلفة التي سادت في تلك البقاع .

وبما يلاحظ على حضارات شبه الجزيرة بصفة عامة عدم وجود سلسلة متكاملة من المظاهر الحضارية فهناك فجوات كثيرة في هذه السلسلة ، فالآثار التي كشف عنها في مناطق محدودة من جنوب شبه الجزيرة والتي تمثل حضارات العصور قبل التاريخية لاتخرج عن كونها بعض آلات الصوان التي تشبه ما وجد في شرق افريقيا من العصر الحجري القديم بما أدى الى افتراض نظريتين : إحداهما تشير الى أن الحضارة انتقلت من شبه الجزيرة الى الساحل الافريقي ، بينما تشير النظرية الأخرى الى العكس من ذلك حيث تفترض وجود مركز إشعاع حضارى في شرق افريقيا انتقلت منه ثقافة صناعة الصوان الى جنوب شبه الجزيرة وغيرها . ولا نكاد نجد من المخلفات الأثرية مايبين مظاهر حضارات تالية للعصر الحجري القديم بل إن كل ماثر عليه من مخلفات غير صناعات هذا العصر تشير الى حضارات عصور تاريخية متأخرة .

وربما كانت أعظم المناطق الأثرية في جنوب شبه الجزيرة هي مأرب التي ذكرت في الكتب المقدسة ففيها بقايا مباني مازالت جدرانها قائمة وإن كان الكثير مازال مطموراً تحت الأكوام الأثرية ، وهذه الجدران تدل على مباني مختلفة - وإلى جوار تلك الجدران توجد أحجار كثيرة منقوشة ببعض السكتابات وبعض التماثيل وبقاياها . ويمكن أن يتتبع المرء في أطلال هذه المدينة مكان السوق القديم والسور ، ويتضح منها

حسب رأى بعض الرحالة أن المدينة كانت مستديرة وأن سورها كانت به ثمانية أبواب ، ومن هذه البقايا أيضا يمكننا أن نستنتج أن أهل سبأ الذين اتخذوا مأرب عاصمة لهم ^(١) وصلوا إلى مرحلة متقدمة في فن المعمار وفى فن نحت التماثيل كما أن من بين النصوص ما يشير إلى أن أحد الملوك بنى حائطا حول مأرب بناء على أمر ومعونة الإله عشتار ^(٢).

ومن المخلفات الأثرية في هذه المنطقة وما جاورها من مناطق أثرية أخرى بعض اللوحات المزخرفة المنقوشة وبعض التوابيت الحجرية مما يدل على أن أهل سبأ استخدموا التوابيت في دفن موتاهم - ولا بد أنهم اعتقدوا بالبعث لأن بعض المتهابر التي كشفت بفعل السيول وغيرها كانت تحتوى على كثير من الأثاث الجنائزى إلى درجة أن أهل المنطقة اعتقدوا بأن الموتى كانوا من التجار الذين دفنوا معهم بضائعهم ولذا يطلقون على هذه القبور اسم مقابر البياعين ^(٣).

ومن الواضح في فنون البناء والنقش في تلك المنطقة أن هناك تأثيرات توحي بوجود اتصالات بينها وبين بلاد النهرين وسوريا واليونان

(١) كانت العاصمة أولا صرواح أو صروح - أنظر كتاب المؤلف « معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم » (الاسكندرية سنة ١٩٦٨) ص ٢٥٧

(٢) كانت الديانة الرئيسية لدى شعوب جنوب بلاد العرب تعتمد أساسا على ثلاث من الكواكب يمثل في الإله الأب وهو القمر (المواق) والإلهة الأم وهى تسمى (ذات حميم أو ذات بعدان) والإله الابن وهو نجم الزهراء (عشتار) أنظر :

أحمد فخري : الدين ، ماضيها وحاضرها (القاهرة ١٩٥٧) ، ص ٥٦

(٣) المرجع السابق ص ١٢٢

كما أن هناك ما يوحى بتأثيرات من الفن المصرى وخاصة فى التماثيل وزخارف بعض النصب .

والظاهر أن بعض النقوش تشير إلى تصريح بقطعة من الأرض منحها الملك إلى قبيلة فى نظير الخدمة العسكرية ، كما أن هناك نقوشا أخرى تحرم نهب الأراضى المنزرعة أو تركها وقت الحصاد ، ونقوشا غيرها تحدد امتلاك بعض القبائل لبعض الأراضى وتحدد الضرائب الواجب دفعها عنها .

وهكذا يمكن أن نستنتج بأن استقرار بعض القبائل البدوية كان يتم بشروط معينة ، وربما كان السكيان السياسى للدولة غير كامل أو أنه كان عرضة للتغير بسبب دخول بعض العناصر الجديدة بين حين وآخر .

ويتمثل فن السبئيين فى سد مأرب الذى بلغ من شهرته أن ذكر فى القرآن الكريم ، وقد نسب إلى ملكة سبأ كما نسب إلى غيرها من الملوك الذين سبقوها ، وهو يعد أعظم عمل هندسى قديم فى الجزيرة العربية . وتروى الأساطير أوصافه بشيء من الخيال كما تنسب تحطمه إلى أسباب مختلفة منها ما هو خيالى - وقد أقيم هذا السد فى حوالى منتصف القرن السابع قبل الميلاد ، وتهدم فى حوالى أواخر القرن السادس الميلادى ، وكان الغرض من بنائه ينحصر فى السيطرة على مياه السيول وتخزينها والصرف منها بالمقدار اللازم فتتوفر المياه اللازمة للرى إلى أن يحين موعد قدوم السيول التالية وهكذا .

ونظراً لما تمتعت به بإقيديس من شهرة فى التاريخ فإن كثيراً من الأماكن الأثرية تنسب إليها ولا يقتصر وجودها على منطقة مأرب

وحدما بل يطلق اسم بلقيس على مناطق أثرية في أماكن أخرى من اليمن . ومن أهم الآثار التي تنسب إليها في منطقة مأرب محرم بلقيس وهو أهم المعابد وأشهرها ويقع على بعد نحو أربعة كيلو مترات جنوب شرق مأرب الحالية ، وأقدم النقوش على جداره الخارجى يدل على أن ثانى ملك حكم سبأ هو الذى بنى سور هذا المعبد وأنه شيده لإله القمر ، وقد عاش هذا الملك فى القرن الثامن قبل الميلاد ، وهو نفسه الذى شيد المعبد الكبير فى صرواح - وقد وجدت نقوش من تواريخ تالية تصل إلى القرنين الثالث والرابع الميلاديين ، أى أن هذا المعبد ظل قائما وعبادة القمر ظلت تقام فى هذا المكان ألف سنة على الأقل .

ومن كتابات المؤرخين القدامى نعلم بأن مأرب كانت بها ثلاثة قصور على الأقل قرن أحدها بقصر الملكة بلقيس ، وقد ورد فى كثير من أقوال الشعراء وكتاب العرب ولكن من العسير تحديد مكان هذا القصر أو التعرف عليه .

أما فى منطقة صرواح وهى تتمثل فى وادى مستدير محاط بالجبال ، فقد وجدت بها آثار تدل على وجود سسد قديم مازالت عليها بعض الكتابات القديمة كما وجدت آثار تدل على وجود معابد قديمة أحدها يطلق عليه الآن « دار بلقيس » ويبدو أنه مازال سليما لأن سقفه الحجرى مازال فى مكانه ولكنه مطمور بالرديم . وأهم الآثار جيمما فى تلك المنطقة معبد إله القمر أو المعبد الكبير الذى يبدو كأنه بناء نصف بيضى لاستدارة إحدى نواحيه مما جعله يبدو بهذا الشكل ، وقد بنى هذا المعبد أيضا الملك الثانى من ملوك سبأ الذى سبقت الإشارة إليه

على أنه باني سور المعبد في مأرب وربما كان هو الذي وحد جنوب شبه الجزيرة بأكملها بما في ذلك حضرموت ونجران والمحميات : ومن الجدير بالذكر أن هذا الملك يشير في نقوشه إلى خزانات المياه والجسور والقنوات التي أسس بإنشائها .

وليس من اليسير تتبع الآثار المختلفة في مناطق جنوب شبه الجزيرة وكل ما يمكن قوله في هذا الصدد أن هذه الآثار وإن كانت قليلة ولم تدرس دراسة وافية بعد إلا أنها تعطي فكرة واضحة بعض الشيء عن الديانة في هذه المنطقة وعن توصل أهلها إلى أعمال هندسية رائعة سواء في المعمار أو في التحكم في مياه السيول ، وبلوغهم درجة لا بأس بها في القوانين والعلاقات العامة وخاصة فيما يتعلق بتحديد الملكية وتحديد الحدود بين الأملاك المختلفة كما يبدو من هذه الآثار أيضا أنهم نعموا بالرفاهية وأن الرقص والموسيقى كان لهما نصيب في حياتهم إذ توجد على بعض الأحجار مناظر تمثل راقصات تحيطها زخارف مختلفة .

ولا شك في أن موقع جنوب شبه الجزيرة كان له أثره في اتصال بعض الأقطار ذات الحضارات القديمة بسكانه . ومن المرجح أن وجود هؤلاء السكان عند مخرج البحر الأحمر جعلهم يغامرون بالخروج إلى البحر وأصبحوا من الملاحين الممتازين ، بل ويتغالى بعض المؤرخين فيذكر أنهم وصلوا بسفنهم إلى بلاد الهند وبلاد النهرين ومصر ، كما أن إقبال بعض القبائل على الاستمرار في بعض أماكن شبه الجزيرة لم يجعلهم يتخلون نهائيا عن صفاتهم البدوية بما فيها من حب التجوال والترحال ، ولذا نجد أن سكان هذه المناطق إلى جانب مهارتهم في الملاحة قاموا

بنقل المتاجر عبر شبه الجزيرة ووصلوا بتجارهم إلى الشام ، كما أنهم كانوا أحيانا يجمعون في الانتقال بالمتاجر بين اتخاذ طريق بحرى وآخر برى إذ كانوا يعبرون البحر إلى الشاطئ الإفريقى ثم يسرون بحذاء الشاطئ تتبعهم سفنهم من مكان إلى آخر . ويبدو أن ملوك «أكد» ببلاد النهرين اتصلوا بالمناطق الواقعة في جنوب شرق الجزيرة كما يبدو ذلك من نصوص «نارام سن» و «جوديا» كبير كهنة «لجش» - والظاهر أن بعض القبائل الجنوبية وقفت إلى جانب ملك دمشق في حربه ضد الملك الآشورى «شلمنصر الثالث» ، وبعد ذلك نجد في النصوص الآشورية ما يشير إلى وصول جزية وهدايا من السبثيين إلى ملوك «آشور» إلا أنه من المستبعد أن يكون الآشوريون قد وصلوا إلى جنوب شبه الجزيرة وفرضوا الجزية على سبأ والأرجح أن بعض الجاليات السبئية كانت مستقرة على طول الطريق التجارى بين شمال الجزيرة وسوريا وهذه هى التى تعرضت لإغارات الآشوريين ، كما أنه من الجائز أيضا أن يكون ما ذكره الآشوريون عن جزية السبثيين لا يدل إلا على هدايا أرسلها السبثيون لتوطيد صلات الصداقة معهم والمحافظة على نشاطهم التجارى في شمال شبه الجزيرة .

ولا بد من الإشارة هنا إلى ما تذكره الأساطير المصرية من أن المصريين كانوا ينتمون إلى أتباع حور وأن هؤلاء الاتباع هم الذين جاءوا من الجنوب والشرق وعلوا المصريين الحضارة وأخضعوا البلاد لسلطانهم . ويرى كثير من الباحثين بأن في هذا إشارة إلى أن أتباع حور قد جاءوا من شبه الجزيرة وعبروا البحر الأحمر وتجهلوا على طول الساحل الإفريقى ثم تقدموا شمالا حتى وصلوا إلى مصر ، كما أن الاتصال المستمر بين مصر

وبلاد « بونت » وهذه الأخيرة قد دعا كثير من المؤرخين إلى الربط بينها وبين جنوب شبه الجزيرة بل ويرجحون أن بونت هي نفسها بلاد اليمن الجنوبية وليس كما يقول بعض المؤرخين الآخرين بأنها هي شاطئ أفريقيا في منطقتي أرتريا والصومال (١).

أما على الحدود الشمالية لشبه الجزيرة فقد استقرت بعض القبائل وتكونت بعض الدويلات كانت أهمها « البتراء » و « تدمر » . ولأنكاد نعرف من أمر هذه الدويلات شيئاً سوى ما ذكرته بعض النصوص التي جاءت من الأقطار المجاورة . وشأن الدويلات الشمالية شأن الدول الجنوبية لشبه الجزيرة من حيث أن تاريخها المعروف به فجوات كثيرة ، فخطابات « ماري » تدل على أن منطقة تدمر كانت آهلة بالسكان حوالي سنة ١٧٠٠ ق . م . - ولا نجد وثائق مستمرة عنها بعد ذلك التاريخ غير أن تدمر تأخذ في الظهور حوالي القرن الأول قبل الميلاد . أما البتراء فقد أخذت في الظهور منذ القرن الثاني قبل الميلاد - وإذا كان أهل البتراء هم « الأنباط » فإن أقدم ذكر لهؤلاء يرجع إلى القرن السابع قبل الميلاد حيث حارب ملكهم « آشور بانيبال » ، وقد اعتبرهم هذا الملك ثواراً وتذكر حولياته بأن جيوشه تقدمت في الصحراء وهزمتهم ، ويبدو التضارب في وصف هؤلاء الأنباط بين الكتاب القدامى ، فمنهم من يرى بأنهم كانوا يعيشون في منطقة صحراوية تقوم حياتهم على الغزو ويحرمون الزراعة وشرب الخمر وبناء المنازل ، بينما يصفهم آخرون بأنهم

(١) أحمد فخري ، المرجع السابق ص ٦٦-٦٨

يشتغلون بنقل التجارة الآتية من الجنوب . أما التدمريين فكانت عاصمتهم « تدمر » ، ويبدو أن سكانها كانوا من القبائل التي استقرت في هذه المنطقة على طول الطريق التجارى الرئيسى بين شبه الجزيرة وشرق البحر المتوسط ، ويبدو اختلاف أصول السكان وإرجاعهم إلى قبائل مختلفة من النقوش التي خلفوها ، إذ نجد نقشا على تمثال يسجل الصالح بين قبيلتين متنازعتين ، كما أن بعض النقوش وإن كانت تسجل اشتراك السكان في بعض الطقوس الدينية إلا أن هذه النقوش تسجل أسماء تلك القبائل ، وقد أقاموا تماثيل لآلهتهم المختلفة . ومهما كان الأمر فإنه نظراً إلى أن هذه الدويلات الشمالية تقع في الطريق بين بلاد النهرين والشام فقد تعرضت لهجمات الآشوريين والكلدانيين كما تعرضت الدويلات الأخرى المتاخمة لها من الجنوب ومن ذلك مثلاً ما نعلمه من أن « تيجلات بلسر الثالث » يتقبل خضوع أميرتين عرييتين إحداهما تدعى « زيبسة » والثانية تدعى « سمسى » ، كما أن « سنحريب » يذكر بأنه توغل في الصحراء متبعاً العرب الذين كانوا قد تقدموا إلى بابل واضطرم إلى الإعتصام في مكان ما في قلب الصحراء . وعلى أى حال فإن خصائص وسميزات حضارات تلك الدويلات الشمالية ينبغى أن تكون موضوع الحضارات المعاصرة لليونان والرومان لأن التواريخ المؤكدة لظهورها هي القرنين الثانى والأول قبل الميلاد كما سبق أن أشرنا ، وقد سقطت البتراء سنة ١٦ م ، وتدمر سنة ٢٧٣ م .

ثالثاً: الإقليم السوري

من المعروف أن موقع هذا الإقليم جعله يستقبل الكثير من العناصر البشرية في مختلف الأدوار التاريخية^(١) كما أن انقسام هذا الإقليم من ناحية التضاريس جعله يشتمل على وحدات سياسية مختلفة ، ومنها كان بينها من تشابه في بعض مظاهر الحضارة فيها فإنه من العسير أن نقنأها جميعاً بالبحث كوحدة حضارية ظهرت في الإقليم بأكمله ، ولذا فإننا سنتناول حضارته على أساس الحضارات التي انتشرت بين العناصر البشرية الرئيسية التي أثرت فيه .

وقد اصطلح المؤرخون على أن أهم العناصر التي لعبت دوراً فعالاً في تاريخه القديم هي تلك العناصر السامية التي وفدت إليه في هجرات مختلفة .

الأموريون :- أقدم العناصر السامية

ويرجح بأن سكان بلاد النهرين هم الذين أطلقوا عليهم هذا الاسم ، فقد أطلق السومريون كلمة « مارتو » ، على أهل الغرب ، ومنها جاءت الكلمة الأكادية « أمورو » ، التي أصبحت بعد ذلك تطلق على الإقليم السوري بأكمله ، وهي في هذا تشبه استخدام العرب لكلمة الشام التي كانت تعني أصلاً اليسار أو الشمال .

وحينما وفد الأموريون إلى الإقليم السوري كانوا عبارة عن جماعات بدوية

(١) أنظر كتاب المؤلف : معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم ص ٢٧٢

لا تعرف سكنى المدن ولا الزراعة ، ولكن بعد أن استقروا في هذا الإقليم أخذوا عن أهل مظاهر الحضارة المختلفة وعرفوا الزراعة وأسسوا دويلات قوية من أهمها تلك التي كانت في حوض الفرات الأوسط وكانت عاصمتها « ماري » - وبلغ من قوة هذه الدويلات أن حاولت التوسع في بلاد النهرين ، ولذا نجد أن أحد ملوك أسرة أور الثالثة قام بتشيد سور في أور أطلق عليه اسم « الجدار الذي يصد الأمورين » كما أن آخر ملوك هذه الأسرة افتخر بانتصاره عليهم بقوله « لقد اخضعت مارتو الذين في قوة العاصفة »

ومع أن الأمورين اقتبسوا الكثير من مظاهر حضارتهم من حضارات أهل المنطقة السابقين ومن جيرانهم إلا أن هؤلاء الجيران تأثروا بدورهم بمؤثرات أمورية ، فمثلا نجد أن البابليين والآشوريين أخذوا في قوانينهم بمبدأ « العين بالعين والسن بالسن » الذي انتشر بين الجماعات السامية ومن بينها الأموريين ، كما أنهم كذلك عبدوا بعض الآلهة الأمورية.

وقد وصلوا إلى مرتبة حضارية عظيمة كما يستدل على ذلك من الآثار التي عثر عليها في عاصمتهم ماري ، فقد أمكن الكشف عن بقايا قصر ملكي كان يشغل مساحة تزيد على خمسة أفدنة ويحتوى على أكثر من ٣٠٠ حجرة زينت جدران الكثير منها بصور ملونة بألوان زاهية ويشمل عدداً من الساحات والحمامات وألحقت به بعض الدوائر الحكومية ، كما عثر على أكثر من ٢٠٠٠٠ لوح من الألواح الطينية المكتوبة بالخط المسماري وهي تتضمن وثائق تتناول مختلف الشؤون وتلقى كثيراً من الضوء على النواحي السياسية والإدارية والاقتصادية والدينية التي سادت

في هذه المنطقة وفي مناطق أخرى من العالم القديم ، فمثلا نعلم من هذه الوثائق أن مملكة أمورية اسمها « يمتخاد » كانت عاصمتها « حلب » وأن « جيبيل » كانت مركزا صناعيا هاما للنسيج ، « وقطنه » كانت مركزا تجاريا ، كذلك عرفنا أن « زمرى ليم » كان يعاصر الملك البابلي « حورابي » وأنه كان آخر ملوك ماري .

ورغم هذه الحضارة فإن الأموريين لم يتركوا كتابات هامة بلغتهم بل اقتصروا في تدوينهم بها على أسماء ملوكهم وحكامهم وبعض الأماكن في الإقليم السورى ، أما أهم مدوناتهم فقد كتبت بالأكدية التي شاع استخدامها كلغة تدوين رسمية .

ويبدو أن وقوع الأموريين بين آسيا الصغرى في الشمال ومصر في الجنوب وبلاد النهرين في الشرق قد أكسبتهم مهارة سياسية في بعض الظروف وخاصة عندما أخذ الحيشيون (في آسيا الصغرى) في القوة وبدأت مصر في الضعف ، فقد أخذ بعض الحكام الأموريين الذين كانوا يخضعون لمصر فيما سبق يستغلون الظروف ويعانقون استقلالهم ، ومنهم من تظاهر بالولاء للمصريين وفي نفس الوقت كان يتعاون مع الحيشيين في غزوهم لبعض المناطق بينما يستولى لنفسه على بعض المناطق الأخرى ، ويبدو ذلك واضحا في أواخر عهد الأسرة الثامنة عشرة المصرية .

أما عن ديانة الأموريين فقد وجدت لديهم معبودات مختلفة منها الإله « أمورو » (مارتو) الذي عرفت عبادته في بلاد النهرين وكانت زوجته الإلهة « عشتار » إلهة الحب والقوة التي يرجح أنها مقتبسة من الإلهة البابلية عشتار - وقد وجدت في أنقاض قصر ماري الذي أشرنا إليه

ففيما سبق صورة كانت تزين أحد الجدران وفيها يرى الملك الذي يرجع أنه « زمرى لم » وهو يتسلم شارات الملك من هذه الإلهة ومن الإله « حدد » الذي عرف في بابل باسم « أدد » إله المطر والزوابع وكان يطلق عليه أحيانا اسم آخر هو « رمان » (رمانو) أى إله الرعد، ويحتمل أنه هو الذي عرف بعد ذلك في بعض جهات سوريا باسم « بعل » ومن آلهتهم أيضا الإله « رشف » وقد عبده الفينيقيون وعرفه المصريون في عهد الدولة الحديثة . ومن معبوداتهم التي انتقلت إلى بلاد النهرين « داجون » أو « داجان » وكان من آلهة الخصب - ومن المحتمل أيضا أنهم هم الذين أدخلوا إلى الأقليم السوري عادة تقديم الإبن البكر كقربان للآلهة وعادة تضحية أطفال في أسس المباني ، وهذه الأخيرة ظلت إلى زمن العبرانيين .

ب - الكنعانيون والفينيقيون : وصل هؤلاء في هجرة واحدة مع الآموريين . وقد اختلف الباحثون في أصل اسمهم ، فمنهم من يرى بأنه سامى « كنع » أو « خنع » بمعنى المنخفض ، أى الأرض المنخفضة التي سكنوها وخاصة على الساحل للتمييز بينها وبين الأراضى الجبلية المحاذية لها ، ومنهم من يرى أن أصله هندو أوروبى من كلمة حورية « كناعى » بمعنى صبغة حمراء ومنها أخذت الكلمة الكلدانية « كناعى » أو « كنخى » التي حرفت إلى كنعان أى بلاد الأرجوان لشهرتها بهذه الصباغة ولذا عرفها اليونان باسم فينيقيا كمرادف لهذه التسمية ، وكانت تدل في أول الأمر على الساحل السوري وغرب فلسطين ثم أصبحت تدل على فلسطين وجزء كبير من سوريا .

ونظراً لطبيعة الإقليم الذي عاشوا فيه وانتميته بين حين وآخر لتوسع الدول الكبرى المجاورة لم ينجح الكنعانيون في تأسيس دولة

قوية موحدة بل انتظموا في جماعات صغيرة يرأس كل منها ملك ويستقرون حول مدن محصنة تحيط بها مناطق زراعية تابعة لها ، وكانت هذه المدن هي العواصم التي يلجأ إليها أهل المناطق الزراعية ويحتمون داخل أسوارها عند الخطر - وكثيراً ما كان يحدث النزاع بين تلك المدن فكانت أكثرها تفوقاً تلك التي كانت وسائلها الدفاعية أكثر فاعلية، وبعضها كان يشغل موقعين أحدهما على الساحل والآخر يمثل جزءاً صغيرة في مواجهته يلجأون إليها عند اشتداد الخطر - وبالطبع كانت المدن المنيعه أقدر من غيرها على البقاء والازدهار ، ومن جهة أخرى كثيراً ما كانت هذه المدن تتفق فيما بينها لتحقيق مصالح مشتركة أو للتدافع ضد أخطار خارجية.

ومع أن السكنعانيين لم يتمكنوا من إنشاء دول كبيرة كما أشرنا إلا أنهم فرضوا شهرتهم في التاريخ لما امتازوا به من نشاط في الميدان الاقتصادي . فقد عملوا على تنمية زراعتهم وصناعاتهم ونشطوا في الاتجار خارج وطنهم وأسسوا مستعمرات تجارية في مناطق بعيدة ، ففي ميدان الزراعة لم يتركوا بقعة صالحة دون استغلال حتى أنهم زرعوا السفوح الجبلية حيث حولوها إلى مسطحات متفاوتة الارتفاع يفصل بين كل منها والآخر جدار يمنع التربة من التآكل ويزيد في المساحة المنزرعة - وإلى جانب الزراعة كانوا يربون الأثنام والخنازير ومهروا في صناعة الفخار كما برعوا في صناعة النسيج والزجاج - وقد عرفت لديهم الأقمشة الصوفية منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد على الأقل ، ونقلوا زراعة القطن من آشور وعرفوا نسيج الكتان كما عرفوا الحرير منذ القرن السادس قبل الميلاد تقريباً - وقد ارتبطت حرفة صيد الأسماك بطريق غير مباشر بشهرة

منسوجاتهم لأن الصبغة باللون الأحمر التي اشتهروا بها كانوا يستخرجون سائلها من أصداف تسكث على سواحل البحر ، وكانوا لا يتاجرون في هذا السائل بل في المنسوجات المصبوغة - ولم يقتصر استخراجهم لهذه المادة على الأصداف الموجودة على سواحلهم بل كانوا يجلبونها أيضا من الموانئ البعيدة ، وبلغ من شهرة أقمشتهم المصبوغة بها والتي أصبحت تعرف باسم « الأرجوان » أن ارتفعت أثمانها حتى أصبحت رمزا للبلوك فيقال عنهم « مولود في الأرجوان » ، كما أنها كانت تستعمل في أزياء بعض ذوى المكانة مثل رؤساء الكهنة في بعض الجهات - وإلى جانب الصبغة بهذا اللون عرف الفينيقيون صبغة أخرى لونها قرمزي استخرجوا مادتها من حشرات كانت تعيش على أشجار السديان حول الساحل وذلك بوضع هذه الحشرات بعد تجفيفها في بعض الأحماض .

ومع أن الفينيقيين نشطوا في التنقل بين مختلف الاقطار وقاموا بدور عظيم في نقل مختلف الساع والثقافات إلا أن ما خلفوه من مدونات لا يتناسب مع الدور الذي قاموا به وربما يرجع ذلك إلى فناء أوراق البردى التي كانوا يدونون عايمها وكانوا يجلبونها من مصر ، ومع هذا فإن القليل الذي عثر عليه من نقوشهم ومدوناتهم يدل على علو شأنهم في كثير من المعارف - ومن ذلك أيضا نستطيع أن نتسج أن المدين الفينيقية كان يحكمها ملوك يتم اختيارهم من بعض الأسر النبيلة أو التي تنتمي إلى أصل مقدس ، ولكن سلطان الملك كان يحدده مجاس للشيخ مؤلف من تجار المدينة .

ومن الملاحظ أن أصحاب الحرف كانوا يدنون بالولاء لرؤساء يمثلون طوائفهم المختلفة ويطلق على رئيس كل حرفة لقب « رب » ،

الذى يدير أمور أهل الحرفة ويتولى رعاية شئونهم - ومع أن شهرة الفيزيقيين الرئيسية كانت لمهارتهم في الملاحة إلا أنهم تفتتوا في استغلال كل ما يمكن أن تجود به بلادهم من موارد ، وقد اشتهرت أخشاب أشجارهم بالجودة وخاصة خشب الارز والصنوبر ولذا فرض على جيرانهم الاتصال بهم والاتجار بهم للحصول على هذا الخشب الثمين ، كما أنه من المرجح أن زيت الصنوبر ونشاراته كانا يستخدمان في التحنيط ، كذلك استخدمت أخشاب الصنوبر في بناء قصر ومعبد « سليمان » كما استخدمها الآشوريون أيضا في بعض قصورهم وخاصة من عهد « سرجون الثاني » .

أما في مجال الزراعة فقد وصلوا إلى مرحلة راقية واستخدموا المحراث ، بل وكانوا أحيانا يستغلون الفيل كحيوان لجر المحراث في الزراعات الكبيرة ، وأكثر وسائل النقل استعمالا عندهم كانت عربات ذات عجلتين تجرها أربعة خيول (شكل ٢٦) - وربما كان الحمار يستعمل في الخدمات بدل الخيل قبل دخول الحصان أيام المكسوس - وكان استخلاص الحب من سنبلة يتم إما بأن تمرر على السنبلة لوحة خشبية بأسفها شظايا



شكل (٢٦) : نموذج من الخزف لعربة يجرها الخيل

صوانية أو أن تستعمل مركبة من خشب لها عجل بأسنان من حديد أو أن يداس المحصول بأرجل الحيوانات^(١) - وتطحن الحبوب بالرحى، وقد عرف الفينيقيون صناعة الانبذة واستخراج الزيوت، وغير ذلك من الصناعات الزراعية .

ويعد الفينيقيون أقدم أمة بحرية في التاريخ ، ونبوغهم في الملاحة هو سبب شهرتهم الحقيقية ، وقد وصل نشاطهم إلى اسبانيا وبريطانيا ، وبلغ من حذقهم أنهم كانوا يصنعون السفن لحساب الدول والشعوب الأخرى، فقد أمدوا «سنحريب» ملك آشور بالسفن التي غزا بها دويلات جنوب العراق كما أمدوا سليمان بالسفن واستخدمهم «نحاو» (الأورة ٢٦) في الدوران حول أفريقيا وقد أتموا رحلاتهم في ثلاث سنرات - وقد أخذوا يكونون في الأماكن التي وصلوا إليها للتجارة مراكز تجارية سرعان ما تحولت إلى مستعمرات تجارية كانت أعظمها «قرطاجة» التي سرعان ما ازدهرت بعد تأسيسها ثم أصبحت لها سيادة تجارية وسياسية فكانت امبراطورية تمتد من حدود ليبيا إلى جبل طارق وضمت بعض جزر البحر المتوسط إليها - ثم تنافست مع روما من أجل السيادة على البحر المتوسط ونشبت بينهما حروب دامت أكثر من مائة عام انتهت بأن أحرقها الرومان وحولوها إلى كومة من الرماد .

ويبدو أن الكنعانيين نشطوا في صناعة المعادن حيث ينسب إليهم أنهم وصلوا إلى صناعة الفولاذ واشتهروا بالصياغة ولذا كانوا

(١) كوتننو : الحضارة الفينيقية (مترجم) ، ص ٣٠٦ .



شكل (٢٧) نحت في العاج يمثل الفن الفينيقي
وفيه مزج بالفن المصرى

يقومون برحلات عديدة لجلب المعادن حتى أن «هوميروس» أشار إلى حذق
أهل صيدا، بصفة خاصة في الصياغة .

ومع أن الفينيقيين في فنونهم اقتبسوا من فنون الشعوب المجاورة ،
إلا أنهم مزجوا في كثير من الحالات بين هذه الفنون جميعا حتى جعلوا
منها فنا فينيقيا متميزاً (شكل ٢٧) غير أنهم في بعض الحالات كانوا
يقتبسون اقتباسا كليا (شكل ٢٨) - ولا يمكننا أن نقتصر في دراسة الفن
الفينيقي على ما وجد من آثاره على الساحل السوري وحده ، ولكن لابد
من دراسة كل آثارهم في المناطق الأخرى ، وكثاا الاقتباس الكلى نلاحظ
في بعض أختامهم وتوابيتهم طابعا مصرى صرفا .

وينسب إلى الفينيقيين اختراع الحروف الأبجدية التى نقلها عنهم
اليونان ثم شاع استعمالها وإن كان من الممكن أن نعتبر أن الهجائية

وجدت أولاً في الهيروغليفية حيث كانت هناك رموز تدل على حروف إلى جانب الرموز المستعملة ككلمات أو مقاطع وكل ما قام به الفينيقيون هو أنهم طوروا الفكرة واستخدموا الرموز للدلالة على حروف فقط ، ومع هذا فإن اللغة الفينيقية لم تصبح لغة دولية وإنما كانت الأكديّة هي التي تعد لغة دولية رسمية. ومن التراث الأدبي الذي تركه الفينيقيون اقتبس العبرانيون كثيراً من تراثهم وأدخلوه في كتاباتهم المقدسة وخاصة بعض الأساطير التي تدور حول الصراع بين الخصب والجفاف أو بين الإنبات والموت ثم البعث أو عودة الحياة وإن كنا نعتقد بأن هذه كلها أصلاً يمكن إرجاعها إلى أسطورة أوزير التي انتشرت في مصر .

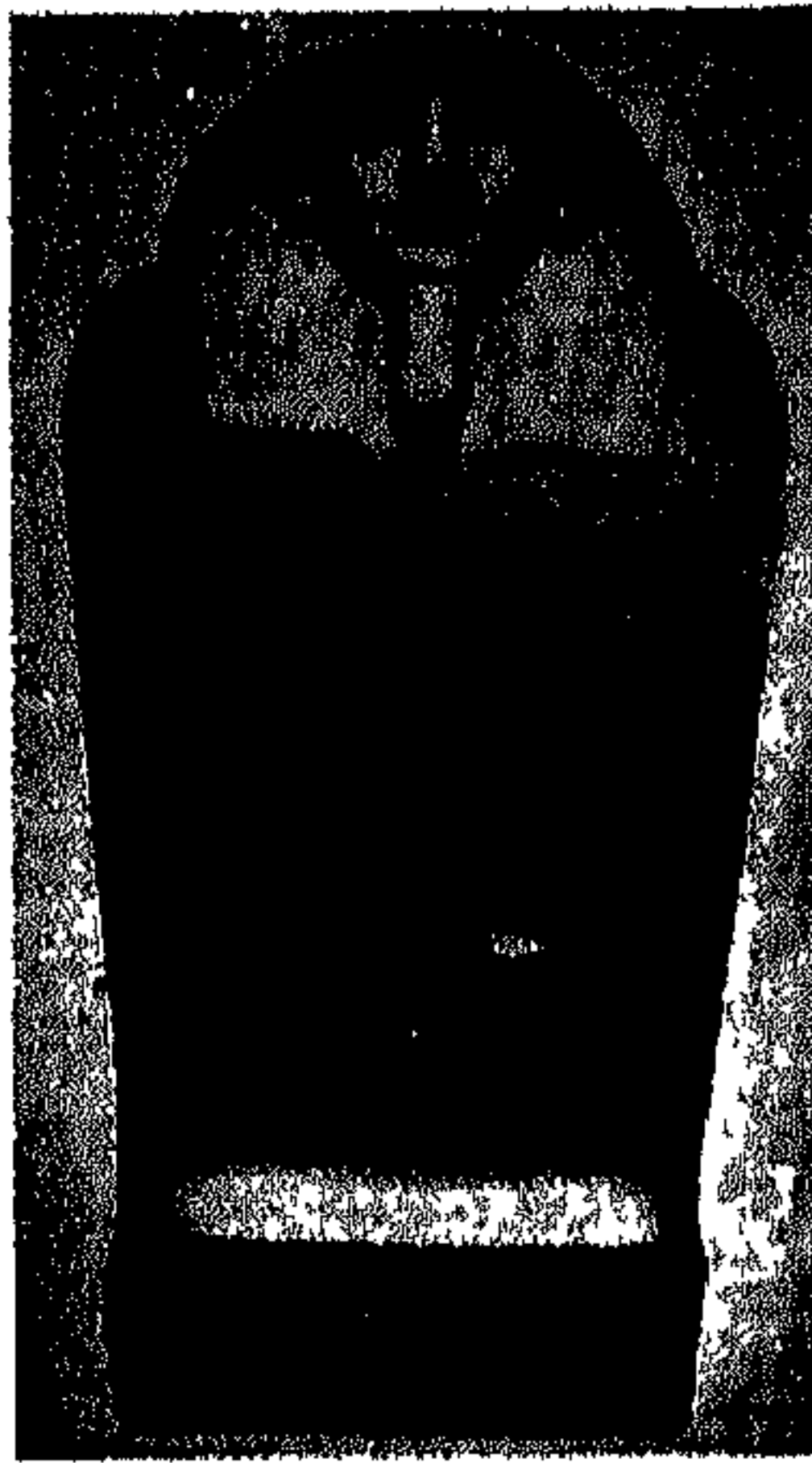


شكل (٢٨) : تصميم بالمخبر يرى فيه الطابع المصري واضحاً

أما ديانة السكسمانيين فشأنها شأن معظم الديانات القديمة تدور حول تقديس مظاهر السكون وعبادة الطبيعة ، فالجسو كان يمثل في نظرهم الإله الأب ، بينما تمثل الأرض الإلهة الأم . أما الإله الأعلى فكان يعرف

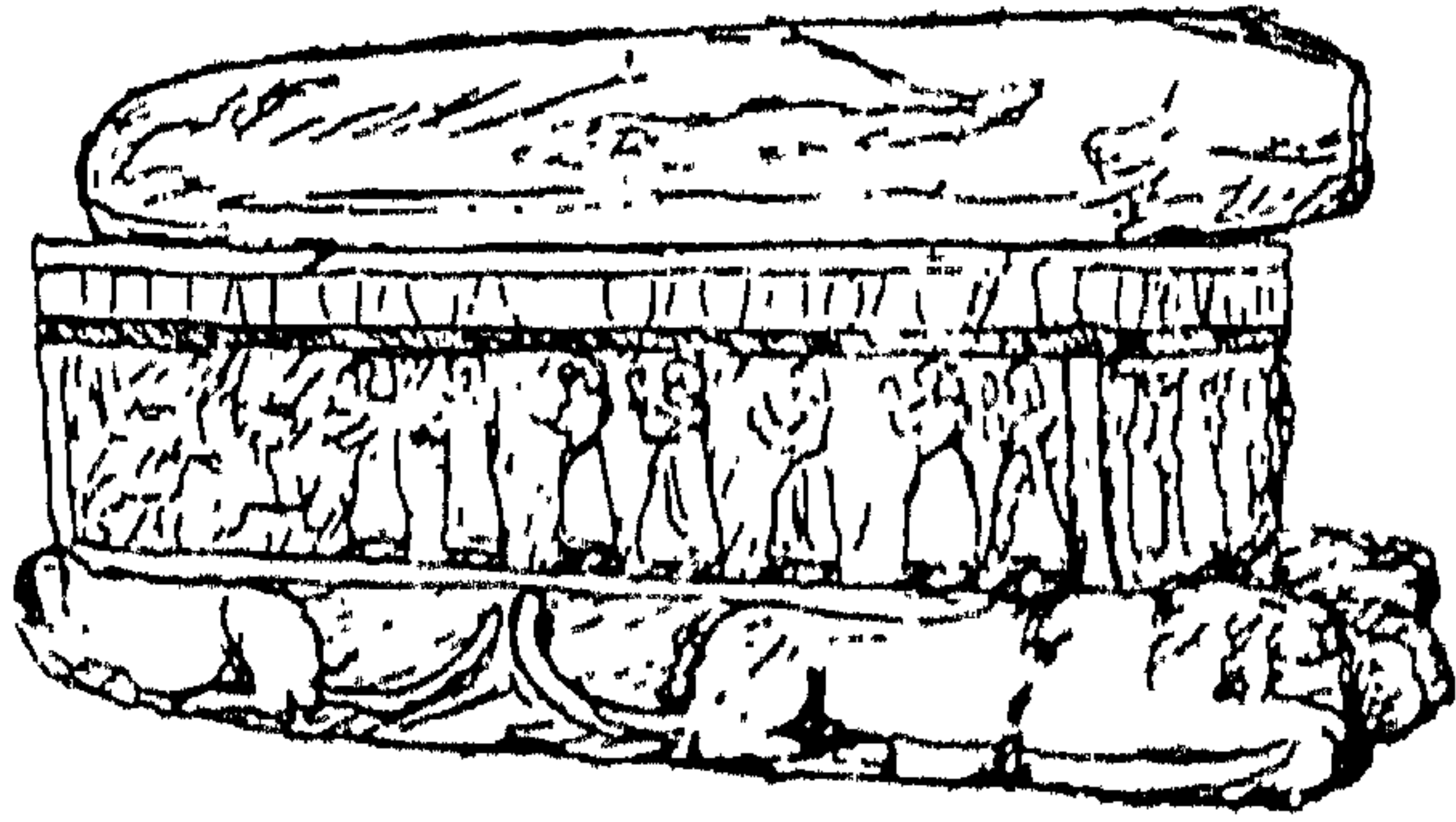
باسم «ايل» أو «عليان» وهو الذي يوحّد مع الإله «بعل» وكان يعد إله

المطر والمحاصيل ، وزوجته كانت الإلهة «باشرة» أو «عائرة» أو «عشترت» ،
التي عبدت أحيانا كالإلهة الأم ، ومن ألقابها «بعلة» أى «سيدة» - وهنا تعد
حامية لمكان أو مدينة معينة - ولقب ملكة السماء ولقب «عنات» وهذه كانت
تعد إلهة للحب والحرب ، وقد وحدها اليونان مع إلههم «افروديت» ،
والرومان مع إلههم «فينوس» ، وقد عبد المصريون إلهتهم «رشف» كما أنهم
أخذوا عن المصريين عبادة الإله «بس» - وقد وجدت آثار معابدهم
فى أماكن مختلفة وهى لا تخرج عن مذبح صخرى ونصب مقدس قائم
إلى جوار عمود أو شجرة ممتدة وغرف تحت سطح الأرض ومصاطب
يغسل عليها المتعبدون أقدامهم قبل تأدية الطقوس وفى بعض الأحيان كان يوجد
مكان مرتفع فى مؤخرة المعبد - أما قدس الأقداس فىوضع فوقه رمز
أو تمثال الإله ، وكانوا يستخدمون تماثيل صغيرة كتماثيل لها قدرة سحرية ،
كما أنهم أحيانا كانوا يجعلون أماكن للعبادة فى الهواء الطلق على رؤوس



شكل (٢٩) : تابوت فى هيئة آدمية لآحد ملوك صيدا

التلال أو الأماكن المرتفعة وهذه لا يوجد بها سوى مذبح وعمود أو حجر مقدس وكانت غالبا لعبادة الآلهة المحلية - واعتقدوا بالبعث إذ عثر على بعض أواني الطعام والشراب وأدوات الزينة والأسلحة مع الموتى ، ويظهر أنهم تأثروا في ذلك بما كان متبعسا في مصر بل وكانت بعض توابيتهم في الهيئة الآدمية كالتوابيت المصرية (شكل ٢٩) ، وقد زينت بنقوش وكتابات دينية ومنها نقوش تمثل الموكب الجزى بها فيه من نائمات وحلة للتقاربين (شكل ٣٠) ومنها نقوش تصب اللعنات على من يحاول الاعتماد على التوابيت أو لإزعاج الميت ، وقد ظلوا يمارسون عادة التضحية بالأطفال عند تأسيس المباني الجديدة وهؤلاء كانوا يدفنون في أواني فخارية كانت توضع تحت أرضية المنزل .



شكل (٣٠) : تابوت لملك من ببلوس مينا عليه الموكب الجزى

ج - الآراميون : هم الجماعة السامية التي هاجرت من شبه جزيرة العرب حوالى منتصف الالف الثانى قبل الميلاد . وقد استقروا فى أواسط الفرات واقتبسوا من جيرانهم بعض المظاهر الحضارية ، والظاهر أنهم كانوا من جماعات عرفت بأسماء مختلفة وربما كانوا من بين أولئك

الذين عرفهم الاموريون باسم «أخلامو» ، ومعناها الرفاق وهي التي أطلقوها على عدد من القبائل المتحدة ، وقد سادت العناصر الآرامية في قسم كبير من بلاد النهرين وشمال سوريا ووسطها خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد غير أنه كانت توجد بينهم بعض الجيوب الحيثية ، ولم يتمكنوا من التوسع غربا لوقوف جبال لبنان حائلا دون توغلهم عبرها - ومع أنهم اقتبسوا من حضارات جيرانهم إلا أنهم احتفظوا بلغتهم بل وانتشرت هذه اللغة في الاقطار المجاورة ولعبت دورا هاما في ثقافتها .

ويبدو تأثر الآراميين بحضارة الشعوب المجاورة واضحا في شمال سوريا إذ تأثر الآراميون هناك بمظاهر الحضارة الحيثية وكانت عاصمتهم في مظهرها لا تختلف كثيراً عن المدن الحيثية ، وقد ذكر أحد ملوكها على تماثيل أقامه للإله «حدد» بأنه كان يحرص أن يوفر السعادة لشعبه وأن بلاده ازدهرت فيها زراعة الشعير والقمح والثوم والكروم ويفتخر ابن هذا الملك في نص له بأن والده زاد في فخامة البلاط الملكي كما أن هذا الابن نفسه عاش في أبهة لا تقل عن أبهة ملك آشور الذي خضع له .

وكما اشتهر الفينيقيون بالتجارة البحرية اشتهر الآراميون بالتجارة البرية وأرسلوا قوافلهم إلى جميع الاقطار المجاورة وتاجروا في الأرجوان من فينيقيا والمطرزات والكتان والنحاس والابنوس والعاج من افريقيا واللؤلؤ من الخليج العربي - وكان نتيجة هذا النوسع التجاري أن نشروا لغتهم في مختلف البلدان فأصبحت لغة رسمية إلى جانب كونها اللغة العامة

للتجارة ، بل واستعملت كلغة رسمية في الامبراطورية الفارسية وكان انتشارها سببا في انتشار الالبجدية الفينيقية التي استخدموها فكانت هي لغة المسيح وأتباعه وكتبت بها بعض الصلوات ثم تفرعت الى مجموعتين، شرقية في وادي الفرات ومنها السريانية ، وغربية ومنها التورائية والتدمرية وغيرها .

أما عن ديانتهم فقد كان الإله « حدد » أهم معبوداتهم وهو إله الزوابع والرعد وكان محبوبا بصفة خاصة بين المزارعين لأنه كان يرسل المطر - وقد امتزجت عبادته بعد ذلك بعبادة الشمس وكانت رفيقته الإلهة « أثارجاتس » تعد الإلهة الأم وكان يرمز لها بالهلال وقرص الشمس وانتشرت عبادتها في فلسطين ثم انتقلت الى الرومان بعد ذلك - وإلى جانب هؤلاء كان هناك عدد من الآلهة الثانوية بعضها محلي والبعض الآخر انتقلت عبادته من الأقطار المجاورة مثل الإله « شمش » وهو من آشور والإله « رشف » وهو من فينيقيا ، وغيرها .

د - العبرانيون : هم الجماعات السامية التي جاءت مع الآراميين في نفس الوقت تقريبا وقد وصلوا إلى فلسطين بعد أن ذهبوا الى جنوب بلاد النهرين ثم إلى وسطها ، وقد هاجرت جماعة منهم إلى مصر ثم خرجت منها بقيادة موسى وبعدئذ أخذ كيانهم يبدو في فلسطين بوضوح وعند قدمهم كان سكان فلسطين عبارة عن جماعات كنعانية وجماعات غير سامية إلى جانب قدامى العبرانيين الذين لم يكونوا قد هاجروا إلى مصر وقد اندمج هؤلاء الآخرون معهم ، وأصبح القادمون الجدد يكتفون حياتهم حسب مقتضيات ظروف بيئتهم الجديدة وأرادوا

محاكاة جيرانهم الذين كانوا يعيشون في ممالك خاصة - وأتيحت لهم فرصة ذلك عند اشتداد الحرب بينهم وبين الفلسطينيين فأنشأوا ملكية لهم يمكن اعتبار تأسيسها بداية تاريخ الأمة العبرية وإن كنا نعتقد بأنهم لم يحرصوا على قوميتهم بل ولم يخلصوا تماما لملكيتهم ، فقد تركوا لغتهم السامية القديمة واتخذوا لغة الشعب الذي عاشوا بين ظهرانيه فاستعملوا لغة الكنعانيين وأبجديتهم ولم يكن لهم أدب إلا بعد أن تعلموا فن الكتابة من جيرانهم كما أنهم ظلوا محتفظين بنظامهم القبلى فيما يختص بالشؤون الإدارية ولم يحكم الملك بينهم إلا حسب أوامر «يهوا» (الرب) كما يعلنها الصالحون منهم - ومهما كان الأمر فإنهم كانوا أصلا من البدو ولم يحترفوا الزراعة إلا بعد استقرارهم في الاراضى الخصيبة ، ومع هذا ظل سكان المناطق المرتفعة منهم يعتمدون على الرعى كورث أساسى لهم ، وقد ارتبطت حياتهم الزراعية بكثير من الافكار والقصائد التى لم يكن لهم بها عهد ومارسوا الأعمال والطقوس التى اعتبرت ضرورية للخصب وضمان محصول طيب فكانوا يضعون بأحد الحيوانات ويقدمون قربانين للعبد من المحاصيل والماشية ويرقص ملكهم أمام تابوت العهد - واعترفوا بالآلهة المحلية التى تتعلق بالخصب والنماء بصفة خاصة إلى جانب معبودهم يهوا ولذا كانت بعض العبادات والطقوس الكنعانية القديمة منتشرة بينهم ، بل وأصبح الإله الكنعانى بعل فى بعض الفترات منافسا قويا للمعبود يهوا ، وكانت فكرتهم عن الحياة الأخرى شبيهة بالفكرة لدى الكنعانيين ومعظم الأمم القديمة فى المنطقة إذ كانوا يدفنون مع موتاهم بعض الأدوات التى كانوا يستخدمونها فى حياتهم اليومية .

ولم يقتصر تأثير العبرانيين بالسكنانيين على المظاهر الدينية فحسب بل تأثروا كذلك بالكثير من المظاهر الحضارية الأخرى ، ففي العمارة نجد أن أقدم أثر ديني لهم هو هيكل سليمان قد خطط على نمط معبد كنعاني وزخرف بزخارف كنعانية ولم يشيده معماريون من العبرانيين أنفسهم بل من السوريين - وكان القصر الملكي في أورشليم من عمل صناع فينيقيين أيضا وزخرف بزخارف تمثل رموز الحياة المأخوذة فكرتها مما وجد لدى الآشوريين والسوريين القدماء ، فهي تمثل حيوانات لها رؤوس بشرية تحرس شجرة الحياة

وقد تعددت آلات الموسيقى التي استخدموها في طقوسهم الدينية وفي حياتهم العادية ومعظمها من آلات كانت مستعملة في سوريا قبل وصولهم إليها ، كما يرجح أن التوازي والمطابقة في الشعر العبري كان معروفا عند السكنانيين أيضا - ونظراً لما عرف عنهم من حرص بصفة عامة فإلهم برعوا في قطع الأحجار الكريمة ، ومع هذا فإن من المرجح أنهم اتبعوا في حلبيهم بل وفي ثيابهم وخزفهم النماذج والأساليب الكنعانية - ومن صفاتهم الماثورة حبهم للإفادة وجمع الثروة ولذا عملوا على رقى الزراعة والصناعات المتعلقة بها بغية ازدياد التبادل التجاري بينهم وبين جيرانهم .

ويعد الدين المظهر الوحيد الذي أسهموا به في مضمار الحضارة ، ومع هذا يمكن أن يدرس العهد القديم على أنه مؤلف أدبي ويمكن مقارنة الشريعة الموسوية بقانون حمورابي في كثير من المواد غير أنها تمتاز بها فيها من عناصر أخلاقية لم يرد مثالا في الشرائع السابقة ، وكان كهنتهم

يقومون بالطقوس الدينية ويعبدون وسطاء بين الإنسان وربه ، ومن هؤلاء من امتازوا بالحكمة وبلغوا مرتبة عالية في التفكير وقد عرفوا باسم الانبياء - وكانوا يهدفون إلى رقي الفرد وسلامة المجتمع فربطوا بين الدين والأخلاق ونادوا بعبادة إله واحد ، واعتبروا قواعد السلوك كأوامر إلهية - وقد مرت التوراة بمراحل متعددة بدأت بالرواية التي يتناقضها الخلف عن السلف ثم انتقلت إلى مرحلة التدوين وفيها جمعت من مدونات تاريخية قبل السبي وبعده وقد تعرضت للتنقيح وحذفت منها بعض الأمور كما ضاعت أثناء الجمع بعض الأسفار التي اكتفى بالإشارة إليها أثناء النسخ - وإلى جانب التوراة وجدت مجموعة من التواعد والأحكام والوصايا والشروح والتعاليم ظلت تنقل مشافهة عن طريق الرواية ثم دونها علماءهم لتكون دستوراً لهم ، وقد عرفت هذه باسم « التلمود » - وقد انقسم العبرانيون تجاه التلمود فمنهم من لم يعترف بغير التوراة وأنكروه وهؤلاء هم « القراءون » ، ومنهم من اعترف بالتلمود واعتبر أنه موحى به إلى من كتبوه وهؤلاء هم « الربانيون » .

وينبغي أن نلاحظ بأن هناك تلمودان : أورشليمي وبابلي ، والأورشليمي هو ما وضعه أحبار أورشليم ويحتوى على ٣٩ بحثاً بالعبرانية وقد كتب ابتداء من القرن الثاني إلى القرن الرابع الميلادي ، أما التلمود البابلي فقد بدىء في بغداد في أواخر القرن الخامس ويشمل ٣٦ بحثاً بالآرامية وبه بعض الشروح العبرانية ولكنه أربعة أضعاف الأورشليمي وهو المتداول بين اليهود - ويتألف التلمود من « المشنة » أى المتن أو الشريعة وهى التي تشتمل على الأحكام الدينية المكلمة لشريعة موسى وتفسر ما يلتبس فهمه منها « والجمارا » وهى الشرح والتعليق .

رابعاً : آسيا الصغرى

بالرغم مما روى فى أشعار هومر عن طرواده وفى الكتاب المقدس عن الحيثيين فإن العالم المتحضر ظل لا يعلم شيئاً يذكر عن تاريخ وحضارة آسيا الصغرى - ومع أن الرحلات الاستكشافية إليها بدأت منذ عام ١٧٦٤ إلا أن الجهود الأثرية فيها لم تبدأ إلا حوالى سنة ١٨٧٠، حينما أخذ شليمان يبحث عن آثار طرواده، ولو أن هذه الآثار كانت تمثل مظاهر حضارية أقرب لتلك التى سادت فى اليونان منها إلى تلك التى سادت فى بقية أنحاء آسيا الصغرى التى أخذت أنظار الباحثين تتجه إليها بعد ذلك - وقد أمكن التوصل إلى أن النقوش التى كانت على بعض الأحجار التى عثر عليها فى حلب وتلك التى كانت على الصخور فى جهات مختلفة من آسيا الصغرى ترجع إلى الحيثيين الذين عرفوا فى النصوص المصرية وفى الكتاب المقدس باسم « خاني » كما أمكن التوصل إلى معرفة الكثير عن الحضارات التى سادت فى شبه الجزيرة قبل عصرها التاريخى .

وقد تبين للباحثين أن مركب الحضارة فى آسيا الصغرى لا يمثل سلسلة متكاملة وأن هذه الحضارة لم تتدرج فى تطورها منذ أقدم العصور دون أن تنتابها تأثيرات مفاجئة ، غير أنه من الممكن إجمالاً القول بأن العصر التاريخى يبدأ فيها بظهور الكتابة التى انتشرت بين طوائف من التجار الآشوريين الذين وفدوا إلى الأناضول حوالى سنة ١٩٠٠ ق.م ، ومن رسائلهم ويومياتهم عرفنا أن البلاد كانت تنقسم إلى إمارات يحكمها أمراء محليون ، وكان بعض هؤلاء يحملون أسماء هندو أورية ويدعو

هذا الى الظن بأن الحيثيين جاءوا غزاة الى شبه الجزيرة واستقروا بها وخاصة لأن النصوص الحيثية المسماة كانت تختلف في لغتها عن النصوص المسماة التي سبقتها والتي أدخلها التجار الآشوريون - كذلك يبدو واضحا أن مظاهر حضارية متشابهة بصفة عامة سادت في أنحاء شبه الجزيرة منذ أن سيطر عليها الحيثيون ، وعلى هذا فإن مظاهر الحضارة الحيثية تمثل بشيء من التجاوز المظاهر التي سادت في شبه الجزيرة - وبها أن الحيثيين ينتمون إلى عناصر هندو أوروبية فإن حضارتهم وإن تأثرت بحضارات جيرانهم يغلب عليها طابع يختلف عن طابع حضارات الشعوب السامية المجاورة ، ومن دراسة مخلفاتهم الحضارية يتضح لنا أن الحيثيين كانوا من أكثر الشعوب القديمة تقدما في النواحي التي تتميز بها الطبقات الحاكمة، فقد امتازوا في الشؤون الحربية والسياسية والقانونية ولكنهم لم يصلوا إلى مرتبة عالية في النواحي الدينية والأدبية - أما فنونهم فقد بلغت مرحلة متقدمة وإن كانت لم تصل إلى حد التفوق والعبقرية .

ومع أن هناك بعض الصعوبات التي تعترض الباحثين في دراسة الحضارة الحيثية كنشأة الهيروغرافية الحيثية وتفسيرها فإن من الممكن تتبع المظاهر العامة لتلك الحضارة .

الأسرة

يبدو أن عادات الزواج عند الحيثيين لا تختلف عن عادات الزواج في بلاد النهرين ، فمع أن الخطبة المصحوبة بهدية من الزوج المنتظر كانت خطوة أولية للزواج إلا أنها لم تكن إلزامية فكانت للفتاة حرية الزواج

من رجل آخر بموافقة والديها أو بدونها بشرط أن يعرض الخطيب الأول.
وكان الزواج يتم بعد حصول الفتاة على هدية من رجلها كما كانت
تأخذ صداقا من والدها - وإذا حدث عدم إتمام الزواج بعد ذلك كان
الطرف المذنب يعاقب بدفع تعويض مناسب ، وفي حالة الوفاة كان
يتحتم زواج الأرملة بأقرب المقربين للزوج المتوفى وربما كان الغرض
من ذلك هو تخليد عائلة المتوفى ، وقد انتقلت هذه العادة إلى العبرانيين.
ولم يكن الزواج من الرقيق غريبا بل معترف بشرعيته ، وكانت القوانين
الحيثية تجعل من رب الأسرة سيدها وراعيها وملكه على زوجته واضحة
وله حق تقرير مصيرها إذا ارتكبت خيانة زوجية .

ومع هذا فإن المرأة في بعض أجزاء آسيا الصغرى كانت تتمتع ببعض
الامتيازات الخاصة التي كانت على الأرجح من بقايا نظام أموى (لم تكن التبعية فيه
للأب) ساد تلك الانحاء في أقدم العصور .

ويبدو أن هذا النظام الأخير كان أكثر وضوحا في البيت المالك
إذ أن الممكة كانت تتمتع بدرجة كبيرة من الاستقلال ، وكانت الممكة الوالدة
بالذات ذات مكانة خاصة ولها من الألقاب ما تحتفظ به من طوال حياتها
ولا ينتقل إلى زوجة الملك الحاكم إلا بعد وفاتها - وكثيرا ما كانت
بشخصيتها القوية تسبب متاعب لابنها الحاكم ، أما في حالة وجود زوجها
على قيد الحياة فإنها تلعب دورا كبيرا في شئون الدولة ، فتذكر مع
زوجها في كل الوثائق الرسمية وقد تشترك في القيام بالطقوس الدينية
الرسمية أيضا.

الملك

من المرجح أن الملكية الحيثية كانت انتخابية في الأصل ، فرغم أن تعيين وريث العرش كان يتم أمام النبلاء إلا أنه كان لا يعد شرعيا إلا بعد إتمام هذا الإجراء الذى يفترض فيه أن يكون طلبا من الملك توافق عليه جماعة النبلاء ، وما يدل على ذلك أن تاريخ الدولة الحيثية كان مليئا بالفتن والثورات التى قام بها أقرباء الملك وكان تعيينه لخليفته علنا مدعاة للتخلص من بعض هذه الفتن - وفى النهاية وضع أحد الملوك (تيليبينوس)^(١) قانونا لوراثة العرش استقرت بعده الأمور فلم يحدث نزاع بين النبلاء فى هذا الصدد .

وقد تمتع ملوك الحيثيين بمكانة ممتازة ، وتدل ألقابهم على اعتقادهم أنهم أصحاب سلطان ونفوذ على غيرهم من الملوك الذين كانوا فى نظرهم أقل شأنا كما اعتبروا بأنهم يتمتعون بقوة خارقة وإن لم يؤلبوا فى حياتهم على الإطلاق أى أنهم لم يصلوا إلى مرحلة التقديس إلا بعد وفاتهم .

وكان الملك يعد القائد الأعلى للجيش والكاهن الأعظم والقاضى الأعلى فى الدولة ، وهو المسئول عن جميع المعاملات السياسية مع الدول الأجنبية ، وكان من الممكن أن ينب عنه فى هذه الشؤون من يقوم بدوره فيها إلا فى المسائل الدينية وحدها إذ كان الاعتقاد السائد بأن إهماله لمشل هذه المسائل كان يسبب نقمة الآلهة على الشعب .

(١) آخر ملوك الدولة القديمة الحيثية .

الإدارة

كان الحيثيون في أول الأمر يعتمدون في إدارة مجتمعاتهم الأولى التي نشأت في بقاع مختلفة على مجالس محلية تتألف من الشيوخ التي تتولى الإشراف على كافة الشؤون الإدارية المحلية . أما في المراكز المقدسة فإن المعبد هو الذي يشرف على تلك الإدارة فكان الكاهن الأعظم يعد الحاكم المدني في نفس الوقت .

وقد احتفظ ملوك الحيثيين بهذا الحق فكانوا يشرفون على الأقاليم التي يستولون عليها وبعدئذ عهدوا بإدارتها لأبنائهم ، ولما ازدادت رقعة المملكة أنعموا بمثل هذه المناصب على بعض القواد الذين كانوا عادة من أقربائهم ، غير أن هذا التعيين كان مؤقتا في الغالب لأن أمثال هؤلاء كانوا لا يستطيعون النهوض بكافة الأعباء الملقة عليهم - وأخيرا دعت الضرورة إلى تعيين حكام دائمين يقيمون في الأماكن التي يعهد لهم بها ويدينون بالولاء للسلطة الملكية - والظاهر أن هذا النظام قد استهوى بعض الدويلات الصغيرة المجاورة فأخذت تنضم إلى الإمبراطورية الحيثية رغبة منها في المحافظة على كيائها من جهة ، ومن جهة أخرى كان حكامها يتمتعون بالكثير من الاستقلال في ظل الامبراطورية ، فالملك التابع لها هو الحاكم ذو السيادة داخل إقليمه - ولم يكن مفروضا عليه أن يمد الجيش الحيثي بمجنود في كل وقت يخرج فيه للحرب ولكنه كان ملزما برد اللاجئين من الحيثيين إلى وطنهم كما كان عليه أن يقدم إتاوة سنوية وفي نظير ذلك كان الملك الحيثي يضمن تولية الوارث الشرعي للحاكم على عرش البلد التي يحكمها ذلك الحاكم.

ولم تكن القوانين في المملكة الحيثية ثابتة دائما بل كانت عرضة للتعديل والإضافات مما يسد على أن الحيثيين لم يترددوا في إصلاح قوانينهم كلها دعت الحاجة لذلك ، كذلك يبدو أنها كانت تختلف باختلاف أنحاء الامبراطورية ، فما كان يطبق في جهة من الجهات لا يؤخذ به في جهة أخرى . وبما يلاحظ على النصوص القانونية التي عثر عليها أنها كانت في غالبيتها ترد على هيئة قضايا إقتراضية يتبعها الحكم المناسب مما يدعو إلى الظن بأنها كانت مأخوذة من أحكام المحاكم .

والظاهر أن هذه القوانين كانت في بداية الأمر تأخذ بمبدأ العين بالعين والسن بالسن ، ولكن كانت الأحكام في كثير من القضايا تقتصر في حالة الأحرار المذنبين على تكليفهم برد الشيء إلى أصله أو بالتعويض أما إذا كان الجاني من العبيد فقد تشمل الأحكام عقوبات جسدية تصل أحيانا إلى الإعدام - كذلك كانت القوانين الحيثية تفرق بين حدوث الذنب عن عمد وبين حدوثه عن غير عمد ولكنها كانت تعتبر حدوث جريمة في مكان ما واختفاء المجرم به أمر يعاقب عليه أهل المكان الذين يعتبرون مسئولين عن حدوث الجرم في مكانهم ، ويعتبر القانون الحيثي صارما في الأخذ بمبدأ المسئولية الجماعية في حالات عصيان أمر الملك لأن العقوبة تنفذ على بيت الجاني ، أى على أهل بيته وكل من فيه .

أما المحاكمات فكانت بسيطة الإجراءات إذ أن المنازعات كانت تنظر أمام الشيوخ الذين كانوا يشرفون على الإدارة المحلية ، وفي هذه الحالة كانوا يمثلون محكمة شعبية - وإلى جانب هؤلاء يمثل الدولة أحد ضباط

الملك الذى يتعاون مع السلطات المحلية فى إقامة العدل دون تحيز ، وفى حالات القضايا الكبرى التى تتطلب حكم الإعدام والقضايا التى يعجزون عن البت فيها لغرضها أو تلفيقها كانت القضية ترفع إلى الملك للبت فيها .

العسكرية

وصات الجيوش الحيثية إلى درجة كبيرة من الخبرة فى التاريخ القديم ، ومع ذلك فإننا نجهل الكثير عن تكوينها ووسائلها غير أنه من المرجح أن مشاة الجيش الحيثى كانت أكثر عدداً من جنود مركباته ، ومع هذا فإنهم كانوا يقومون بدور ثانوى نسبياً فى الميادين المفتوحة . أما المركبات الحيثية فكانت تختلف فى شكلها اختلافاً بسيطاً عن المركبات المصرية إذ أنها كانت تسع لثلاثة رجال بدلاً من اثنين أحدهما للهجوم والآخر للدفاع والثالث للقيادة (شكل ٣١) ، وسلاح الهجوم فيها هو الرمح والقوس ، وسلاح الدفاع هو الدرع - وإلى جانب المشاة والمركبات كانت هناك فرق خفيفة للمساعدة مهمتها الهجوم المفاجئ الذى يتطلب سرعة الحركة وكانت تسليح بالقسى والسهم - ومن النقوش المصرية يتبين لنا أن الجيوش الحيثية كانت تشمل أيضاً فرقاً للبهات وهذه تتمثل فى عربات ثميلة ذات أربع عجلات تجرها الثيران وعدد من الخيول المحملة بالاثقال وقد ورد فى النصوص الحيثية ما يدل على وجود جنود للمعمار - وكان الأمر لا يخلو دائماً من وجود عدد من الجنود المرتزقة .

ويتسلح الجندى الحيثى العادى بسيف قصير وفأس للقتال ويرتدى خوذة لها غطاء للأذن .



شكل ٣١ - عربة مصرية تهاجم عربة حيتية
(من نقش مصرى)

وقد أثبتت الجيوش الحيتية كفاءة ومهارة حربية إلا أنها كانت تعتمد غالبا على مبادأة العدو واستغلال قدرة العربات الحيتية إلى أقصى حد، وخير دليل على ذلك نجاحهم في موقعة قادش ضد المصريين في عهد « رمسيس الثانى » - وعند حصارهم لمدينة ما كانوا يلجأون إلى وسائل فعالة كضربها بالمنجنيق وإقامة روابى مرتفعة يحملون إلى أعلاها معدات الحصار . أما عن وسائلهم الدفاعية فقد أمدتهم الطبيعة بأما كن منيعة لا تحتاج إلا إلى تقوية بسيطة وخاصة عند سفوح الجبال والتلال حيث كان يكتفى بجدران سميكة مزدوجة تبني أمام الجزء المكشوف من التل والجدار الأمامى يكون عادة منخفضا عن الجدار الخلفى .

الديانة

يبدو أن المجتمعات المحلية الأولى التي نشأت في آسيا الصغرى كانت تحتفظ باستقلالها الدينى واستمرت أماكن العبادة فيها دون تماس بمعبوداتها ، وكانت سياسة الملوك تدعو إلى رفع شأن تلك المعبودات كما انتحلوا لأنفسهم وظيفة الكاهن الأعظم لها حيث يقوم الملك بموكب سنوى يزور فيه أهم مراكز العبادات التي يحتفل فيها شخصيا بأعيادها الرئيسية .

وقد جعل صيانة المعابد إحدى المهام الرئيسية التي يكلف بها حكام الأقاليم والقواد المحليين ، واستفادت أماكن العبادة بالطبع من وراء ذلك وزاد استقرارها وعظمت ثروتها - وما يذكر أن كل المراسيم والأوامر العليا للدولة كانت تصدر باعتبار أن الآلهة والإلهات جميعا تضمن نفاذها ومنعوليتها ، ولذا كان الكتاب يجمعون قوائم بجميع أسماء الآلهة المحلية تعامل فيها الآلهة المتشابهة معاملة واحدة وبذلك محاولات لترتيب هذه الآلهة على حسب أهميتها وعلى ذلك كانت الدولة والملكية تحت حماية مجموعة خاصة من الآلهة الشعبية العظمى التي كانت تقام لها طقوس خاصة بالعاصمة نفسها .

وقد وجدت نصوص بالتعايمات التي كانت تصدر إلى الكهنة وخدم المعابد ونصوص تبين ما كان يقوم به أعضاء البيت المالكة من مراسيم العبادة، وكلها تدل على أن الطقوس المتبعة كانت دقيقة للغاية - ومع أن بعض الأساطير التي وردت إلينا تشير إلى الأدوار التي كانت تقوم بها الآلهة إلا أن معظم هذه لم تكن من المعبودات الرئيسية للدولة ،

وحتى في حالة وجود بعض تلك الآلهة بين معبودات الدولة الرئيسية فإن أدوارها التي تنسب إليها كانت تختلف باختلاف النصوص - ومن المعبودات وخاصة الشعبية منها مالا نعرف عنها أو عن مراكز عبادتها إلا القليل .

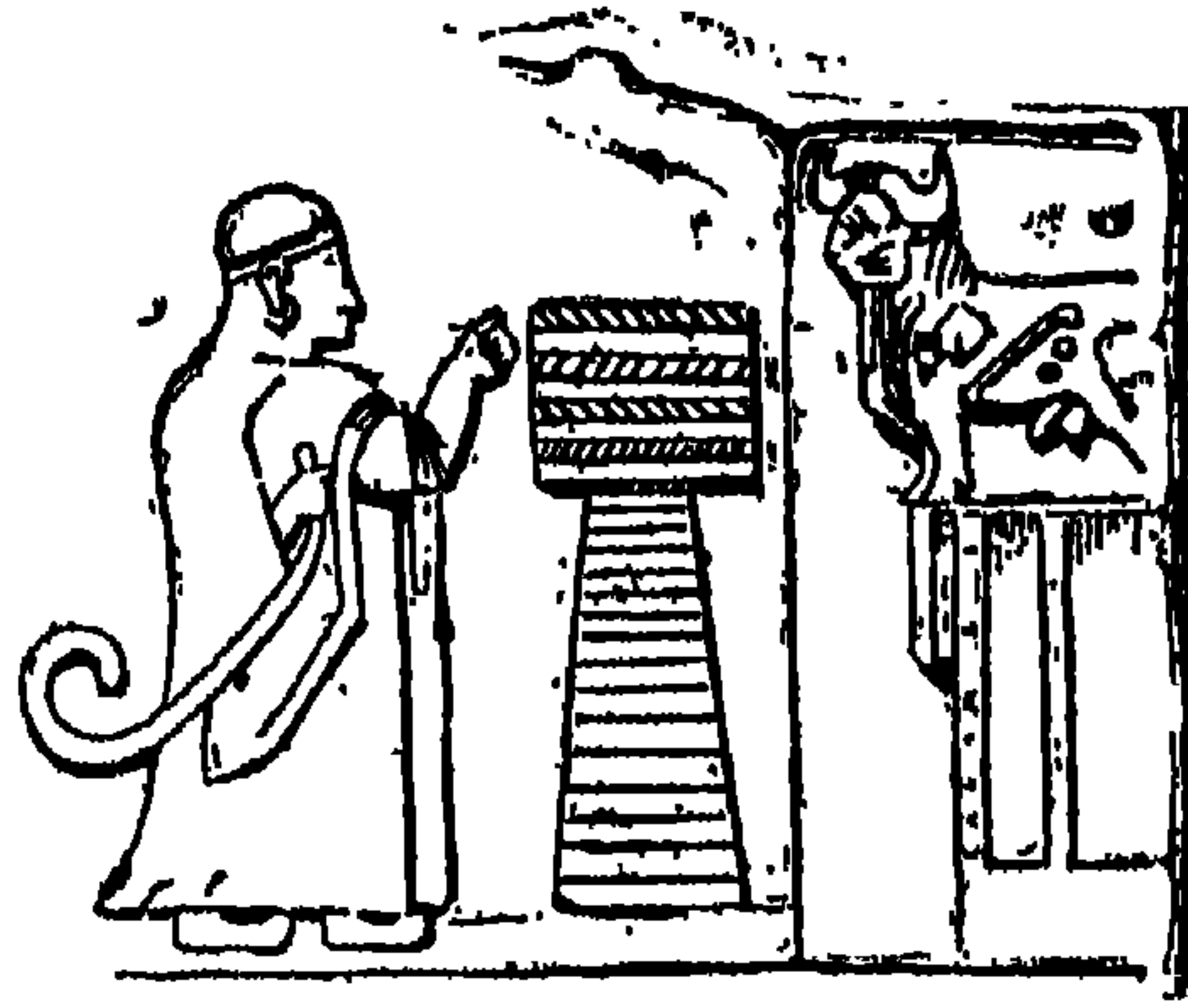
وتتميز معبودات الحيشين ببعض المظاهر حيث يحمل الإله سلاحا أو آلة أخرى في اليد اليسرى ورمز في اليد اليمنى وقد يزود بأجنحة أو زوائد أخرى أو يقف غالبا فوق حيوان مقدس (شكل ٣٢)



شكل ٣٢ - إله يقبض ويسراه على سلاح أو آلة
ويمناه على رمز وهو يقف على ظهر حيوان

وليس من الغريب في بيئة مثل آسيا الصغرى أن يكون إله الطقس إلها رئيسيا إذ انتشرت عبادته في عدد كبير من المدن وهو يمثل غالبا راكبا مركبة بدائية تجرها الثيران على رؤوس الجبال التي مثلت في هيئة البشر - وقد يرمز إليه بالثور الذي يصور واقفا وحيدا على مذبح (أنظر شكل ٣٣) ، وقد عبد في الجزء الجنوبي من آسيا الصغرى (أى في منطقة

طوروس والسهول الشمالية من سوريا) الذى كان يسوده الحوريون باسم « تيشوب » وكانت له زوجة تعرف باسم « خيبات » ، وهذه كانت لا تقل مكانة عن زوجها وقد مثلت فى هيئة سيدة تقف على أسد أحيانا ، وكان



شكل ٣٣ - ملك يتعبد إلى إلهة فى هيئة الثور

لها ولد يدعى « شاروما » - وإلى جانب هذه الآلهة وجدت آلهة أخرى فى هذه المنطقة منها الإلهة « شاوشكا » أى عشتار الحورية ، وبعض هذه الآلهة لم يعترف بها بين الآلهة الحيثية .

وفى قلب المملكة الحيثية أى منطقة الحيثيين الأصليين كان المعبود الرئيسى فى أغلب الظن هو إلهة الشمس بينما كان إله الطقس زوجها لها ويأتى فى المرتبة الثانية، ولهما ابنتان وحفيدة - أما إله الزراعة فقد اعتبر ابنا لإله الطقس وهو فى الأساطير الحيثية يشبه الإله أوزير فى الأساطير المصرية إذ بانسحابه تتوقف الحياة وبعودته تعود الحياة من جديد والمقصود من ذلك أن الشلل الذى يصيب الحياة الزراعية أثناء الشتاء

في آسيا الصغرى ترجمته الأساطير إلى انسحاب هذا الإله وعند عودته في الربيع تعود مظاهر الحياة من جديد .

وقد وجدت أسماء عدد كبير من الآلهة التي لانعرف عنها شيئا ، وربما كانت هذه أصلا من الآلهة المحلية عبت في المجتمعات المحلية الأولى التي كانت منفصلة بعضها عن البعض .

أما الدين الرسمي للدولة فقد شمل مجموعة من الآلهة ، فكانت إلهة الشمس تعبد على أنها مالكة « بلاد حاتي والسماء والأرض » ، « سيدة ملوك وملكات بلاد حاتي ومرشدة الحكومة » ، أي أنها كانت الحامية الرئيسية للدولة والملكية - ومع هذا فقد صورت الأساطير إله الشمس على أنه ملك الآلهة ، وهو يأتي على رأس قوائم الآلهة التي تذكر في المعاهدات فهو يعد إله الحق والعدل - ومن الغريب أن موقف إلهة الشمس غير محدد بالنسبة لهذا الإله الذي يرى البعض بأنه لم يكن أصليا في الأناضول بل جلب إليها من الخارج حيث يصفه أحد النصوص بوجود أسماك على رأسه ، كما أن أحد آلهة الشمس ذكر على أنه « إله الشمس في الماء » - وقد اعتقد الحيثيون كما اعتقد المصريون بأن إله الشمس يمر في العالم السفلي من الغرب إلى الشرق أثناء الليل، وبما يشير الدهشة كذلك أن إله الشمس لم يكن زوجا لإلهة الشمس بل كان زوجها هو إله الطمس لأن هذا الأخير كانت عبادته واسعة الانتشار وقد اعتبر « ملك السماء ورب بلاد حاتي » أي أنه كان هو الآخر حاميا للمملكة وإليه يعزى النصر في المعارك .

وكانت أماكن العبادة الحيثية تتخذ أشكالا عديدة : فمنها ما كان مكشوبا

به هيكل حجري - ومنها ما كان مبنيًا بالأحجار الضخمة وتتكون من عدة غرف حول فناء مرصوف ، ويفصل قدس الأقداس عن هذا الفناء حجرة بها فتحة تسمح للذين في الفناء برؤية تمثال الإله في محرابه الذي يقع في الجدار البعيد لقدس الأقداس وإن كان الوصول إلى هذا الأخير عن طريق باب في أحد الجدران الجانبية - ومن المعابد ما لا يمكن رؤية تمثال المعبود فيها من الفناء حيث أن الهيكل كان يقوم في أحد جوانب المبنى ، ومعنى هذا أن التعبيد لإله المعبد كان قاصراً على أقلية مختارة ، ولا يوجد أي نظام ثابت للاتجاهات في هذه المعابد - وكانت معابد بعض البلدان تعد مقر الحكومة المدنية في نفس الوقت ولذلك كانت تضم عدداً كبيراً من الموظفين المدنيين إلى جانب الموظفين الدينيين ، ومن جهة أخرى كانت هناك معابد صغيرة الحجم قليلة الأهمية بحيث يشرف كاهن واحد على عدد من هذه المعابد .

وكان المعبد هو بيت الإله والكهنة خدمه الذين يقومون يومياً بواجباتهم نحوه طبقاً لنظام ثابت يختص كل منهم بطقوس معينة ، وعلى العموم كان يفترض في كل منهم الطهارة التامة ولا يسمح لهم بقضاء الليل في المدينة وإلا تعرضوا إلى عقوبات تصل إلى الموت .

وبما أن الإله لم يكن مجرد رب للمعبد بل رب الشعب وسيده كذلك كان لابد من تقديم قربان وهدايا مختلفة رمزاً لاحترامه يقدمها الجميع استعطافاً له ، ويجب أن تكون ممتازة لا عيب بها - وهناك من الإشارات ما يدل على وجود عادة الضحايا البشرية .

وعندما يقوم الملك شخصياً بالاحتفال بعيد من الأعياد في أحد

المعابد تدون التعليمات التي تصف هذا الاحتفال وصفنا دقيقا من بدء تزين الملك واستعداده للخروج إلى هذا الاحتفال والسير في الموكب إلى المعبد ودخول زوجة الملك والحاشية إلى أماكنهم الخاصة وجلس الملك والملكة على العرش وهكذا إلى أن تنتهي الطقوس .

ومن الطبيعي أن الظواهر الطبيعية وغيرها من الأمور التي تفوق طاقة البشر كانت في نظر المجتمعات البدائية تخضع لقوى عظمى (آلهة) تسيطر عليها ، وهي غير مرئية وخالدة - ومع هذا كان من الصعب تصورهما في هيئة تختلف عن البشر أو على الأقل لها مشاعر البشر . وكان الحيشيون بالذات ينسبون إلى آلهتهم من السلوك ما يشابه سلوك السيد بالنسبة لاتباعه ، فمع أنه يجب رعايته وترضيته ومدحه إلا أنه لا يمكن الاعتماد عليه دائما في رعاية مصالح أتباعه فقد يتضى بعض الوقت في النوم أو التسلية أو الرحيل أو الانشغال بمسائل أخرى تجعل الإهتمام إليه للمساعدة عبثا ، بل وقد تكون له تصرفات خاطئة غير حكيمة ولذا تفسر المصائب التي تحمل بالإنسان أحيانا لا على أنها عقاب عن ذنب جناه وإنما على اعتبار أنها نتجت عن إهمال الإله لأن الأرواح والشياطين الشريرة تعمل دائما على الإفادة من عدم تيقظ الإله الحامي للإنسان - ولذا كان من صلوات بعض الملوك للآلهة في مثل هذه الحالة ما ينهى باللائمة على الآلهة بل والتهديد بالعجز أو التقصير في خدمتها وتقديم القرابين لها - أما إذا كانت المصائب كعقاب عن ذنوب فلا بد من الاعتراف بها والتكفير عنها ، وفي هذه الحالة كانوا يلجأون إلى العرافة والتنجيم واستشارة الوحي في خير الطرق لإرضاء الآلهة .

وكانت العادة عند الدفن أن يحرق جسد المتوفى ثم تطفأ النار بالجمعة والنبيل ثم تحضر بعض النساء لجمع العظام ويغمسها في شراب خاص ثم يضعنها في زيت طيب في جرة فضية ، وبعد ذلك يخرجنها ثم تلف في السكتان وتوضع على كرسي ويقدم الطعام لمن جمع العظام كما يقدم الشراب لهم ولروح المتوفى ثلاث مرات وتصحب ذلك التضحية ببعض الماشية - ولا شك في أنه كان هناك فرق بين ما يتبع في دفن الملوك وما يتبع في دفن الأفراد كما أن من المرجح أن ملوك الدولة القديمة لم يمارسوا حرق الجثث .

أما الأساطير الحيثية فتنتقسم إلى قسمين أحدهما يتعلق بالقضاء على قوى الشر ويتلخص في أسطورة تسمى « ذبح التين » ومؤداها أن التين انتصر في أول الأمر على إله الطقس حسب رواية من الروايات وأنه لم يكتف بذلك بل أعجز إله الطقس بالاستيلاء على قلبه وعينه حسب رواية أخرى - ولكن بمعاونة آلهة أخرى وبالحيلة استطاع إله الطقس أن ينتصر في النهاية ، وربما كانت هذه الأسطورة تتلى في الاحتفال السنوي بالربيع وهي تشبه إلى حد كبير أساطير أخرى انتشرت في أجزاء أخرى من الشرق الأدنى القديم كانت تتلى أيضا في احتفالات موسمية - أما القسم الثاني فيتملاق بمودة الحياة إلى الأرض وهو يتمثل في أسطورة تعرف باسم « أسطورة الإله المفقود » وهي تتلخص في أن الحياة تتوقف على الأرض بسبب اختفاء إله الخصب ثم البحث عنه وبإعادته إلى بيته تعود الحياة إلى الأرض ، وتمثل الأسطورة إله الخصب على

أنه ابن إله الطقس وأن هذا الأخير قد افتقده في وليمة دعا إليها إله الشمس العظيم الآلهة الأخرى ولكن هؤلاء لم يشبعوا ولم يشعروا بالارتواء ، فأرسل إله الشمس رسولا لكي يحضره ولكنه لم يجده ، وقد أمر إله الطقس بالذهاب بنفسه للبحث عنه وإحضاره ولكنه عجز عن ذلك وفشل في إخراج ابنه من مدينته وأخيراً عاد هذا الإله غاضباً ثائراً إلا أن أحد الآلهة هداه بسلسلة من التعاويذ السحرية حتى عاد إلى مكانه في معبده وأبعد كل ما من شأنه إيقاف الخصب .

وإلى جانب هذه الأساطير توجد أساطير أخرى ولكنها من أصل أجنبي غالباً وتقل أهمية عن تلك التي أشرنا إليها .

الحياة الاقتصادية

تتنوع مظاهر البيئة في آسيا الصغرى ، فالهضبة الوسطى يصعب الاستقرار فيها إلا في أودية الأنهار ، أما على الجبال فالجبال للاستقرار محدود للغاية لخلوها من الأشجار وشدة البرودة وقسوة المناخ فيها ، وعلى هذا فإن الموطن الذي استقر فيه الحيثيون كانت تكثُر به القنوات والأودية اعتمد في حياته الاقتصادية على الزراعة قبل كل شيء - وما يؤيد ذلك أن القوانين الحيثية حفلت بالكثير من المواد المتعلقة بالزراعة وما يرتبط بها - غير أن سلاسل الجبال الضخمة سرعان ما ظهرت مواردنا وكان غناها بالمعادن سبباً في استغلالها ، فالتجار الآشوريون الذين عاشوا في

منظمة دكبدوشيا ، كانوا يصدرون النحاس ، كما أن الفضة كانت متوفرة إلى درجة سمحت باستخدامها كعملة - ومع أن الحديد كان متوفراً أيضاً إلا أن العجز عن صهره وتنقيته لم يجعله شائع الاستعمال فكان يستعاض عنه في صناعة الأسلحة بالنحاس والبرونز ولهذا عد الحديد من المعادن الثمينة ، ورغم أن النصوص تشير إلى سيوف وألواح كتابة وتمائيل حديدية إلا أن ما عثر عليه من هذه كان نادراً - ومن المحتمل أن تلك المصنوعات كانت تقدم كهدايا ملكية ولم يتقنها إلا عدد قليل من الصناع .

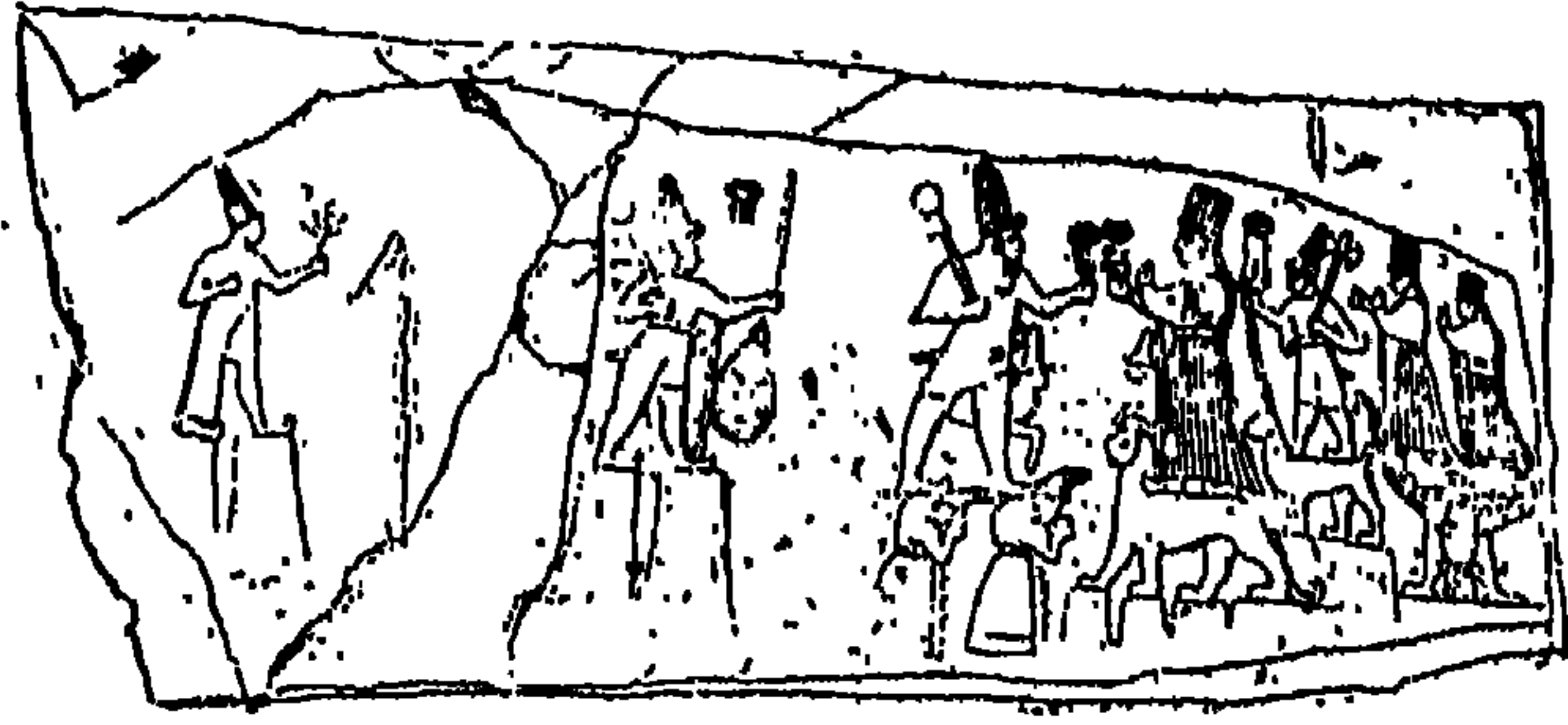
وكان وجود مثل هذه المعادن سبباً في نشاط التبادل التجارى بين آسيا الصغرى وغيرها من الأقطار ، فبعض النصوص تشير إلى انتقال التجار الحيشيين إلى خارج بلادهم كما أن بعض المعادن وخاصة النحاس كانت تصدر إلى بلاد النهرين في مقابل المنسوجات والصفائح .

العلوم والفنون .

بما لا شك فيه أن اللغة الحثية كانت ماثراً جدل كثير ولم تعرف صلتها باللغات الهندو أوروبية إلا بعد فترة طويلة من البحث ، وقد تبين أنها فعلاً من اللغات الهندو أوروبية بصفة مؤكدة منذ عهد قريب وإن كانت تحتوى على بعض الألفاظ الأجنبية - ويبدو أن هذه اللغة لم تستخدم في المكاتبات الرسمية إلا قليلاً واستخدمت بدلاً منها لغات أخرى ، ومع هذا فإن بعض الكتابات وخاصة تلك التى تعرف باسم الهيروغليفية

الحيشية لم يمكن تفسيرها تفسيراً مرضياً حتى الآن ، بل وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن أمثال هذه الكتابات كانت عسيرة الفهم بالنسبة للحيشيين أنفسهم حتى أنهم أضافوا بعض الفقرات كترجمة حيشية بين السطور لمساعدة الموظفين على تفهم هذه الكتابات - وبالطبع فإن لغة هذا شأنها واختلافها الواضح عن لغة الكلام كانت لا تيسر رقى العلوم والمعارف . والظاهر أن قيام الدولة على أساس مجدها العسكرى لم يتح الفرصة لوجود نهضة أدبية كبيرة فقد عثر على قصص بسيطة بدائية ، كما أن بعض الروايات والأساطير والقصص القصيرة أيضاً ترجع إلى أصول بابلية وحمورية - ولم يترك الحيشيون مع الأسف ما يعطينا فكرة عما توصلوا إليه في المعارف المختلفة كالهندسة والفلك والطب وغيرها .

أما في الفنون فإن أقدم ما عثر عاينه لا يستحق الذكر وبخاصة لأنه من إنتاج مستوطنين يرجح أنهم كانوا قبل مجيء الحيشيين - ولا يمكن أن نعتبر المنتجات الفنية حيشية إلا بابتداء عهد الامبراطورية تقريبا . ففن النحت لم يبدأ إلا مع الامبراطورية ومع ذلك فإنه لم ينته بزوالها ، ومن المرجح أن الحيشيين تأثروا في بعض أساليبهم الفنية بما كان متبعاً في شمال بلاد النهرين وسوريا . وقد بلغ فن النقش مرتبة عالية في التطور - ومع هذا فإن الاختتام الاسطوانية التي كانت تستخدم في حفر الرسوم على الألواح الطينية كانت من اختراع بلاد النهرين . وعند بداية المملكة الحديثة ظهرت نقوش غائرة على الحجر يصاحبها خط ميروغليفي . وبما يلاحظ أن الفنان كثيراً ما يلجأ إلى تمثيل الأشخاص متجهين سواء في موكب أو موكبين نحو نقطة واحدة (شكل ٣٤) ، وقد اتبع الفنان طريقة الرسم التي



شكل ٣٤ - اتجاه المواكب نحو مركز واحد

كانت سائدة لدى معظم الشعوب البدائية إذ كان يصور الأشخاص بحيث يبدو الجذع من الأمام والرأس والأقدام من الجانب ، وربما كان هذا الوضع أيسر طريقة للتعبير عن أقرب الأشكال تمثيلاً لصاحبه - وعند تصوير مجموعة من الأشكال كانت القاعدة التقليدية تظهرهم وكأنهم يسرون قدماً إلى الأمام نحو مركز معين - وقد أخطأ الفنان الحيثي كما أخطأ الفنان المصري في تصوير حركة الأشخاص بأن جعل الذراع اليسرى تمتد مع القدم اليسرى في حالة جعل هذه الأخيرة تمتد إلى الأمام تمثيلاً للبدء بها في السير وهو وضع غير طبيعي (لاحظ حركة الأشخاص في الشكل السابق) ومن الملاحظ عموماً أن أشكال الأشخاص والحيوانات والكائنات الأخرى تبدو غالباً كأنها مضغوطة الأعضاء أو بعبارة أخرى تتميز بالقصر والامتلاء أو عدم التناسق (شكل ٣٥) ، وربما يوحى ذلك بأن الفنان الحيثي القديم كان خاضعاً لتقاليد لم يستطع التحرر منها ، ومن المرجح أن هذه التقاليد ترتبط ببعض النواحي



شكل ٣٥ - موكب يرى فيه أشخاص يغلب عليهم القصر
وعدم تناسق الأعضاء

الدينية - وبما يؤيد ذلك أن كثيراً من الأشكال التي صورها كانت تبين
أشكالاً خرافية ، ومن هذه تمثال كائن يمثل قرصاً مغطى برسوم
هندسية تعلوه رقبة طويلة أو رقبتان أو ثلاثة تنتهي كل منها برأس



شكل ٣٦ - تمثال غريب اختصرت رأساه فلا تبدو منها سوى العينين

وقد تختزل الرأس فتصبح في هيئة عينين فقط (شكل رقم ٣٦) ، وربما كان الحيشيون يتصورون أن نقوش وتماثيل الكائنات الحقيقية والخرافات التي خلفوها تهيء لهم تحقيق أغراض سحرية ، ومن هذه تماثيل في هيئة أسود وأخرى في هيئة أبوالهول بوجوه آدمية (شكل ٣٧) ، كذلك منها أشكال بمنحة



شكل ٣٧ - تماثيل بمنحة لأبوالهول

قد يكون لها أكثر من رأس أحيانا (شكل ٣٨) وبعضها كان يفترض فيها أنها كانت قائمة عند مداخل المعابد أو القصور للحماية والبعض الآخر يفترض أنها تمثل بعض الآلهة .



شكل ٣٨ - نقش حيوة من قرقيش

خامسا - بلاد النهرين

مع أن بلاد النهرين حظيت باهتمام الأثريين والباحثين منذ قتره طويلة نسيا إلا أن ما كتب عنها حتى عهد قريب لم يخرج عن كتابات بعض الرحالة الذين شاهدوا أطلالها ووصفوها ، وقد بدأ بعض هؤلاء الرحالة فضلا عن ذلك في نسخ بعض الكتابات التي شاهدوها على اللوحات في بعض الأماكن الأثرية - ومن أهم هؤلاء عالم النبات ميشو Michaud ، الذي زار العراق وفارس في ١٨٧٢ م وحمل معه أثرا بابلياً منقوشا عشر عليه جنوب بغداد حاول بعض الباحثين قراءته دون جدوى - وتوالى بعد ذلك الاهتمام بآثار بلاد النهرين وبذلت جهود كثيرة في دراسة أماكنها وجمع التحف منها ، وقد حاول بعضهم مقارنة ما كتبه هيرودوت وغيره من اليونان بما شاهدوه من أطلال بابل ، وفي عام ١٨٢٧ م قام أحد الانجليز بأول حفائر وعثر فيها على بعض اللوحات الفخارية والاختام الاسطوانية والنقود ، وبعدئذ تتابعت الجهود ولكنها كانت في أول الأمر لا تتم بطريقة علمية بل كان الهدف منها الحصول على ما يمكن الحصول عليه من آثار وتحف ، وكان معظم المنقبين من قناصل الدول الأجنبية أو ممثليهم - ومن نهاية القرن التاسع عشر بدأت التنقيبات المنتظمة تأخذ دورها حتى عصرنا الحالي وقد بدأها الألمان في بابل حوالي عام ١٨٩٩ م والأمريكيون في نمر (نيبور) حوالي ١٨٨٨ .

وحسب ما وصل إلينا من معلومات حتى الآن عن الحضارات

التي انتشرت في العراق تبين لنا أنها في نشأتها تماثل الحضارة المصرية من حيث كونها حضارة زراعية في أساسها - غير أننا نلاحظ أنها لم تكن في كل أجزاء بلاد النهرين ذات طابع واحد فقد وجدت اختلافات ميزت بين تلك التي سادت في بقعة عن تلك التي سادت في بقعة أخرى، وذلك نظراً لأن بيئة بلاد النهرين ليست على وتيرة واحدة إذ تختلف في الشمال عنها في الوسط، عنها في الجنوب وهكذا - وبالطبع ما دامت الحضارات تنتج عن تفاعل الإنسان ببيئته كما أشرنا في مقدمة الكتاب فإنه لا بد من حدوث اختلافات بين حضارات هذه الأجزاء المختلفة من بلاد النهرين وإن كانت جميعها تشترك في خصائص عامة كما أن بعض مظاهرها قد انتقلت من جهة لأخرى وانتشرت فيها .

ومع كل يمكننا أن نذكر بأن حضارة بلاد النهرين تمثل حضارة بيئة اتسمت بالعنف في مظاهرها الطبيعية وقد أثر ذلك في كل إنتاجها الحضارى - كما أن فترات النهوض والازدهار فيها لا تدل بالضرورة على وجود وحدة سياسية عامة انضوت تحت لوائها سائر أنحاء بلاد النهرين بل ولا حتى سائر أنحاء قسم من أقسامها الرئيسية ، ففي أقدم العصور كان الجزء الجنوبي من العراق تسوده حكومات المدن المتنازعة ومع ذلك فقد انتشرت فيها حضارة راقية يكفي للدلالة عليها ماعثر عليه من آثار في مدينة اور وغيرها من المدن التي كانت قائمة في عهد السومريين .

ولا يمكننا أن نتناول بالتفصيل تلك الحضارات التي نشأت في الأجزاء المختلفة وأن ندرس مقوماتها ومظاهرها ، ومع ما أشرنا إليه من انتقال بعض المظاهر من قسم إلى آخر يمكننا مع التجاوز أن نتناول حضارات بلاد النهرين بصورة عامة ، وسنكتفي ببيان أهم ما تتميز به في نواحيها المختلفة .

الأسرة

كان الأساس في الزواج عند البابليين يقوم على مبدأ الزوجة الواحدة في معظم المصور وإن كان القانون يسمح للزوج أن يتزوج بزوجة أخرى في حالة مرض الزوجة الأولى أو إذا ما ثبت أنها عاقرة، ولم يكن ذلك قاصراً على العهد البابلي فحسب بل هناك من الدلائل ما يشير إلى أنه وجد في المصور السابقة والعهد المتأخرة أيضاً - ولم يكن الزواج يعد صحيحاً أو شرعياً إلا إذا ثبت أنه تم بعقد مدون مصدق عليه بالشهود وكذلك الحال بالنسبة للطلاق .

وكانت الخطبة تسبق الزواج وعلى الخاطب أن يقدم هدايا لخطيبته وفي حالة وفاته يحق لآلحه أقاربه أن يحل محله في الزواج فإذا رفض والد الخطيبة كان عليه أن يعيد لعائلة المتوفى هداياه التي قدمت منه وفي حالة موت الخطيبة كان للخاطب أن يتزوج إحدى أخواتها وإن لم يتم ذلك كان يسترجع هداياه - وبالإضافة إلى ذلك كان على العريس عند الزواج أن يدفع لعائلة العروس مهراً يصبح ملكاً خاصاً للزوجة ، يرثه أبنائها كما تقدم عائلة الزوجة ، بـلغة آخر يكون ملكاً للزوجة أيضاً ولكنه يحفظ وديعة عند الزوج يجوز له أن يتصرف فيه ولكنه يعيده إليها في حالة الطلاق كذلك كان هذا المبلغ يورث إلى أبنائها أو أهلها إن لم يكن لها أبناء في حالة وفاتها - وهناك مبلغ ثالث يدفعه الزوج هدية لزوجته وهو هبة أو منحة منه .

وكان الزوج صاحب اليد العليا في العائلة ومن حقه أن يطلق زوجته

على أن يدفع لها تعويضا أما إذا رفضت المرأة زوجها فكانت تعاقب عقابا شديدا يصل إلى الموت أحيانا - ومن المسلم به أن الزواج لم يكن ليتم إلا برضاء عائلتي الطرفين ؛ وعندما يتم الاتفاق يرسل الخاطب مقدمة المهر إلى والد زوجته المنتظرة ثم يدفع بقية المهر بعد ذلك - وإذا عدل الخاطب عن الزواج لا يكون له الحق في استرجاع المهر أما إذا كان الرفض من جانب عائلة الزوجة فعليها أن تعيد جميع ماوصلها من الزوج .

وبما يلاحظ أنه بالرغم من حفظ كثير من حقوق المرأة وحريتها وخاصة في الشؤون الاقتصادية إلا أن الزوج كان يمكنه أن يتصرف حيالها كأنه المتصرف في حياتها إذ كان يمكنه أن يجعل منها رقيقا بيد دائته إلى أن يستوفى دينه ، كما أنه في حالة ضبطها متلبسة بخيائته يستطيع أن يعفو عنها فيحول دون إعدامها كما ينص القانون على ذلك .

ولإذا ماتزوج الرجل من أمة فإن هذه تصبح حرة بعد أن تنجب أطفالا كما أن المرأة إذا أصيبت أثناء زواجها بمرض أو عاهة تعوقها عن أدائها واجباتها فإن الزوج لا يحق له أن يطلقها ولكن يترك لها الخيار في البقاء في بيت الزوج أو أن تعود إلى بيت ذويها وتسترجع ما أحضرته من أموال عند الزواج ، كما أن الزوج كان يستطيع الزواج من زوجة أخرى - ومن جهة أخرى كان من حق الزوج أحيانا أن يطلق زوجته دون أن تقترف إثما وفي هذه الحالة تسترجع الزوجة كل أموالها كما يحكم لها بالانتفاع ببعض ممتلكات زوجها ويضم إليها أولادها أيضا . وقد نصت القوانين البابلية على كثير من شؤون الأحوال الشخصية

ومنها يتضح أن مبادئ تدعيم الأسرة وحفظ حق الأبناء في أن يذشأوا في أسر مستقرة وكفالة حقوقهم في الميراث والهبات وغيرها قد بلغت مرتبة عالية من التنظيم ، كما أن أبناء الإماء والأبناء بالتبني قد تمتعوا بحقوق - وإن لم تصل إلى درجة حقوق الأبناء الشرعيين - كانت تكفل لهم حياة لأبأس بها ، ولكن القانون كان من جهة أخرى قاسياً في عقوبة أبناء التبني الذين يتكبرون لمن يتبناهم .

ومن الغريب أن نجد أن بعض النساء كن يكرسن أنفسهن للدعارة في المعابد - والظاهر أن هذه الطائفة وجدت منذ أقدم العصور وكانت تعتبر من السكائنات ولكل منهن حقوق شرعية في أموال أبيها وفي استطاعتهن أن يتزوجن شرعاً ولهن حق التصرف في أملاكهن - وربما كانت وجهة نظر البابليين بصدد هذه العادة أن المرأة كانت تتعبد إلى الآلهة بتقديم جسدها كتضحية حقيقية من جانبها .

وكان شأن الزواج في آشور شأنه في بابل يقتصر في العادة على زوجة واحدة ولكن يلاحظ أن الرابطة العائلية كانت أقل تماسكاً ، ومع هذا فإن الفتاة تصبح مرتبطة ببيت حميها منذ إتمام الخطبة - وكان الزواج يتم أحياناً بالشراء ، وفيما عدا هذا نجد تشابهاً كبيراً بين القوانين الآشورية وبين القوانين البابلية المتعلقة بالأحوال الشخصية ، وكانت الأسرة كما هو الحال في بابل تحت ولاية وسلطة الأب أو أكبر الأبناء .

الملك

من المرجح أن بلاد النهرين انتظمت في وحدات سياسية صغيرة منذ عصور سحيقة كانت كل منها تتمثل في مدينة من المدن تحيط بها ممتلكاتها الخاصة من المساحات الزراعية وغير الزراعية وكان حكام هذه الدويلات يلقبون أنفسهم بلقب يعنى «وكيل الإله» مما يشير إلى أن سلطة الحاكم كانت مستمدة من سلطة إله المدينة أو أنه يعتبر ممثلاً لهذا الإله حيث يبدو أن المعابد كانت أهم المباني التي وجدت في العصور قبل التاريخية وربما كانت حينئذ تمثل المراكز التي تدور حولها الحياة الاجتماعية في تلك المدن وربما كان كهنتها كذلك هم الذين يقومون بالإدارة في مثل هذه المجتمعات وما يؤيد هذا أن الملوك في العصور التاريخية كانوا يعتبرون كهنة الآلهة الرئيسية ونوابها في حكم البشر - وقد ظل نفوذ رجال الدين سائداً إلى أن أخذت هذه المدن أو المجتمعات تتصارع فيما بينها حتى ظهر فيها أفراد يمتازون بالقوة والدراية في الشؤون الحربية فاكسب هؤلاء صفات الزعامة وتولوا الحكم وبالتالي أصبحت لهم الزعامة الدينية أيضاً وصار كل منهم كاهناً أعلى لإله مدينته وأصبح رأس الدولة وصاحب السلطان المطلق فيها - ومع هذا يبدو أنهم لم يصلوا إلى هذه المكانة تلقائياً إذ كانت كل مدينة تختار زعيمها وكان ذلك يتطلب وجود مندوبين عن المدينة في عملية هذا الاختيار ، ولا شك أن المسنين والأعيان والرجال القادريين على حمل السلاح كانت لهم كلمتهم المسموعة في هذا الشأن فأصبح هؤلاء يشكلون مجلسين أحدهما من الشيوخ والأعيان والآخر

من رجال الحسرب - ثم تطور اختصاص هذين المجلسين فأصبعا يهيئان على كل الشئون الهامة في الدولة بل وكان من حقها التحكم في انتخاب الملك ، وعلى هذا يمكن اعتبار أن نظام الحكم في هذه المرحلة كان ديمقراطيا .

وما أن أخذت هذه الدويلات في الاتحاد تحت سلطان واحد حتى أصبح هذا النظام غير عملي للبت في الأمور وحسبها فتركزت السلطات جميعها بأيدي الملوك ومعاونيهم أو بمعنى آخر بيد الملك وحكومته أى أصبح نظاما أوتوقراطيا ، وقد استند هؤلاء إلى الحق الإلهي للملك إذ تشير الأساطير إلى أن شارات الملك كانت في السماء عند الإله « آنو » قبل أن تبدأ الملكية في الأرض ، ثم هبطت الملكية وشارات الملك من السماء إلى الأرض وانتخبت الآلهة حكام البشر - وعلى هذا أصبح هؤلاء مكانة مقدسة بل ربما اتخذوا صفات الآلهة نفسها ولكنهم لم يعبدوا كآلهة حقيقيين أثناء حياتهم وإنما عبدوا بعد وفاتهم .

وكان على الملوك بصفتهم مفوضين من الآلهة في حكم الناس أعباء كثيرة إذ كان عليهم حماية الناس والبلاد وقيادة الجيش ونشر العدل وتوفير أسباب الرفاهية لرعاياهم بإقامة المشاريع العامة كما أنهم كانوا يقيمون المعابد لآلهتهم (شكل ٣٩) ويحيون الشعائر فيها ومع هذا لم تحل قدسيته دون الاعتداء عليهم والثورة ضدهم واغتصاب عروشهم .

وكان البلاط يسير على قواعد صارمة حيث يحظى بشرف المثل بين يدي الملك رجال الدولة على حسب مناصبهم ومراكزهم ، وكان هؤلاء جميعا يتخلون عن القابهم ومناصبهم وأوصيتهم عند اعتلاء ملك جديد



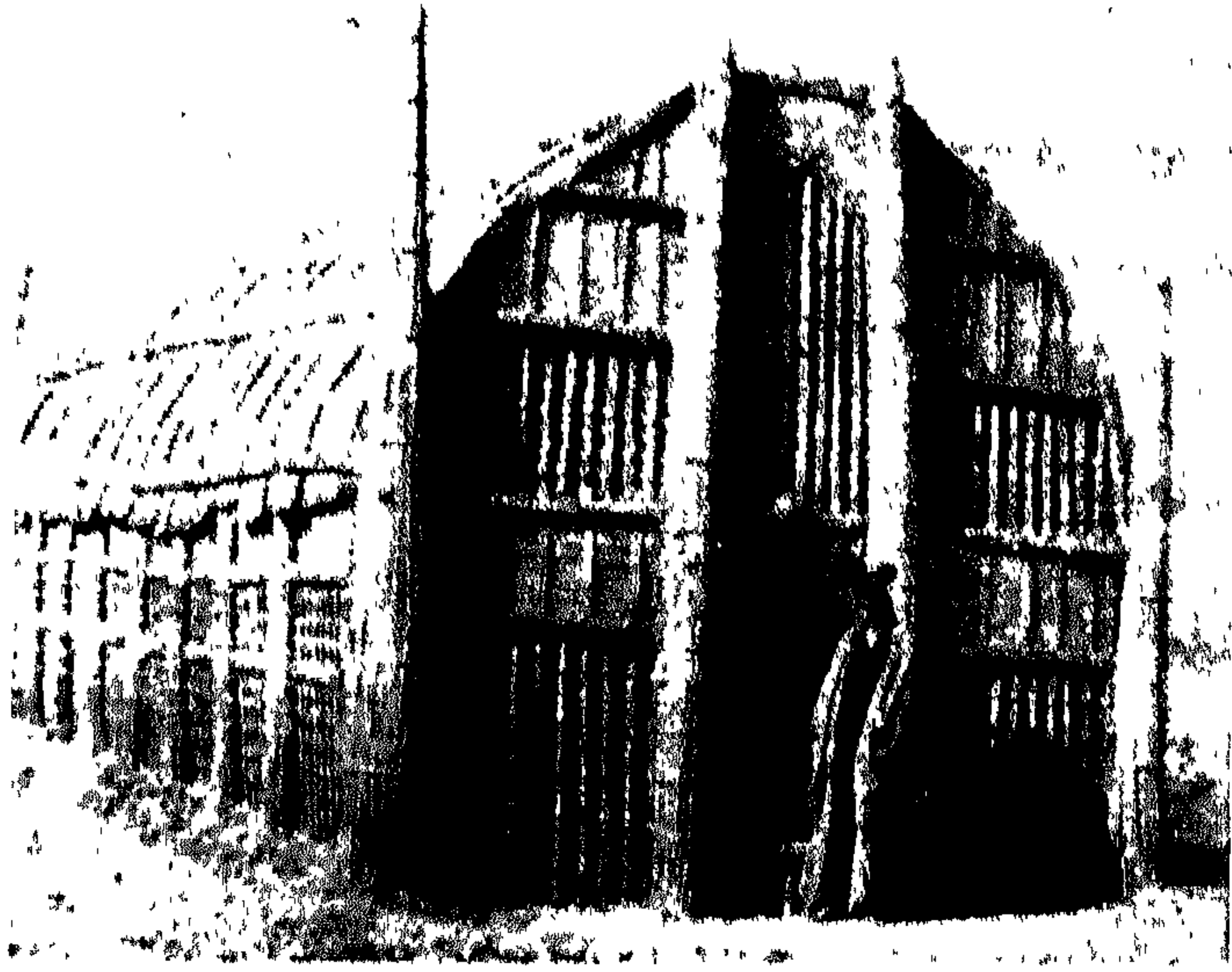
شكل (٣٩) : الملك أورنمو يحمل سلة البناء
لإقامة معبد .

على العرش ولا يحق لهم استعادتها إلا بعد أن يأذن لهم هذا الملك بذلك .
وكان بلاط الملك بالطبع يضم الزوجة التي كانت تشترك في تصريف
شئون الدولة ولهما قصرهما الخاص وأملاكها التي تديرها بنفسها كما كان
لأولادهما بيتهم الذي يختص بخدمه وسقائه وزراعه ونساجه وغير ذلك .
من أصحاب الحرف المختلفة - وكان أهم موظفي البلاط ناظر القصر
وأمين خزانة الملك ، وإلى جانب هذين يوجد عدد من الكهنة والموظفين

والحرفيين الذين يقومون بالأعمال المختلفة - وقد أحاط ملوك الاشوريين أنفسهم بحاشية ضخمة من الاختصاص والمتمربين كحامل الختم وأمين القصر ورئيس الحرس وحامل السيف ومدير الموسيقى ورئيس النساخين وغيرهم، فضلا عن عدد كبير من الكتبة ورؤساء الكتبة - كذلك كان لكل من الملكة الوالدة والملكة وولى العهد هيئة من الموظفين على نسق حاشية الملك ولكنها أصغر منها كثيراً بالطبع .

المنازل

كانت المساكن في أول أمرها عبارة عن أكواخ من البوص الذي كان متوافراً كما هو الحال في المناطق الجنوبية من العراق حتى الآن وكانت سيقانها تربط في حزم وتثنى بحيث يصبح شكل السقف مقوساً (شكل ٤٠) ، وكانت هذه المنازل تغطي بطبقة من الطين - وبعدئذ استخدم اللبن في بناء منازل صغيرة الحجم سقوفها من البوص المغطى بالطين وقد يدعم هذه ركائز أو تعريشات من أخشاب النخيل - وبعد ذلك عرف الآجر ولكنه لم يتخذ شكلاً موحداً بل كان مختلف الأحجام والأشكال فمنه المستطيل والمربع والمقوس والمثلث الأركان ، ولم يستعمل الحجر إلا في إطارات الأبواب في المعابد والمنشآت العامة ثم استخدم بعد ذلك على نطاق أوسع في عصور متأخرة كما أن القاشاني الذي عرف أيام الاشوريين وشاع استعماله بعد ذلك استخدم في توكسية جدران القصور .



شكل (٤٠) : منزل من منازل جنوب العراق

ومن المعتاد أن المباني كانت تبنى فوق مرتفع يعد لها حتى تكون بمنأى عن الفيضان، وهذا المرتفع كان عبارة عن أربعة جدران غالبا ما تكون من الآجر يملأ ما بينها الوديم وتتخلله ميازيب لتصريف المياه. وكان من النادر أن تبنى فوق الدور الأرضي غرف علوية وكانت البيوت متجاورة لا تترك بينها ممرات أو حارات - ومع هذا كانت المدن تخضع لتصميم معين يحدد شوارعها الطولية والعرضية . وبالرغم من عدم العثور على سقوف للمباني التي كشف عنها إلا أنه لا بد وأنها كانت من أفلاق النخيل أو جذوع الارز التي يؤتى بها من لبنان ، وكان

من النادر وجود نوافذ بالنازل غير الابواب سوى بعض الفتحات الصغيرة في أعلى الجدران.

وفي آشور لم تكن المرتفعات التي تعد لإقامة المباني عليها ضرورية لأن البيئة هنا غير ممرضة لخطر الفيضانات كما هو الحال في الجنوب ، ومع ذلك كانت تستخدم لكي تزيد من روعة المبنى - وكان اللبن يستعمل في بناء الجدران قبل أن يجف حتى تتماسك طبقاته دون استعمال المونة ، أما بالنسبة للقباب فإن اللبن التام الجفاف كان يستعمل في بنائها وكانت الفجرات فيها تملأ بالطين .

والتصميم العام للنازل كان لا يخرج عن فناء أو ساحة مكشوفة يحيط بها عدد من الحجرات تستمد الضوء والهواء منها كما كان يستعان في تهوية هذه الحجرات كذلك بآنايب فخارية مثقوبة ، وكانت جدران البيوت تطل عادة من الخارج والداخل .

وقد عثر على نماذج مختلفة لآثاث المنازل وخاصة من الآواني الفخارية والمعدنية والمسارج - وتذكر النصوص كثيراً من أنواع الأسرة والكراسي وآلات الموسيقى وغيرها - وفي عصر الآشوريين خاصة ازدادت فخامة الآثاث وتنوعت أشكاله ، وكثيراً ما كان يصنع من أخشاب ثمينة كما كان يحلى بمنحوتات تمثل كائنات مختلفة .

الملبس والزينة

يبدو أن أول زى عرفة السومريون والأكديون كان يشبه إلى حد بعيد ماساد في مصر في أقدم المصور إذ أنه كان عبارة عن نقبة من لون واحد تمتد إلى الركبتين ، ولكنها كانت تحلى بخيوط أو شبكة تنتهى بأهداب في صفوف منتظمة - وهذا الزى هو الذى يظهر به الآلهة والملوك في أقدم النقوش والتماثيل (شكل ٤١) ، وقد ظل الأفراد



شكل (٤١) : نقبة يلبسها الرجال وتنتهى بصفوف
منتظمة من الأهداب

العاديون يستعملون زيا مماثلا له (ولإن كان أبسط منه) - وهو أيضا من لون واحد وله أهداب عادة .

وقد أضيفت إلى هذه النقبة قطعة أخرى تدور حول الكتف اليسرى - وبمرور الزمن زاد حجم النقبة حتى أصبحت تصل إلى قرب القدمين وتجمع بين النقبة والقطعة التي تغطي الكتف اليسرى القديمتين ، إذ أنها كانت تمتد إلى أعلى بحيث تربط تحت الإبطين وتدور حول الذراع اليسرى بينما تظل الذراع اليمنى عارية (شكل ٤٢) - وقد أضيف إلى هذا الزي شال (ملفعة) مزركشة أو منسوجة بألوان متعددة متناسقة ثم أخذت تظهر فيها زخارف متأثرة بالفن الحيثي وهذه تمثل الزهور والأشجار والحيوانات والمردة وغيرها - وكانت تلك الملفعة تثبت بحزام أو خيوط مجدولة وحماله ولها أهداب في نواحيها الأربعة ، وقد تختلف أشكالها تبعا لاختلاف مكانة صاحبها .

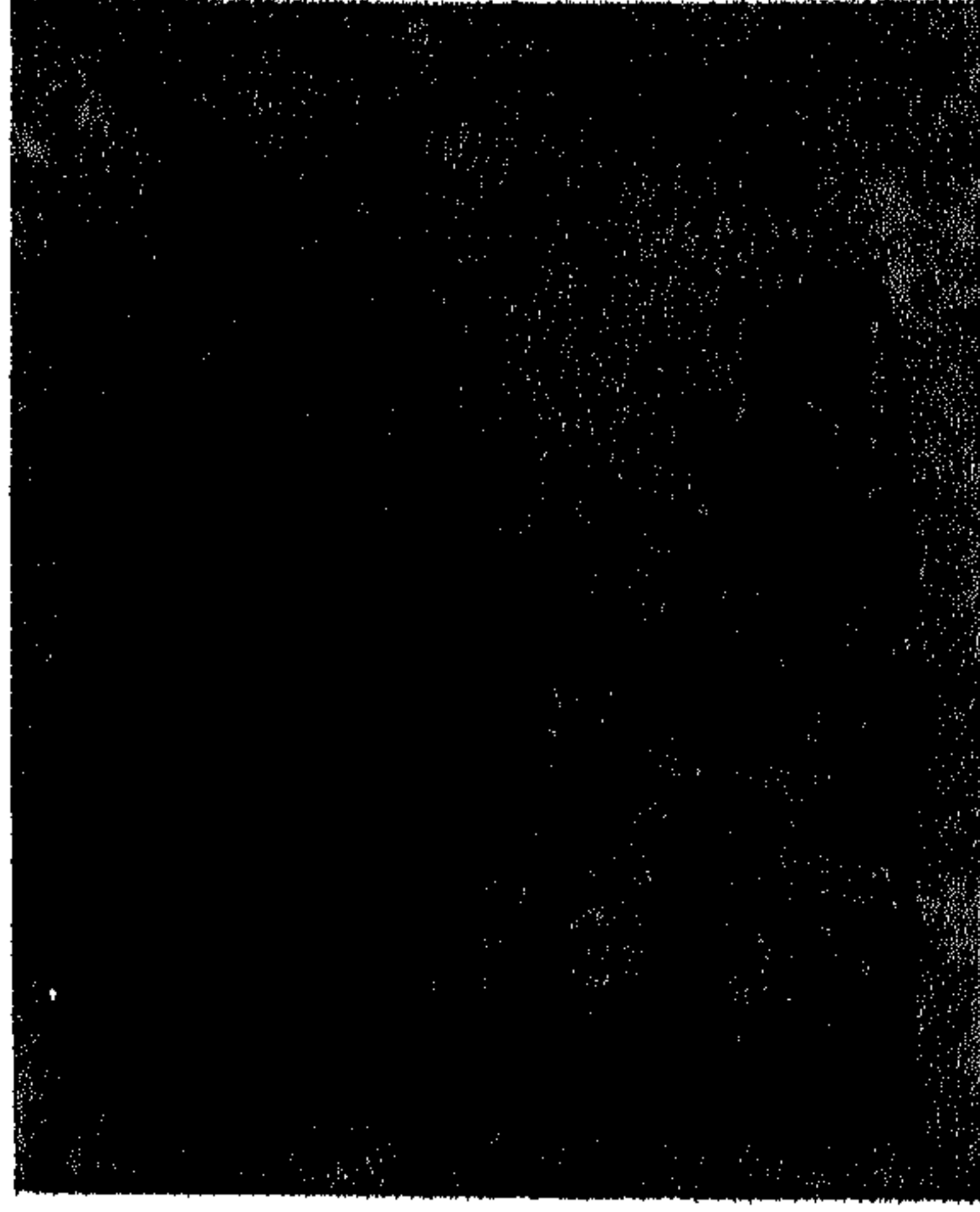
أما غطاء الرأس فلا يظهر إلا في نقوش الآلهة والملوك حيث كان الآلهة يميزون بقلنسوه مزينة بقرون تتقابل أطرافها الأمامية كل اثنين معا (شكل ٤٣) ، كما أنهم كانوا يميزون أحيانا برموز أخرى كالأسلحة التي يمسكون بها أو برموز أخرى - أما الملوك فقد يلبسون تاجا أو عمامة ، وهذا التاج كان على شكل قمع مخروطي أضاف إليه الأشوريون سن مدبب كما كان يحيط به إكليل مدبب في أعلاه أحيانا (شكل ٤٤) - وقد يظهر الملوك أحيانا عراة الرؤوس حيث تكون حلقة غالبا وأحيانا يكون الشعر طويلا معقودا على القفا - ولم يستعمل عامة الناس غطاء للرأس عادة ولكنهم كانوا يربطون شعرهم أحيانا بعصابة بينما



شكل (٤٢) : تمثال يرى فيه الزى السابع
الذى يكشف أحد الذراعين

يستعمل الكهنة شعراً مستعاراً يثبتهُ إكليل - أما النساء فكانت عنايتهن
بشعورهن ملحوظة حيث يصففنّها في أشكال مختلفة ويربطونها بشرائط
وشباك كما يستعملان عصاية ذات أهداب أيضا .

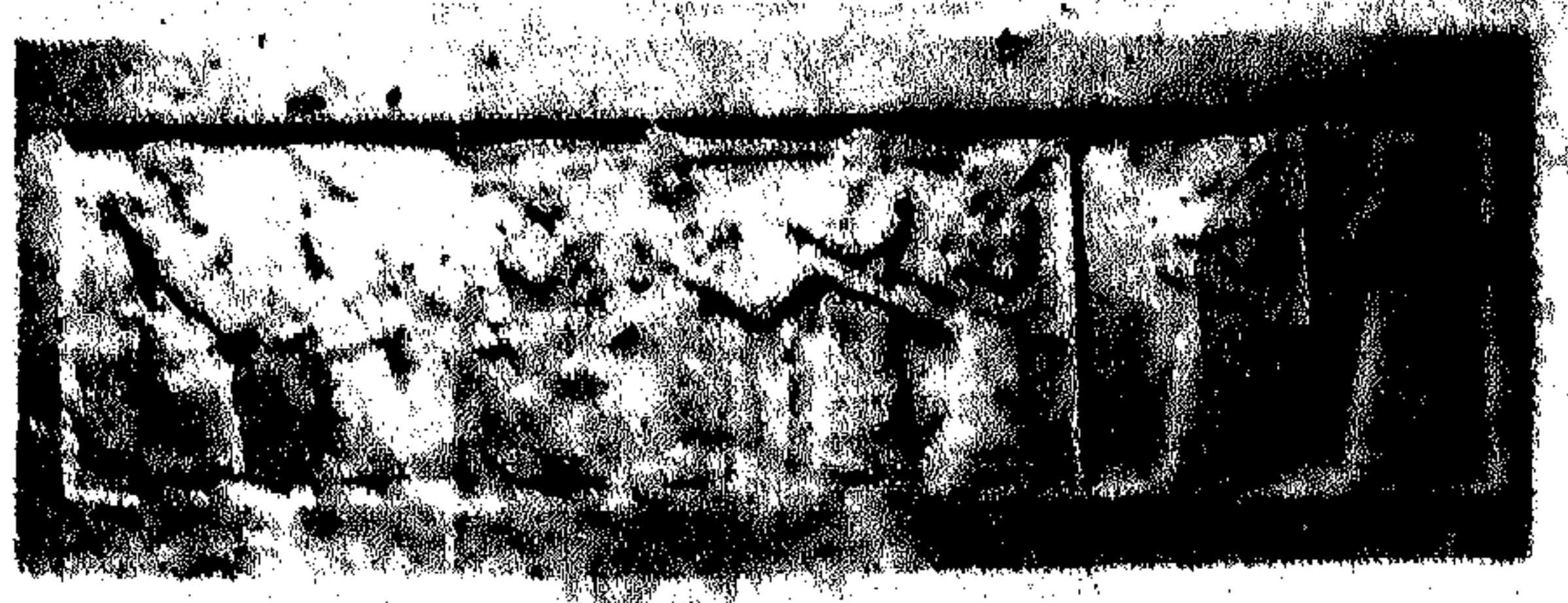
وكان الرجال والنساء يضعون عقوداً أو توائم حول رقابهم من



شكل (٤٣) : حورابى أمام الإله الذى يلبس تاجا
به قرون يتلاقى كل اثنين منها معا

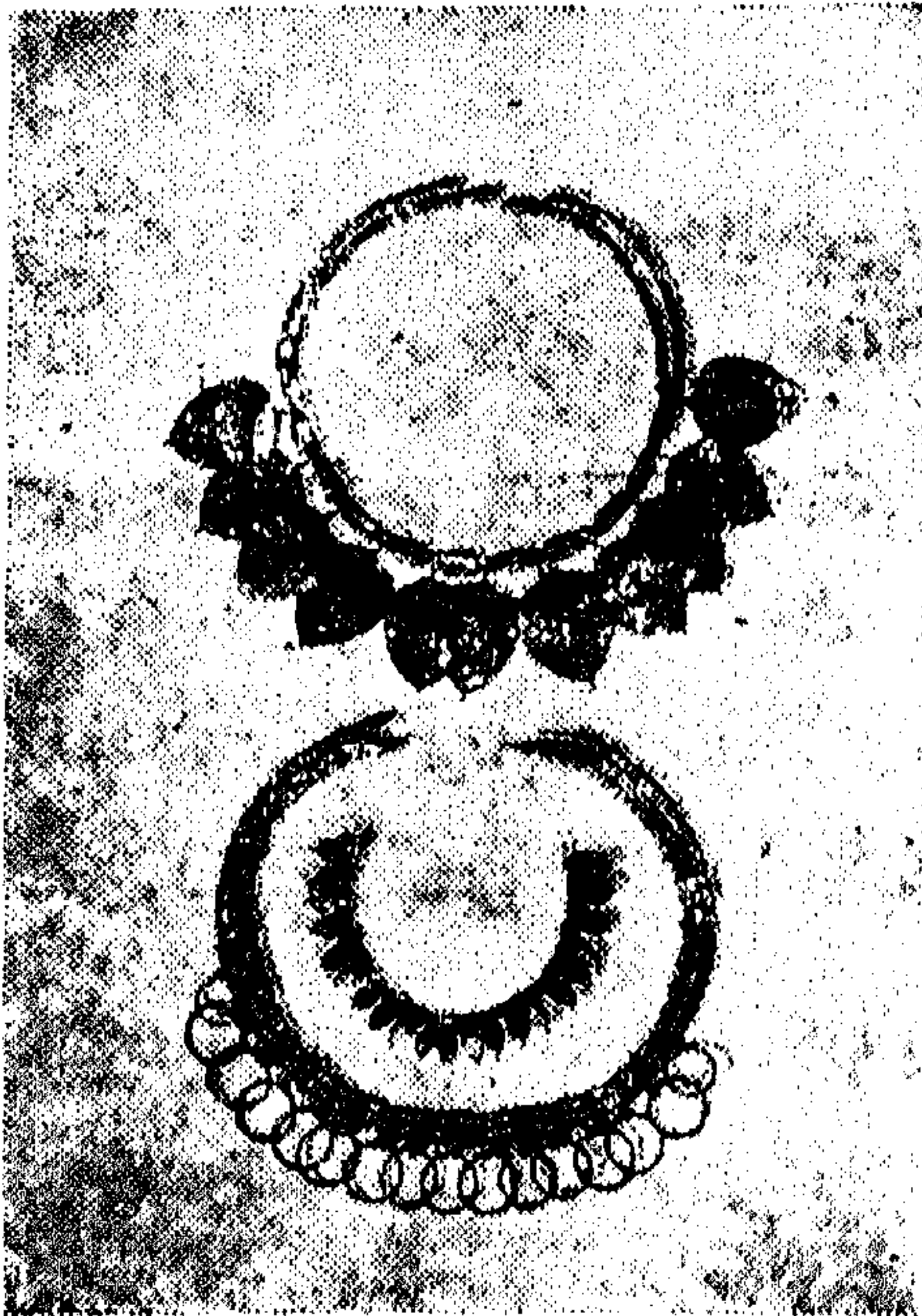
الأصداف أو الأحجار شبه الكريمة ، وفى عصر الآشوريين انتشر استعمال الذهب والفضة والنحاس المذهب وكانت الخزرات كبيرة الحجم نسبيا وهى إما يعضاوية أو اسطوانية الشكل تصنع أحيانا من رقائق الذهب وتحليها بعض الزخارف وأحيانا أخرى تصنع من أحجار ثمينة أو من البلور الصخرى التى تحليها حلقات أو خيوط من الذهب (شكل ٤٥) .

كذلك استعمل أهل بلاد النهرين الخواتم والحلقات والأساور التى تلبس حول المعصم أو فى أعلى الساعد ، وهذه الأخيرة كانت غالبا



شكل ٤٤ - شلنصر الثالث يصافح ملك بابل
وهو يلبس تاجا مخروطي يعلوه سن مدبب

مفتوحة وثقيلة ينتهي كل من طرفيها بشكل رأس حيوان ، وهذه كانت
تصنع غالباً من البرونز - وكان عامة الشعب بالطبع يكتفون بمقود



شكل ٤٥ : عقود من الذهب

وأساور تصنع غالبا من مواد أقل قيمة ولكنهم اجتهدوا في أن يجعلوها
منها محاكاة لنظائرها الثمينة - هذا وقد استعمل أهل بلاد النهرين الزيوت
والدهون العطرية بصفة دائمة .

الادارة

أشرنا فيما سبق إلى أن الملكية في دولة المدينة (كما تمثل في أقدم
عصور بلاد النهرين) كانت تسير وفق نظام ديموقراطي ، ثم أصبحت -
بعد أن تطورت هذه إلى دولة الملكية - تسير وفق نظام أوتوقراطي
(أنظر أعلاه ص ٢٠٠) فصارت السلطات جميعها بيد الملك وحكومته
لإستناداً إلى ما أشارت إليه الأساطير من حق إلهي للملك والحكام ،
ولايسرى هذا بالطبع إلا على من يتولى الحكم فلا تشير هذه الأساطير
إلى ألوهية الملوك والحكام بخلاف ما اصطلاح عليه المصريون من أن فراعنتهم
كانوا من نسل الآلهة أو من الآلهة نفسها - غير أننا نلاحظ بأن التعاليم
الدينية في بلاد النهرين كانت توحى بأن الآلهة هي التي تنتخب الحكام
الذين يمثلون وكلاءهم في الأرض ، وقد تطور الحال بعد ذلك فأصبح
هؤلاء يتمتعون بقدسية جعلتهم ينتحلون بعض صفات الآلهة نفسها وسبقوا
أسماءهم بعلامه التالفة ولكنهم لم يصلوا إلى مرتبة الآلهة الحقيقيين .

ومع أن بعض الملوك ادعوا أنهم أبناء بالتبني للآلهة فإن كل ملك جديد
يدعى أن الآلهة قد اختارته لكي يكون ملكا على البلاد^(١) . وكان على الملك

(١) طه باقر « مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة » (بغداد ١٩٥٥) ج ١ ص ٣٨٥

بصفته مفوضاً من الآلهة واجبات متعددة ، ولذا كان بالطبع يحتاج إلى جمهور كبير من المفاوضين إذ كان له جملة وزراء يرأسهم وزير وهذا الرئيس يختص غالباً بشئون السياسة الخارجية - ومن أخطر الوزراء منصبا وزير المالية إذ أنه كان مسؤولاً عن الشؤون الاقتصادية المختلفة ، وإلى هؤلاء الوزراء أهمية قواد الجيش الذين علت مكانتهم بعد أن زادت جيوش الملوك قوة وعدداً .

وكان الملك يعين حكماً وولاً للأقاليم ، وكان هؤلاء في أقدم العصور أشبه بأمرأه الاقطاع إذ كانوا يرثون مناصبهم ولكن زال عنهم هذا الحق فيما بعد حيث أصبح الحكم المركزى قويا - كما أن الملوك كانوا يعينون قضاة مدنيين بدرجات متفاوتة إلى جانب قيام الكهنة بتطبيق أحكام الشرائع وتفسير نصوصها في المعابد .

ويمكننا أن نعتبر طائفة من موظفي الخاصة أو البلاط كوظفين عموميين في نفس الوقت حيث كان هؤلاء يقومون بهم رسمية إلى جانب مراكزهم في البلاط ومن هؤلاء مندوبين للملك يرسلهم كسفراء خصوصيين ليمثلوه لدى الدول الأجنبية ويصححهم عادة مترجمون وكتبة وقضاة .

ومع وجود هذه الطوائف من الموظفين كان نشاط الملوك في الاضطلاع بهمهم الدولة المختلفة غير محدود وتبين في آثارهم مدى تنوع الأعمال التي قاموا بها كما تبين مدى وقوفهم على مختلف شئون الدولة حتى في بعض الأمور التافهة ، فكثيراً ما نجد أنهم كانوا ينظرون في بعض شكاوى الأفراد ويعيدون الدعاوى إلى المحاكم لإعادة النظر فيها استيفاء لبعض الأصول المتبعة ، كذلك كانت بعض القضايا لا يبت فيها إلا بقرار من

الملك شخصيا - وكان على الملوك أيضا أن يقوموا بمشروعات عمرانية مختلفة مثل تطهير الأنهار وشق القنوات وبناء المعابد ، وهم الذين يفسرون ما تريده الآلهة وفي نفس الوقت يمثلون الرعية لدى الآلهة وهم الذين يرأسون الطائفة الدينية ويعينون رؤساء الكهنة - وإلى جانب هؤلاء الآخرين كانوا يعينون بعض الكهنة والمرافين الذين كانوا يرسلون إلى جهات مختلفة لرصد النجوم ويرسلون إلى الملك بتقاريرهم ؛

العسكرية

تدل النقوش الأثرية من مختلف العصور على أن الملوك كانوا دائما على رأس جيوشهم ، وهذه الجيوش لم تبدأ كهيئات نظامية في أغلب الظن إلا من أواخر العصور قبل التاريخية إذ ربما كانت حاجة المدن إلى الدفاع عن نفسها هي التي أدت إلى ظهور الجيوش المدربة المستديمة - وكانت الخدمة العسكرية تعتبر د خدمة الملك ، فكانت بعض الأراضي تخصص للداخلين فيها ولكن - مع جواز إعطاء هذه الأراضي إلى الأبناء على شرط القيام بخدمة الملك فإن مثل هذه الأراضي - لم يكن من الجائز بيعها أو رهنها ، والظاهر أن ضباط الجيش كانوا يعتبرون من ضرورات الأمن في المدينة حيث كان المعبد يقوم بدفع الفدية عنهم في حالة أسرهم إذا لم يتمكنوا من دفعها بأنفسهم بل كانت المدينة كذلك ملزمة بدفعها إذا لم يوجد في المعبد المال اللازم لذلك .

وكان الملك يسير إلى الحرب على رأس جيشه ويلبس خوذة شبه مخروطية يتدلى منها ما يستر العنق من الخلف ويتساح بحربة وسلاح آخر

عبارة عن مقبض خشبي ربط إليه نصل مقوس بسيور من الجلد أو حلقات -
ومن الأسلحة التي شاع استخدامها منذ أقدم العصور فأس القتال ،
وتبين لنا أقدم النقوش أن الجيش كان ينقسم إلى فريقين من المحاربين :
أحدهما مسلح بأسلحة ثقيلة يحمل أفرادها حرايا كبيرة ويتمبض كل منهم
حربته بكلتا يديه ، وهؤلاء يتقدمهم صف من حملة الدروع والثاني مسلح
بأسلحة خفيفة عبارة عن فأس ورمح - ويبدو أن مهمة الفريق الأول
هي الهجوم عند الالتحام مع الأعداء أما مهمة الفريق الثاني فكانت المطاردة .

وفي العصر البابلي القديم كان الملوك يتسلحون ببلطة سلاحها ضيق
وقوس مزدوج وسهام ، أما قواده فقد يتسلح الواحد منهم بحربة وبلطة
ذات نصل محدب أو بلطة فقط بينما يحمل فريق المحاربين حرايا أو قسيما
أبسط من قوس الملك أو أن يحمل الواحد منهم بلطة وحربة أو بلطة
وعلم - ويغلب على الظن أن الخوذات التي كان يلبسها الجنود كانت تصنع
من الجلد أو البرونز ، أما الجعاب فكانت تصنع من الجلد والصوف .
وقد وجدت عربات حربية تجرها الخيول الوحشية ، ولم تستعمل
الخيول المستأنسة إلا من عصر متأخر نسبيا - وكانت هذه العربات ثقيلة
عجلاتها صماء ولم تظهر العجلات الخفيفة إلا في حوالي الألف الثاني ق . م
وكان رؤساء الجيش إلى جانب قيادتهم للجنود مسئولين عن الإشراف
على السخرة التي تتطلبها المشاريع العامة ويبدو أن طائفة من الناس كانوا
ملزمين بمثل هذه الأعمال وبالخدمة العسكرية الإجبارية ، وكان لهؤلاء
قوادهم ورؤسائهم ولا يستطيع أحد الملزمين التهرب من أداء الالتزام
(خدمة الملك) وإن كان الأمر قد تطور فيما بعد فأصبح في الإمكان
أن يحصل على الإعفاء في نظير دفع ضريبة سنوية .

ومن المرجح أن طائفتين من القواد أو المشرفين كان أفرادها يكلفون باستدعاء الرجال للخدمة ، فبعضهم يختص بجمع المجندين لوظائف الجيش والبعض الآخر كانوا مكلفين بأعمال البوليس - ويمنع المكلفون للجيش أملاكاً من أموال الدولة في هيئة معاش مدى الحياة كما أن المكلفين بأعمال البوليس كانت لهم امتيازات شخصية وامتيازات بالنسبة لأملاكهم لا يمكن للحاكم أن يتعرض لها وإلا كان مصيره الإعدام - وإذا ما تغيب أحد هؤلاء المكلفين سواء من الجيش أو البوليس فإن أبناءه يديرون أملاكه ، وإذا كان هؤلاء صغاراً فإن الزوجة تدير هذه الأملاك في نظير ثلث الإيراد - ومن جهة أخرى كان من الواجب أن تحفظ هذه الأملاك في حالة جيدة وإن تعتمد مالكتها الذي منحت له في نظير التكليف إهمالها أو إهمالها آخر لمدة ثلاث سنوات فلا يجوز إعادة تملكها ويصبح واضح اليد عليها هو المنتفع الشرعى .

وكان ملوك آشور قواد حرب أكثر منهم رجال دولة ولكنهم كانوا لا يخرجون في حملاتهم دون استشارة الآلهة عن طريق العرافين والمنجمين وبعد أن يتلقوا تقارير عن الجهات التي يزعمون مهاجمتها ومدى النجاح المتوقع لحملاتهم ، كما أنهم كثيراً ما قاموا بحملاتهم بناء على أمر إلهي يتراءى لهم في أحلامهم - وحينما لا يكون الملك على رأس جيشه كان أكبر موظفي البلاط هو الذي ينوب عنه في قيادة الجيش .

ومن الملاحظ أن الجيوش الآشورية أدخلت نظام الفرسان الذين كانوا يركبون الخيل دون سرج في أول الأمر ويصحب كل منهم خادم راكب أيضاً ثم تقدمت الفروسية فوضعت السروج فرق الخيل واستغنى

عن الخدم - وفضلا عن ذلك وجدت عربات حربية يجر كل منها زوج من الخيل ويركبها ثلاثة رجال (كالعربات الحثية) أحدهم للقيادة والثاني مسلح بحربة أو قوس والثالث يحميها بدرع - أما مشاة الجيش فمنهم من يتسلح بالاقواس ومنهم من يحمل الرماح والدروع ويلبسون خوذات مخروطية ذات زوائد جانبية لحماية الأذنين ، كما أنهم يتدشرون بزرد يغطي الصدر والجزء العلوى من الساعدين ويلبسون أحذية طويلة وكل منهم مزود بسيف قصير لاستخدامه عند الالتحام مع العدو عن قرب - وإلى جانب هؤلاء كان الجيش يضم عمالا من الجنود يحمل كل منهم بلطة وممول لكي يقوموا بعمليات الهدم .

هذا ويلاحظ أن بعض النقوش المتعلقة بحصار بعض المدن تبين أن الآشوريين استخدموا آلات للهدم تحميها سقوف من أغصان مثشابة كما استعملوا أبراج عالية تسير على عجلات إلى أن تصل إلى قرب السور المحاصر ، ويعتلى هذه الأبراج رماة السهام الذين يرمون بسهامهم الجنود الذين يحتلون الأسوار للدفاع عن المدينة المحاصرة .

وقد اشتهر الآشوريون بالقسوة في حروبهم وفي معاملة أعدائهم والمدن التي تسقط في أيديهم ، وكانوا بعد انتصاراتهم يبيحون لجنودهم البلاد المفتوحة فيعملون فيها النهب والتدمير كما أنهم كانوا يثبون الإرهاب بين الجهات التي يريدون إخضاعها لسيطرتهم ، وكثيراً ما كانوا يقومون بتخريب المحاصيل وخرق القرى - وهم أول من استن سنة نبي سكان البلاد التي تخضع لهم وإحلال سكان آخرين في مكانهم ليمزجوا بين الشعوب الخاضعة لهم حتى تفقد صفاتها القومية ، فهم الذين نفوا سكان إسرائيل إلى ميديا وأحلوا في مكانهم مواطنين آخرين من جهات مختلفة .

الديانة

ليس من السهل أن نحدد العناصر الأصلية في ديانات بلاد النهرين القديمة ، إلا أنه لا شك في أن عناصر السكون كانت تشكل معبودات رئيسية في اللاهوت - وقد نسب أهل بلاد النهرين القسداى إلى معبوداتهم بعض الصفات والعواطف الإنسانية ولكنهم ميزوهم عن البشر بالخلود وبأنهم كانوا خيرين دائما ، ولم يكن الشر من عملهم بل من أرواح خبيثة تفوق البشر ولسكنها دون الآلهة .

وقد تخيل هؤلاء القوم أن العالم قبل نشأته كان يمثل فراغا تميز بهنصرين مختلفين من الرطوبة : أحدهما الماء العذب والآخر يمثل الماء المالح وقد ولدت منهما كل الكائنات التى بدأت بمعبودين لم يلعبا دوراً ملحوظا ، ثم بعد فترة أنجبا كذلك معبودين آخرين يمثلان السماء والأرض ومن هذين الأخيرين جاء ثلاثة آلهة آخرون هم الثالوث الأعظم لمجموعة الآلهة البابلية : أنو - إنليل - إيا ، وقد اعتبر الإله ، أنو ، الإله الأعظم منذ أقدم العصور ، وكان يحكم في السماء ولكنه لم يحتفظ بسلطته العليا كاسمى الآلهة حينما انتقلت السيادة من سومر إلى بابل إذ أصبح إله هذه الأخيرة ، مردوك ، على رأس الآلهة فحل محل الإله أنو - وقد اعتبر الإله ، إنليل ، سيد الأرض الذى استطاع أن يصل إلى مكانة أنو بل وأصبح أيضا أبا للآلهة ، وهو مستشارها الذى أحدث العوفان كما كان يعد سيد الكائنات الإنسانية الذى عهد بهم إلى أمراء يقودونهم ويحكمونهم - أما الإله الثالث وهو ، إيا ، فكان يعد سيد الأرض يحكم في مسكن المعرفة ، أى المياه التى تحمل الأرض وتحتبط

بها ، كما كان إلهما للحكمة خالق الإنسان من كتلة من الطمي نفخ فيها نسمة الحياة ، وهو الذى أنقذ البشر من الفناء فى زمن الطوفان وعلمهم مختلف الصناعات ومنح الذكاء للملوك.

ويلى هذا الثالث ثالوث آخر يتألف من إله القمر وإله الشمس وإلهة هى الزهرة « عشتار » - وكان إله القمر يقيس الزمن ويعاقب المذنبين من الملوك بقضاء حياتهم فى التأوهات والدموع ، وكان إله الشمس هو القاضى الأعظم الذى أملى قوانين العدالة على الملوك ، أما « عشتار » فكانت إلهة الحرب وإلهة اللذة تسعى لغواية البشر كما أنها كانت تعد أخت إله الشمس وفى نفس الوقت أخت إلهة العالم السفلى .

ولمى جانب هؤلاء جميعا كانت كل قوى الطبيعة وكل قوى الخير تؤله عند السومريين والبابليين كما كان لكل مدينة معبودها حتى أصبح عدد المعبودات كبيراً جداً - وبالطبع كان تفوق معبود على الآخرين يجعل من هذه المعبودات الأخرى معبودات مظاهر له وينسبون اليه قدرة لا توجد لدى الآخرين كما أنه يصبح المتحكم فى تقرير المصير كذلك عبد السومريون والبابليون عدداً من الأبطال الخرافيين تظهر، أسماء بعضهم فى القوائم الملكية كملوك فى العصور السابقة للتاريخ ، كما أن بعض الأمراء انتحلوا الصفات الإلهية أثناء حياتهم ولم يختلف الدين الاشورى عن البابلى فى روحه ولكنه تأثر بعض الشيء بالمظاهر الحربية التى سادت عهد الاشوريين ، وبالطبع احتل إلههم آشور (شكل ٤٦) مكانة أعظم إله فى بلاد النهرين ونسب إليه الخلق ، وهو من جهة أخرى كان يعد إلهاً حربياً أخضع الناس جميعاً لسلطانه وكانت زوجته عشتار الاشورية تحتل المكانة التالية لمكانته كما أنها كانت تعد بطلة الممارك وحامية آشور .



شكل ٤٦ : الإله آشور

ومن الجدير بالذكر أن بعض الطقوس كانت تحوى أناشيد تنص على الاعتراف بكثرة الذنوب كما تنص على أن هذه الذنوب ربما كانت غير مقصودة بالنسبة لآلهة قد لا يعرفها من يتلو هذه الأناشيد وكانت التقوى الدينية تكافأ بالعمر الطويل في الحياة الدنيا - ومن الغريب أن الجزاء في الآخرة لم يكن واضحاً بل كان يظهر في النصوص الدينية ما يشير إلى أن المرء يلقى جزاءه من ثواب وعقاب في حياته الدنيا ، ومع هذا فقد كان الاعتقاد سائداً بأن ظل الميت يفترق عن جسده عقب الموت مباشرة ويتحول إلى روح شريرة مالم تدفن الجثة - وعلى هذا فإن الحرمان من الدفن كان يعد عقوبة قاسية ، وبالرغم من ذلك فإن مصير الموتى لم يكن واحداً وكان أقصى ما يطعمون فيه أن يُستريحوا في العالم السفلى فوق أسرة ويشربون ماءً نقياً أو أن ينالوا عون آبائهم وأزواجهم إن كانوا ممن سقطوا في المعارك - أما ما عداهم فإن مصيرهم

كان محزنا تأكلهم الديدان ويملأهم الغبار ، وهذا بخلاف ما اعتقده المصريون من أن الأبرار كانوا ينعمون بصحبه الآلهة ويعيشون في حقول ديارو ، أما سواهم فإنهم يلقون جزاءهم من العذاب (أنظر أعلاه ص ٨٥، ٨٦) .

وقد أدى التفكير في نشأة الوجود إلى ظهور أساطير مختلفة وصلت إلينا منها بعض النماذج - وتعد الأسطورة البابلية أقدم نموذج وصل إلينا كأسطورة طويلة ، وهي مدونة على سبعة ألواح طينية تعرف لدى علماء الآشوريات باسم «ألواح الخليقة السبعة» وهي تحتوى على نحو ألف بيت تقريبا وتشير إلى أنه لم يكن في البدء سوى الماء العذب «الإله أبسو» والماء المالح «الإله تيامه» وكانا مختلطين ثم ولدت منهما الآلهة الآخريين متعاقبين - وفي ذلك ما يشير إلى أن المادة (المياه) أزلية وهي في نفس الوقت الإلهين اللذين جاءت منهما الآلهة ومن أعقابهما أعظم الآلهة لدى البابليين وهو « مردوخ » وقد أشرنا إلى ما تضمنته هذه الأسطورة عند الكلام على ما تخيله القوم عن نشأة الآلهة (أنظر أعلاه ص ٢١٦) .

ويرى بعض المؤرخين أن هناك تشابه واضح بين هذه الأسطورة وبين ما جاء في سفر التكوين من أنه في البداية لم يكن يوجد سوى هيولى مظلم من الماء ، ولكن الأسطورة تختلف عن الكتب السماوية عموما في أنها جعلت المادة أزلية سبقت أى شيء آخر ، ومع كل فإن الأسطورة تعكس صورة لما يدور في بيئة بلاد النهرين من صراع بين عناصر الطبيعة وبين الإنسان وبيئته .

ومن الأساطير التي اشتهرت في تاريخ العراق القديم الاسطورة المسمروقة باسم « ملحمة جلجامش ، أو « الطوفان ، - ومع أن جلجامش قد ورد ذكره كأحد ملوك الأسرة الأولى في الوركاء إلا أنه صار موضوعا لعدة ملاحم وقصص كلها تصف أعماله ومغامراته وبطولته الخارقة، وأشهر هذه القصص تلك التي تتصل بالطوفان وهي أطول ملحمة في الشعر البابلي حيث كتبت على ١٢ لوحا من الطين تحوى نحواً من ٣٥٠٠ سطراً وهي تتلخص في وصف جلجامش بالحكمة ومعرفة أخبار الأزمنة السابقة للطوفان وأنه سافر أسفارا بعيدة ، وهو بطل الآلهة الذي خلقت في أحسن صورة وقوة ، ثلاثه إله والثلاث الباقي بشر - وقد تعسف مع أهل الوركاء الذين استغاثوا بالآلهة وهذه خلقت بطلا قويا هو « أنكيدو » ليكون منافسا لجلجامش ، وتحدث بين الاثنين معركة ينتصر فيها جلجامش ثم يصبهان بعد ذلك صديقين - ثم يذهبان معا في سفر طويل للحصول على الشهرة والمجد وينجحان في ذلك أولا ثم يعودان إلى الوركاء ، وهنا تحاول الإلهة عشتار إغواء جلجامش ولكنه يجيد عنها فطابت إلى والدها « آنو » إله السماء عقاب جلجامش فخلق هذا « ثور السماء » الذي أخذ يفتك بأهل الوركاء - وانبرى له الصديقان « جلجامش وأنكيدو » يصارعانه حتى قضيا عليه واحتفلا بنصرهما .

ثم تدور الدوائر عليهما وقد غضب عليهما الآلهة فيمرض « أنكيدو » ويموت وهو في ريعان الشباب ويحزن عليه جلجامش ثم يتملكه الخوف من الموت ويفكر في التخلص منه لكي ينال حياة خالدة - وهنا يذكر جده الخالد « أوتونبشتم » فيذهب إليه ليسأله عن سر الخلود ، ويصل

إليه بعد أهوال وبعد أن تنصحه إحدى الإلهات بالانصراف عن فكرة الخلود لأنه من البشر وأن نصيبه الموت - وما أن يصل إلى جده حتى يسرد له هذا الأخير قصة الطوفان ويشير فيها إلى أن الآلهة عازمت على إحداث الطوفان ، وقد حابه الإله « إيا » ، فأخبره بذلك قبل حدوثه ونصحه بعمل سفينة من سبع طبقات قسم كلا منها إلى تسعة أقسام وجهزها بما تحتاج من مؤن .،. الخ وبعد أن نجا من الطوفان قدم قربانا إلى الآلهة ، وصعد الإله « أنليل » إلى السفينة وأخذ بيد « أوتو - نبشتم » وأخرجه من السفينة هو وزوجته ثم أمر بأن يصبحا إلهين - وبعد أن يصل « أوتو - نبشتم » إلى هذا الحد من قصته يوجه كلامه إلى جلجامش قائلا « من ذا الذى سيجمع الآلهة من أجلك حتى تحصل على نعمة الخلود وبعد أن يفشل جلجامش فى الاختبار الذى أخبره به « وأتو - نبشتم » تشفق زوجة هذا الأخير على جلجامش وتشفع له فيصف له زوجها نبات الخلود ومكان وجوده - وبعد أن يحصل جلجامش فعلا على هذا النبات ويسر به يتخذ طريقه للعودة به إلى مدينته لينميها ويستفيد به الناس . إلا أنه يصادف فى طريق عودته بركة ماء نزل إليها للاستحمام وإزالة غشاء السفر ، وفى أثناء ذلك اجتذبت رائحة النبات الحية فاختطفته وبذلك حصلت على قوة تجديد الشباب لأنها كلما شاخت تنزع جلدها فيعود إليها الشباب .

وتذكر رواية أخرى من هذه الأسطورة أن جلجامش قام بأسفار بعيدة لينخلد له أسما مع أسماء الآلهة فى « أرض الحياة » - كما أن جزءا من نصوص هذه الأسطورة يبدو أن لاعلاقة له بسياق المغامرة التى قام بها

جلجامش حيث أنه يأمر « أنكيدو » بأن ينزل إلى العالم السفلى كي يحضر له آلتين من الخشب كان قد صنعها وسقطتا منه فيه - وبعد أن ينزل « أنكيدو » يتضرع جلجامش إلى الآلهة كي تبعثه من عالم الأرواح لينبئه عن أحوال العالم السفلى ، فتصعد روح « أنكيدو » وتعطيه صورة قائمة عن حالة أرواح الموتى إذ أن غالبيتها سجينه ، طعامها التراب والطين بينما تتمتع القلة منها وخاصة من مات أصحابها في الحرب ميتة الأبطال ومن تركوا ذرية لهم - بمعاملة خاصة حيث يجدون الماء والقوت .

ومن الأساطير ما يعكس صورة عن أفكار القوم فيما يتعلق بأصل الشر وطبيعة الإنسان وعجزه عن إدراك الخلود ، ومن هذه أسطورة « آدابا » الذى يرى بعض المؤرخين أنه يشبه « آدم » (١) وإن كان لا يبدو من هذا التشابه إلا مخالفة « آدابا » لأمر الإله « أنو » بأن يأكل من الطعام (طعام الخلود) الذى قدمه إليه بناء على نصيحة الإله « إيا » له - أما فيما عدا هذا فهى تبين ميل الإنسان إلى الانتقام وأن نصيبه الموت .

وهناك أسطورة أخرى تعرف باسم أسطورة « إيتانا » ، وهى تتلخص فى أن الملكة نزلت من السماء وبعد أن استقرت فيها لم يكن لأحد الملوك ولدا فتضرع إلى الآلهة كي تهبه ولدا يرثه - وتمضى الأسطورة فى وصف تكليفه بعمل خير لقاء حصوله على بغيته وكيف أنه طار إلى السماء للحصول على « نبات الولادة » بمساعدة نسر كان قد سبق أن أنقذه

(١) طه باقر المرجع السابق ص ٤٧٢

من مآزق كاد أن يموت فيه ، وفيها وصف لما شاهده «إيتانا» عند طيرانه من معالم الأرض - ومع أن بقية الأسطورة مفقودة إلا أنه يبدو أنه نال بغيته وعاد إلى الأرض سالماً .

القضاء

اشتهرت بلاد النهرين بما عثر عليه فيها من قوانين تعد أقدم ما عرف حتى الآن إذ لم تصلنا أية مجموعة قانونية تسبقها في التاريخ ، ومع أن بعض الإشارات والمواد القانونية وردت إلينا في بعض النصوص المصرية وهي توحى بوجود قوانين كانت متبعة إلا أن هذه القوانين لم تصلنا نصوصها في أى مجموعة تشريعية حتى الآن - وتدل الدلائل الأثرية على أن بلاد النهرين ظهرت بها شرائع مدونة منذ أقدم عصورها ، وربما يرجع بعضها إلى أصول كانت موجودة في عصور ما قبل الأسرات - ويتبين ذلك من الأصول القانونية التي كانت متبعة منذ النصف الثاني لعصر الوركاء على الأرجح حيث نجد أن بعض الألواح الطينية التي تنتمي لتلك الفترة تحتوي على كثير من المعاملات التجارية والإدارية، كما أن من بينها ما يدل على سجلات الأراضي الزراعية وتثبيت ملكية الأراضي ومنها ما يتعلق بمستندات تجارية وغيرها .

ومن الجائز - حسب ما وصلنا حتى الآن - أن نعتبر «أوركاجينا» ملك «لجش» أول مشرع في تاريخ البشر حيث وردت بعض الإشارات من عصر فجر الأسرات ومن العهد الأكدي تشير إلى إصلاحاته الاجتماعية وتنظيمه للإدارة وإزالته للظلم عن الطبقات الفقيرة ، كما وجدت بعض النماذج لوثائقه القانونية .

وفى عهد الأكديين بالذات يمكننا أن نتتبع وجود طبقة خاصة من القضاة المدنيين وكان هؤلاء يتمتعون بمكانة سامية ، كما نتبين أن «سرجون» الأكدي أدخل نظام القسم باسم الملك بين المتعاقدين عند تثبيت نصوص العقود .

ومن عهد أسرة « أور » ، الثالثة وجدت وثائق قانونية متنوعة كما أثر على مجموعة قانونية من عهد مؤسسها « أورنمو » ، وهي وإن كانت غير كاملة من الناحية التشريعية إذ لم يرد منها إلا المقدمة وبعض المواد القانونية إلا أنها تسبق شريعة « حمورابي » بنحو ٣٠٠ سنة كما أنها تختلف عنها من حيث أنها تأخذ بمبدأ التعويض لا بمبدأ القصاص أو الجزاء الذي يتبين في شريعة حمورابي - وهي تنقسم كأي شريعة أخرى إلى مقدمة ومواد تنص على الأحكام وغاية ، وتتألف المقدمة في أنها تفويض من الآلهة بمزاولة السلطة ونشر الشريعة .

ومن العهد البابلي القديم أثر على لوحين من الطين كتبنا باللغة البابلية وتدل نصوصها على أنها جزء من مجموعة لم يعثر على بقيتها ، وهذه النصوص تحوى ٦١ مادة وتبدأ بمقدمة قصيرة غير واضحة تليها ١٢ مادة عن الأسعار والأجور ، وبالإضافة إلى ذلك نجد بعض المواد التي تنص على الأحكام المختلفة المتعلقة بالسرقات والاعتداءات والأضرار والديون والبيع والشراء والأحوال الشخصية وغيرها .

ولمى « إبت عشتار » خامس ملوك « أيسين » ينسب قانون يشبه قانون حمورابي في تأليفه وفى بعض مواده وقد عثر عليه مدونا على كسر من الألواح الطينية فيها من الإشارات ما يدل على أن هذا القانون

كان منقوشا على نصب أو مسلة من الحجر مثل مسلة قانون حمورابي ،
ومع أن هذا القانون كان يشمل أكثر من مائة مادة على الأرجح
إلا أن وصانا منه يبلغ نحو ٣٥ مادة فقط .

وقانون حمورابي الشهير يبدو أن مواده جمعت في السنوات الأخيرة
من حكم هذا الملك وقد رتب ترتيبا فنيا ونقش على مسلة
من الديوريت الاسود يبلغ ارتفاعها نحو ثمانية أقدام نقشت في أعلاها
بنحت بارز يمثل الإله « شمش » (إله العدل) على عرشه وأمامه حمورابي
يتسلم منه مجموعة القوانين - وقد عثر على هذه المسلة سنة ١٩٠١ في مدينة
« سوسة » ويحتمل أنها نقلت هناك في أواخر عهد الكاشيين إذ رباها كان
العيلاميون قد نقلوها إلى هناك ضمن ما استولوا عليه من غنائم كثيرة
بعد قضائهم على الكاشيين - ونقوش القانون تتمثل في ٤٤ عموداً من الكتابة
تبدأ بمقدمة دينية كتبت بلغة شعرية ثم تليها المواد القانونية وعددها
٢٨٢ مادة رباها كانت في الاصل ٣٠٠ مادة ، وتنتهي بخاتمة يبين فيها
حمورابي أنه أصدر هذه الأحكام العادلة فازدهر العدل والحكم الصالح في البلاد
ويختتم ذلك بسرد ألقابه وحب الآلهة له ويحض من أصابه ظلم على المثل
أمام صورته وقراءة قانونه كما أنه يصب اللعنة على كل من يحرف في
هذا القانون - ويمكن تبويب موضوعات هذا القانون في :

١ - القضاء والتقاضى (أى أصول المرافعات) وهو يشمل المواد

من ١ إلى ٥ .

٢ - قانون الاموال (أى المعاملات) ويشمل المواد من ٦ إلى ١٢٦

٣ - الأحوال الشخصية (قانون الأسرة) ويشمل المواد من

١٢٧ إلى ٢٨٢

أما عن القوانين الآشورية فلم ترد منها مجموعة كاملة ، فمن العهد الآشوري القديم وجدت بعض المواد التي ربما كانت تمثل أجزاء من قانون لا يتعلق بأشور نفسها بل بمستعمرة آشورية تجارية تكونت في آسسيا الصغرى ، ومع أن ترجمتها لم تستقر تماماً حتى الآن إلا أنه من الواضح أن أكثرها يتعلق بنظام المحاكم وأصول المرافعات وتنظيم المعاملات التجارية .

ومن العصر الآشوري الوسيط عثر على مجموعة قانونية مدونة على جملة ألواح طينية ولكنها لا تؤلف تشريعا كاملا ولا تظهر فيها الوحدة القانونية ويختص جزء كبير منها بالأحوال الشخصية والجنايات وعقوباتها - ويبدو منها أن القوانين الآشورية عموما امتازت بقسوة عقوباتها .

أما عن نظام التقاضي فإن المحاكم الابتدائية كانت إما مدنية أو كهنوتية إذ كان من حق المعبد أن يكون مقراً للعدالة وبالتالي كان الكهنة يستطيعون إصدار الأحكام ، وكان القضاة في المحاكم المدنية لا يقلون عادة عن ستة أعضاء يحمل كل منهم لقب « قاض » - وكان من المعتاد تدوين الأحكام القضائية بمعرفة كاتب مختص بصورة موجزة تتلخص في إثبات وقائع القضية باختصار والشهود والتاريخ كما يضاف عادة اسم الكاتب وبعدئذ تختم وتودع النسخة الأصلية داخل غلاف تكتب عليه تفصيلات الوثيقة ، وكان من حق المتقاضين الحصول على نسخ منها .

وفي عصر الكلدانيين كانت القضية تبدأ بشكوى تقدم إلى المحكمة

ويستدعى المدعى عليه للإدلاء بأقواله ثم ينطق بالحكم وإذا تعذر وجود نسخة منه كان يكتفى عند الضرورة بالقسم الذى يقسمه محرر القضية أو أحد الشهود فيها .

ومنذ أقدم العصور كان شيوخ المدينة يمثلون محكمة لاتعرف اختصاصاتها ولكن من الواضح أن اختيار أعضائها يتم بإرادة ملكية وقد تكون بعض النساء وخاصة الكاهنات من بين أعضائها ولكن هذه المحاكم لم تكن دائمة بل كانت لفترات معينة فقط .

وكان الشهود ضروريين عند تحرير عقود غير رسمية وإلا يسقط حق المتخاصمين فى الاحتكام إلى القضاء ، وإذا لم يمكن فض النزاع بطريق ودى فإن أحد الطرفين يقدم شكواه فيستدعى المشكو فى حقه أمام المحكمة وتفحص المستندات المقدمة وتسمع شهادة الشهود.. وإذا لم تكن المستندات وافية أو لم توجد على الإطلاق كان القاضى يطلب إلى الطرفين وإلى الشهود أحيانا أداء اليمين ، وكان اليمين يتم فى المعبد عادة حتى وإن كانت القضية منظورة أمام محكمة مدنية لأن القسم فى أقدم العصور كان يؤدي باسم الآلهة ثم أصبح فيما بعد يؤدي باسم الملك باعتباره أصبح مؤلها هو الآخر - كذلك كان القسم ضروريا بعد النطق بالحكم حيث يتعهد الخصوم أمام الآلهة باحترام الحكم وإعتباره أمرا نهائيا لا يقبل التعديل ، وقد تضاف فقرة إلى الحكم تنص على عدم استئناف الدعوى من جديد وعلى عقاب من يخالف هذا الحكم .

ولم يكن هناك اختصاص معين لمثل هذه المحاكم بل كانت تحكم فى كل شئ ويعتبر بعض أعضائها شهوداً وإن كانوا فى واقع الأمر من

المخالفين فأسمائهم تتردد في الأحكام المختلفة ولكنهم مع ذلك هم الذين يحضرون تنفيذ العقوبات ويصدقون عليها ،

ولم تصلنا حتى الآن من آثار الآشوريين مجموعة من القوانين يمكن مقارنتها بقانون حمورابي من حيث التسوع في الموضوعات والأحكام ولكن عشر على لوحات متصل كل منها بقوانين تتعلق بموضوعات معينة ومن بين الوثائق التي عشر عايمها وثيقة تخص على نحو ٥٠ مادة تتعلق بالعقوبات التي تطبق في بعض الجرائم ، كما وجدت وثيقة أخرى تختص بالقانون الذي يطبق في الريف ولكنها لم تصل سليمة لسوء الحظ ، كذلك وجدت وثيقة في حالة سيئة أيضا ولكن يفهم منها أنها كانت تتعلق بالمعاملات التجارية - هذا إلى جانب عدد من الوثائق الأخرى التي تعطينا فكرة عن التقاضي في عهد الآشوريين ، ويتبين من هذه أن الحكم كان يصدره قاض واحد يقيم في المحكمة وفي بعض الحالات كان صاحب الحق يتولى تطبيق القانون بنفسه أو يتجاوز عنه أو يخففه دون الحاجة إلى اللجوء إلى القضاء - وكان القانون الجنائي يتطلب إثبات الذنب ويحدد العقوبة ولكن بعض الحالات الأخرى لم ترد فيها أحكام قضائية ، مثال ذلك أن وثيقة تشير إلى أن الجاني قد منح مهلة لاستحضار شهود لتبرئة نفسه وإلا يعد مذنبا ، كما أن وثيقة أخرى تدل على أن المختصين قد وصلوا إلى اتفاق فلم يعد هناك مجال للنزاع .

الحياة الاقتصادية

أدرك سكان بلاد النهرين منذ أقدم العصور ما تمتاز به طبيعة بلادهم من خصب ، فالسهول الفيضية لنهرى الدجلة والفرات تجود فيها الزراعة متى بذلت فيها العناية بشئون الري والصرف ، ولذا نجد أن عمليات شق القنوات والجداول وصيانتها كانت من أهم المشاريع التى عنى بها الملوك منذ عصور ما قبل الأسرات ، فهى إلى جانب إمدادها الأراضى البعيدة بالمياه أو استخدامها للصرف بقصد إصلاح الأرض كانت عمراة مائية تيسر المواصلات وعمليات النقل ، ولذا كان من المحتم صيانتها والعناية بها ونظراً لأن الأراضى التى كانت تسير فيها رخوة فى كثير من الأماكن وجوانبها هشة فإن المحافظة عليها كانت تتطلب مجهودات كبيرة ، وقد نصت القوانين على معاقبة كل من يهمل أمر هذه المحافظة ويعد مسئولاً عن الأضرار التى تحدث لغيره بسبب ذلك الإهمال - هذا وقد استعان المزارعون عند انخفاض منسوب المياه فى المجارى المائية بالشادوف أو أدوات رافعة (سواقي) تديرها الثيران .

وكانت المحاريث المستخدمة تجرها الثيران وهى شبيهة بالمحاريث الخالية وبعضها كان يزود بما يشبه القمع لبذر البذور أثناء الحرث ، وكان لإيجار ثيران الحراثة محدد ، كما حدد القانون أيضاً مقدار التعويضات عن الحوادث التى تصيب هذه الماشية وعن ما تسببه من أضرار أيضاً وبعد تمام الحصاد يؤخذ المحصول إلى أماكن الدرس حيث تقوم بهذه المهمة الثيران أو الخيول أو عربات تجرها الحيوانات ، وقد حددت أجور كل منها كما حدد أجر

العامل الزراعى وإن كانت أجرة هذا الأخير تختلف باختلاف الفصول .
وقد نظمت القوانين العلاقة بين ملاك الأرض والمستأجرين لها ، كما
نظمت العلاقة بين المنتفعين بهذه الأراضى وبين من يستأجرونها من
مزارعين ورعاة ، وفى غالب الأحيان كان القانون يحمى صغار المزارعين
ولذا أخرج مستأجر من الأرض قبل انتهاء مدة العقد كان المالك ملزماً
بدفع تعويض له .

ويبدو أنه لم تحدث تغييرات كبيرة فى الحياة النباتية أو الحيوانية
التي عرفت فى بلاد النهرين منذ أقدم العصور حيث أن القمح والشعير قد
وجدوا بها كما وجدت بها بعض الحبوب الأخرى مثل الدخن والسمسم
وما زالت هذه من المحاصيل المعروفة فى بلاد النهرين حتى الآن ، أما
الأرز فيبدو أنه لم يعرف إلا من أواخر العصر الآشورى ، ومع هذا
فما زال الأرز يستورد إلى العراق من بلاد عديدة .

وقد عرفت بلاد النهرين نوعين من الأراضى أحدهما يتمثل فى أراضى
الحقول التي كانت تزرع الحبوب وما شابهها والثانى أراضى البساتين التي
اشتهرت بزراعة الأشجار وقد نشأ فن زراعة البساتين منذ عصور سحيقة
وكانت هذه تزرع بالخضروات فيما بين الأشجار التي كان من أهمها التين
والرمان والتفاح والكمثرى وغيرها . وقد جلب الآشوريون إلى العراق
الزيتون كما جلبوا القطن ، على أن أقدم شجرة وأهم شجرة عرفت هى
النخلة وما زالت النخيل تحتل المكانة الأولى بين أشجار العراق ويعد البلح
محصولها الرئيسى - والظاهر أن هذه النخيل كانت تنتشر فى مساحات
أوسع من المساحات التي تنتشر فيها الآن .

ومن الجدير بالذكر أن الأرض البور كانت حقا لأول من يشغلها وتصبح ملكا لمن يصلاحها ولما كانت في الواقع تخضع لحقوق الجيران فيما يختص بالرى، أى أنه كان لا يجوز للمالك أن يمنع وصول المياه إلى جيرانه أو أن يتسبب في الإضرار بمصالحهم حتى ولو كان في ذلك مصلحة الشخصية وكان للحاكم الحق في المرعى وباكورة الحصاد والحشيم واستخدام الرجال والحيوانات والمجالات في أعمال السخرة وخاصة في صيانة القنوات والطرق، كما أن المالك كان ملزما بأداء واجبه نحو المنافع العامة التي لا يعنى منها إلا بقرار يصدره الملك - كذلك كان الملك أحيانا يمنح بعض الملاك بعض الامتيازات مثل عدم تحصيل الضريبة عن الأرض وعدم استدعاء رجال الاقطاعية للسخرة ، ومن جهة أخرى كان الحاكم لا يستطيع أن يخرج من إقطاعيته مزارعا أو أن يستولى على أخشاب أو حشائش أو محاصيل أو حيوانات أو عمال مالك آخر، كما لا يجوز أن يسحب ماء من قناة الرى إذا كانت مياهها غير كافية.

وكانت القبائل التي حلت في مناطق مختلفة قد استقرت فيها وأقامت لها مدنا وقرى ، وبالطبع امتلكت جزءا من الأراضى التي كانت مقسمة إلى قطع يستغلها الأفراد - وقد أمكن بالطبع لبعض الأفراد والهيئات أن يكونوا ملكيات كبيرة كما أن المعابد كانت تمتلك حقولا وأراضى واسعة ، وكثيرا ما كان الفقير عرضه لجنح الغنى الذي كان يطمع في زيادة رقعة أملاكه وغالبا ما كان الأغنياء يتمكنون من ذلك عن طريق الشراء - وحينما أصبحت المقاطعات خاضعة للمملكة انتقلت ملكيتها إلى الملوك وكان رؤساؤها هم الذين يوافقون على البيع وتدفع لهم التعويضات - وهذه

الإقطاعيات التي كونها الملوك كانت تمنح للقربين من رجاله بصفة نهائية ويمكن توارثها .

ومن المعروف أن بلاد النهرين لم تقتصر على الزراعة وحدها بل وجدت بها مراعى كثيرة ، وهذه لم تسكن في حاجة إلى عناية أكثر من إمدادها بالماء وقطع كلثا أحيانا - وكان الملاك يستأجرون رعاة لرعى حيواناتهم وهؤلاء كانوا يحصلون على أجور ثابتة وإن ضاعت من أحدهم بعض تلك الحيوانات كان لزاما عليه أن يأتي بغيرها على حسابه ، وكثيرا ما نصت الاتفاقيات على أن يزيد الراعى عدد الحيوانات ، وإن باع منها لمصلحة أو سرق شيئا منها كان مكلفا بدفع تعويض قد تصل قيمته إلى عشرة أمثال ما تصرف فيه ، أما إذا حلت بالقطيع كارثة خارجة عن إرادته فعليه أن يثبت ذلك وإلا كان عليه أن يعرض الخسارة على حسابه .

وكانت الإقطاعيات لا تقتصر على الأرض الصالحة للزراعة والمراعى فحسب بل كانت تشمل كذلك ما فيها من حدائق ومباني وعبيد أيضا فكانت ملكيتها تنتقل بما حوت من مالك إلى آخر كما أنها أيضا كانت تقدم بأكلها كرهن لضمان القروض - ولم يكن غريبا أن يملك المزرعة أحيانا عدة أشخاص على المشاع - وكان من الممكن أن يعارض بعض الأشخاص في حيازة مالك من الملاك وفي هذه الحالة كان لابد من أن يحكم أمام هيئة مكونة من ممثل للمالك وكاتب المدينة وبعض الحكام والشيوخ والاعيان ، وكان لابد أيضا لكل فريق من المتنازعين أن يدلى بحججه ويقدم الإثباتات أو المستندات الدالة على صحة دعواه - وكان تخلف المدعى عن حضور هذه الجلسات يفقده حقوقه فيعرض منادى المدينة المقار في المزاد .

وكان توسيع رقعة الاقطاعية على حساب الجار يعرض القائم بذلك لعتوبة شديدة كما أن تعديل الحدود الصغيرة كان يعرض للعقوبات أيضا ، وكذلك كان الحال بالنسبة لحفر جدول في أرض الغير أو استغلالها أو بدء البناء عليها .

الصناعة

أمدت البيئة بلاد النهرين ببعض المواد الأولية التي استغلت في الصناعة ، وأول هذه المواد بالطبع كان الطمي الذي صنعت منه الأواني وكانت هذه في أول أمرها تصنع باليد ثم أصبحت تصنع بعد ذلك بالعجلة وقد تنوعت أشكالها على حسب الأغراض التي استخدمت فيها فمنها أواني الشرب وكانت مخروطة الشكل ، والصحاف لوضع الطعام ، والأوعية المخصصة لحفظ ونقل السوائل - ونظراً لصعوبة الحصول على الأحجار وصعوبة حفرها كانت الأواني الحجرية رمزا للترف وكانت تحفظ عادة في المعابد وكثيراً ما كانت تزين بنقوش دينية .

وقد استخدم الطمي كذلك في عمل لوحات الكتابة حيث كان يكتب عليها قبل أن تجف ، وفي بعض الأحيان كانوا يجعلون لكل لوح غلافاً من الطمي أيضا - وكثيراً ما كانوا يقومون بحرقها لتصبح أشد صلابة بتحولها إلى فخار .

ومن الجدير بالذكر أن معرفة الحفر على الحجر منذ أقدم العصور قد أدى إلى نشاط صناعة الاختام الاسطوانية وقد ظلت هذه تستخدم في معظم العصور القديمة وتنوعت موضوعاتها والأساليب الفنية فيها حتى أمكن

التمييز بين الانواع السائدة في الفترات التاريخية المختلفة .

ونظراً لعدم وجود الاحجار الثمينة من جهة والصلابة من جهة أخرى لجأ أهل بلاد النهرين إلى استعمال الخزف في كثير من الأغراض حتى أنهم استعملوا الطوب الخزفي في تسكسية جدران بعض المباني العامة وتزيينها، كذلك نجد أنهم كانوا يستعملون أحياناً بعض الألوان المعدنية وخاصة من النحاس والفضة - وقد برعوا في الصياغة واستخدموا في ذلك الذهب والفضة والاحجار الثمينة كما امتازت بعض مصنوعاتهم الخشبية بما كان فيها من تطعيم بالذهب والفضة والبرونز والاحجار الكريمة ، كما أنها كانت تسكس أحياناً في بعض المواضع بمصفايح من الذهب .

والظاهر أن خام البترول (الأسفلت) قد عرف من أقدم العصور وكان يستخدم مختلطاً بالطين أو القش كنوع من الملاط ، وكان أحياناً يستعمل وحده دون أن يكون مخلوطاً - وليس معنى هذا أنهم لم يعرفوا سواه بل توصلوا إلى ملاط من الجير أيضاً

وكانت الحرف والصناعات المختلفة تخضع لنظم معينة وبعضها على الأقل كانت تحت رقابة دقيقة ، فعملية النسيج كانت تتم تحت رقابة رؤساء عمال يعينهم الملك - وقد حدد قانون حمورابي الأجور اليومية للعمال كما حدد أتعاب عامل المعمار والمبضع ونص على العقوبات التي تفرض على من يخطئ في تنفيذ المطلوب منه .

ويفهم من قانون حمورابي أيضاً أن تعليم الصناعات كان يخضع لنظم معينة ، فإذا ما أخذ رجل صدياً إلى بيته لتربيته وتعليمه حرفة

ليجعل منه صائما جيدا فإنه لا يجوز لوالدى الصبي أن يطالبا برده
إلا إذا كان الصبي لم يتعلم شيئا - وكان من الممكن كذلك أن يعهد
لإنسان بعبدته إلى رجل آخر ليتعلم منه حرفته ، وإن أهمل المعلم تعليم صبي
حرفته على الوجه المرضي فإنه يلزم بدفع تعويض ولا يستحق أجرا على
ما بذله في تعليمه من جهد على اعتبار أنه أفاد من عمل الصبي - وكثيرا
ما كانت النتيجة أن يجد المعلم نفسه مضطراً لدفع التعويض ، وكان يفعل
ذلك عن رضى لأنه كان ينتفع بخدمات الصبي .

المواصلات والتجارة

اشتهر أهل بلاد النهرين منذ القدم بنشاطهم التجارى مع الشعوب المجاورة
وقد أثروا بطرقهم ومعاملاتهم التجارية فى تلك الشعوب حتى أخذت
عنهم كثيراً من أساليب التجارة ومصطلحاتها وبعض أسماء المكاييل والموازين
التي استخدموها .

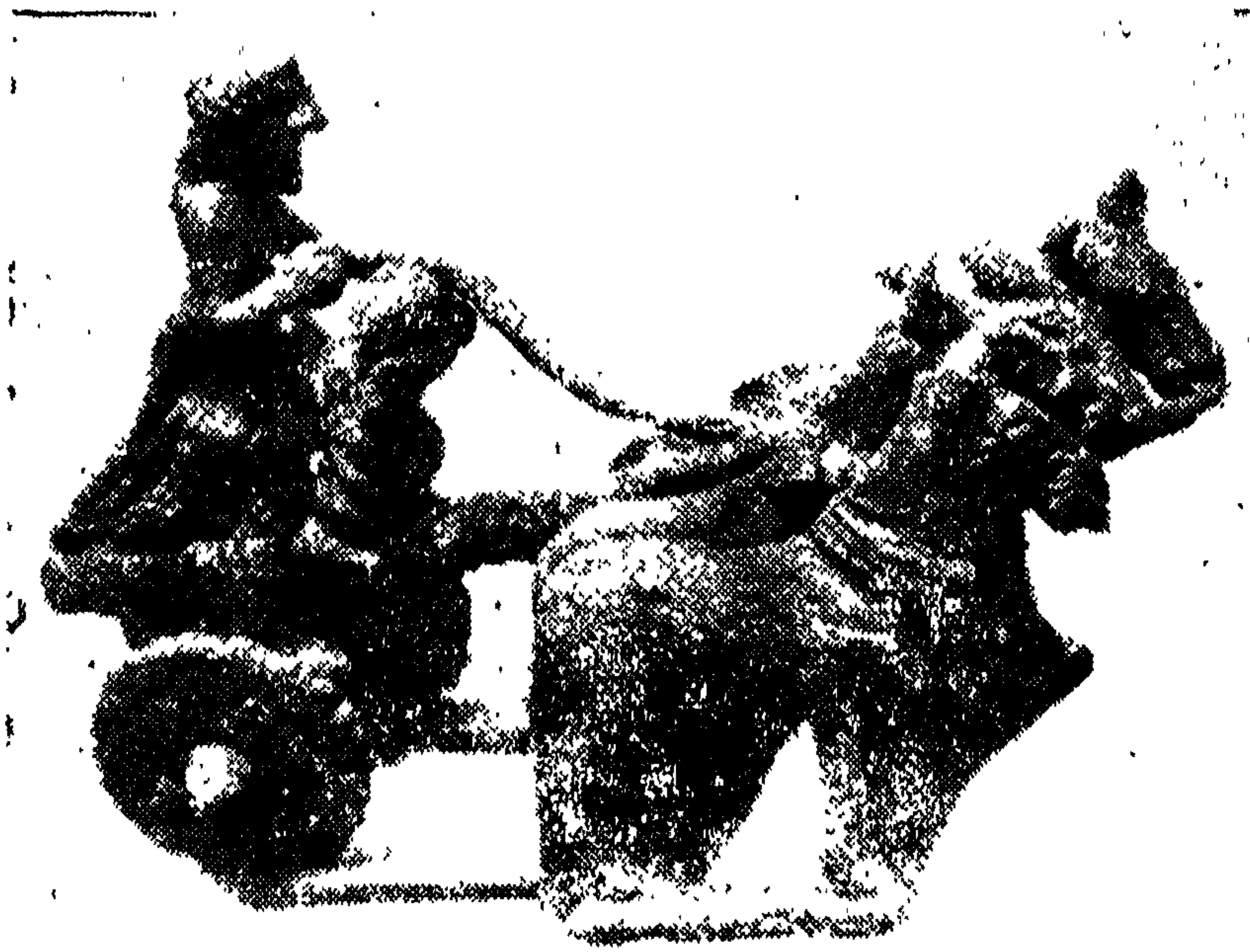
وربما كانت الحاجة إلى المواد الخام الضرورية وتصريف الفائض من
منتجات الزراعة والصناعة هى التى دعت الى هذا النشاط . خصوصاً بعد
أن نشطت الفتوح الخارجية وحاول الملوك تكوين إمبراطوريات لهم -
ويمكننا أن نتتبع بعض الشؤون المتعلقة بالتجارة من دراستنا للقوانين
والشرائع المتعلقة بها حيث يظهر أن جزءاً كبيراً من المواد القانونية قد
خصص لتنظيم التجارة وأنواع المعاملات المختلفة ، ففي قانون حمورابى نجد
١٢٠ مادة تتعلق بالمعاملات والشؤون التجارية من مجموع مواد هذا القانون
التي يبلغ عددها ٢٨٢ مادة ، ومثل ذلك يقال أيضاً عن شرائع أخرى غير

قانون حمورابي - وما نلاحظه في هذا الصدد أن تلك المواد عُنيت بتحديد الاسعار وأجور المهنيين وأجور السفن والأجور التي تستحق على الأعمال المختلفة - ومن الغريب أن هذه المواد لم تهمل شأن الشركات بل تناول بعضها كل ما يتعلق بتلك الشركات من نقل البضائع وإيداع الأموال والعمولة والمتاجرة لحساب الغير التي لم تكن قاصرة على المتاجرة لأصحاب رؤوس أموال في داخلية البلاد فحسب بل كثيرا ما كان العملاء يقومون بهذه المتاجرة لأصحاب رؤوس أموال من الخارج - ولم تكن التجارة قاصرة على الرجال وحدهم بل كان للمرأة نصيب فيها حيث نصت القوانين على تمتعها بحرية التجارة .

ومن البديهي أن طرق المواصلات ووسائلها أهم دعائم التجارة وهي خير وسيلة لإزدهارها ، وقد اهتم ملوك بلاد النهرين بتأمين هذه الطرق وخاصة في المناطق التي تقطنها قبائل مثيرة للبتاع حيث أنهم كانوا يشنون الحملات الحربية لإخضاع تلك القبائل ويشيدون الحصون والقلاع لضمان المحافظة على الأمن فيها وأنشأوا نظاما للبريد - وأقدم ما وصلنا عن هذه المواصلات نموذج لتارب يرجع إلى عهد ما قبل الاسرات ، وبالطبع كان وجود البحر بالقرب من سكان جنوب بلاد النهرين سببا في مهارتهم في الملاحة ، ولو أن وجود النهرين والتقنوات العديدة التي شقت لتسهيل الري والصرف كان سببا كذلك في استخدام أنواع مختلفة من المراكب ، ومنها أنواع ما زالت تستخدم إلى الآن - ويجدر بنا هنا أن نذكر بأن المواد التي استخدمت في صنع هذه المراكب كانت مما تجود به البيئة ، فالجلود

المنفوخة والقففة (١) كانتا تستخدمان لعبور النهر والمجاري المائية الداخلية - وتشير بعض النصوص إلى طريقة صنع السفن كما تشير إلى أنواعها وحولتها وسمتها وأسمائها المختلفة .

أما عن النقل بالبر فقد عرفت العربات من عصور ما قبل التاريخ (شكل ٤٧) وكانت هذه تستخدم في نقل المواد الأولية التي كانت تأتي من جهات بعيدة حيث أننا نجد أن الكثير من مخلفات حضارة بلاد النهرين



(شكل ٤٧) : نموذج من البرونز لمركبة تجرها أربعة حمير

(١) أسطوانة من البردي أو سمف النخيل المجدول منطاة من الخارج بالقار ما زالت تستعمل إلى الآن في بعض أنحاء العراق .

تتضمن مصنوعات من أحجار ومعادن ثمينة لا توجد في بلاد النهرين نفسها، فقد استورد النحاس من جزيرة العرب (عمان والبحرين) التي جلب منها كذلك بعض الأحجار المستخدمة في المباني وصناعة التماثيل - وكان القصدير المستخدم في صناعة البرونز يجلب من شرق إيران ومن سورية ومن آسيا الصغرى ، كما كانت الفضة والرصاص تحلب من طوروس والأخشاب من سورية وبعض الأحجار الكريمة من أفغانستان والأصداف من الخليج العربي .

ومما يدل على أن أهل بلاد النهرين وصلوا في تجارتهم إلى أماكن بعيدة ما عثر عليه من آثار في آسيا الصغرى تدل على وجود تجالية آشورية في منطقة كبادوكيا حيث عثر على عدد كبير من الألواح الطينية والاختام الأسطوانية التي استعملت في المعاملات التجارية ، ويتبين منها أن مراكز أخرى في الأناضول كانت تتبع هذه الجالية التي كانت ترتبط بمدينة آشور - وقسم كبير من هذه اللوحات عبارة عن الرسائل المتبادلة بين تجار هذه الجالية وبين آشور، ومنها ما يعطينا بعض المعلومات عن تنظيم القوافل التجارية وتمويلها وتسلم البضائع وطرق السفر وخطابات الإعتماد للندوبين - ومن المرجح أن هذه الجالية الآشورية قد خافت مستعمرة تجارية أكديّة قديمة ، وقد استمرت بعض الشركات التجارية في أماكن أخرى خارج العراق بضعة أجيال متعاقبة - ومن المحتمل جداً أن سرجون الأكدي قد قام بعملية حربية إلى الأناضول لحماية المستعمرة التجارية الأكديّة التي نشأت هناك للتجارة في الصوف والفضة .

وربما كان أول قانون تجاري صرف هو الذي ظهر في المستعمرة

التجارية التي أسسها الآشوريون في وسط الأناضول وقد سبق أن أشرنا إلى هذا القانون عند الكلام على القوانين الآشورية (أنظر أعلاه ص ٢٢٦) ، هذا إلى جانب العديد من العقود والوثائق والمستندات التجارية التي عثر عليها في مختلف الأماكن الأثرية ببلاد النهرين وهي تدل على أن المعاملات التجارية لم تكن لتعقد قانونية ملزمة إلا إذا كتبت بأسلوب قانوني - والظاهر أن العناية بضبط الأوزان والمكاييل كانت سائدة إلى درجة أن دائرة خاصة كانت تشرف عليها لأن نماذج من هذه الأوزان عثر عليها وقد سجل على كل منها بكتابة رسمية مقدار وزنها .

ومن المرجح أن وحدة للقيمة كانت تتخذ أساسا للتبادل وقد حددت هذه الوحدة بوزن معين من الفضة ولكن لم يغير على مثل هذه الوحدة إلى الآن ، وكان تقسيم المقاييس والموازين مبنيا على أساس ستيني (أى أجزاء من العدد ستين ومضاعفاته) - وفي عصر متأخر نسبيا وجدت بعض القطع المعدنية من النحاس والفضة والذهب في هيئة صفائح صغيرة أو حلقات أو أقراص مثقوبة لها أوزان معلومة سجلت عليها هذه الأوزان وربما كان ذلك هو بدء فكرة النقود التي يحتمل أنها أخذت تسود العالم القديم في نفس الوقت تقريبا (١) .

وكان التبادل هو الأصل السائد في التجارة وبمقتضاه تنتقل ملكية سلعة من شخص إلى آخر مقابل سلعة أخرى يتسلمها الطرف الأول من الطرف الثاني، وكثيراً ما كانت قيم الأشياء المستبدلة غير متكافئة وفي هذه الحالة كان على صاحب السكفة الراجعة أن يدفع ما يعادل تعويض الفرق - وفي حالة

(١) من المرجح أن فكرة النقود نشأت عند قيام الإمبراطورية الفارسية

نقض الاتفاق كان المتسبب فيه يدفع تعويضاً عن ذلك - وبعد أن اتخذت وحدة للقيمة كأساس للتعامل أصبح من الممكن إتمام عمليات البيع والشراء بمقتضاها دون الحاجة إلى تبادل سلعة بأخرى - وفي حالة التعامل التجارى فكما سبق أن قلنا أنه لا يصبح ملزماً إلا إذا كتب بأسلوب قانونى، وكان المعتاد فى هذه الحالة أن يحرر عقد تثبت فيه ثلاثة عناصر رئيسية هى بيان بالشئ المباع وأسماء الطرفين والثمن الذى يدفع أو إيصال بالدفع الفورى - وكثيراً ما كان المشتري يأخذ ضماناً من البائع على عدم وجود عيب فيما اشتراه من شأنه إلغاء العقد وخاصة فيما يتعلق بالعيب وكانت مدة الضمان تحدد برضى الطرفين - كذلك كان من المألوف أن يحرر العقد بحضور شهود من أسرة البائع أو من أسرة الطرفين معاً ومن الخبراء والكتاب ورجال الأعمال والموظفين المختلفين وهؤلاء كانوا عادة يتسلمون بعض الهدايا بعد إتمام الصفقة التى كانت توثق بعقد يختم بخاتم يعمل لهذا الغرض - وإذا كان المباع عقاراً كان على البائع أن يسلم مستند ملكية العقار إلى المشتري وأن يبين ما أدخل عليه من تعديلات منعا لحدوث الخطأ .

ولم تهمل القوانين ما يرتبط بالتجارة من نواح اقتصادية أخرى فقد نظمت عمليات استئجار العقارات والحيوانات والعربات والقوارب والعمال الزراعيين والقروض والرهن والضمانات والودائع وغيرها .

وفى العهد الاشورى كانت الاتفاقيات الخاصة تبدأ ببيان أختام المتعاقدين، ولم يكن من المعتاد وضع أختام الشهود على هذه الاختتام، وإذا لم يكن لدى المتعاقد ختم كان يصمم بإبهامه ويغرس ظفره فى الطمى - وكان نص

الوثيقة يحزر فى أسلوب غير شخصى ثم تنتهى بقائمة الشهود والتاريخ، وإذا ما أراد الكاتب أن يذكر اسمه فإنه يضعه فى نهاية قائمة الشهود - وكان البيع يتم مقابل فضة أو رصاص أو برونز ويدفع الثمن فوراً وإن لم يتسلمه المشتري فإنه كان يأخذ صكاً يعترف فيه البائع بالدين وكانت الجزاءات تحدد على من يقيم أى نزاع بشأن هذا التعاقد، وقد ينص على أجر مقابل توثيق العقد (ختمه) إلى جانب المبلغ الاصلى للبيع .

ولم تكن قيمة الاراضى الزراعية تقدر حسب مساحتها وإنما حسب كمية الحبوب اللازمة لزراعتها وكانت القيمة تتضمن أيضاً كل ما يرتبط بالارض من عبيد وطيور ومبان وحدائق - ومن الطريف أن تمالك القوى العقلية كان أساساً فى عملية البيع حيث نص القانون على أن الصرع عيب يلغى البيع وكان على المشتري أن يتبين وجوده لدى البائع خلال مائة يوم (عصر حورابى يعطى شهراً فقط) ، وفى هذه الحالة يحق له أن يلغى العقد ، أما إذا تبينت الإصابة بهذا المرض عقب تلك الفترة فإنها تعد حديثة ولا يترتب عايتها إلغاء العقد - وقد وجدت عقوبات محددة على البائع عند رجوعه عن الصفقة لأن ذلك كان يعد خطيئة فى نظر الآلهة حيث أن العقد كان يتضمن نوعاً من القسم ولو ضمناً على الأقل . وقد جرت التقاليد فى كثير من الأحيان أن يذيل الكاتب عقود البيع بعبارات تقليدية هى دفع المبلغ بالتام .

ولاتختلف القوانين الاشورية فيما يتعلق بالشئون الاخرى المتعلقة بالتجارة عن القوانين البابلية حيث أنها كانت تنص على إجراءات مماثلة فيما يتعلق بالتبادل والقروض والرهون والضمانات .

العلوم والآداب

بدأت الكتابة في بلاد النهرين كما بدأت في جهات أخرى من الشرق الأدنى بالتعبير عن الشيء بصورته ، وقد استمرت هذه المرحلة التصويرية في الكتابة فترة ثم أخذت بعد ذلك أشكالها تختصر ويقل عدد المستعمل منها تدريجياً إذ أصبحت الصورة تعبر لا عن الشكل المرسوم فحسب بل وعن كل ما يرتبط به من معانى أيضاً ، إلا أن ذلك قد أدى إلى صعوبة تأويل ما تدل عليه هذه العلامات - وقد أمكن تذليل هذه الصعوبة بالاصطلاح على معانى محددة لتلك الصور ، ثم استعملت هذه الصور في كتابة ما تدل عليه من أصوات للتعبير عن الأفعال والأمر المعنوية فأصبحت كل منها ترمز إلى نطاق معين يدل على كلمة - ومن هذه المرحلة الرمزية أمكن التوصل إلى جعل معظم الرموز تعبر عن مقاطع لفظية ، أى أن التعبير بالكتابة في بلاد النهرين سار في نفس الطريق الذى سار فيه التعبير بالكتابة لدى المصريين ، إلا أن هؤلاء الآخرين توصلوا فضلاً عن ذلك إلى استخدام حروف هجائية بينما لم تصل الكتابة في بلاد النهرين إلى مثل هذه المرحلة .

ونظراً لأن أهل بلاد النهرين قد استعملوا ألواحاً من الطين للكتابة عليها بقلم مثبات فإنه كان من العسير رسم الخطوط المنحنية واستيعاض عنها بما يقاربها من خطوط مستقيمة كما أن الخطوط التى كانت ترسم بذلك القلم تتخذ في نهايتها شكلاً يشبه رؤوس المسامير ولذا أصبح يطلق على كتابة بلاد النهرين اسم « الكتابة المسمارية » - وقد انتشرت هذه الكتابة في أنحاء كثيرة من بلاد الشرق الأدنى القديم ، فقد استعملها الحيثيون والعميلاميون والخوريون

كاتباً ممتازاً وإلى جانب هذا التعليم العام كان البعض يتخصص في مختلف فروع الثقافة العليا كالطب والفلك والقانون والموسيقى والعلوم الرياضية في معاهد خاصة .

وفضلاً عن ذلك كانت هناك مؤسسات خاصة أشبه بالمكتبات ودور السجلات لحفظ الكتب والوثائق ، وبعضها كانت تلحق بالمعابد الشهيرة والقصور الملكية - ومثل هذه عثر عليها في أنقاض قصر الملك « آشور بانيبال » وكانت تحوى مئات الألوف من ألواح الطين المدونة بمختلف نواحي المعرفة والعديد من السجلات والوثائق التاريخية وهى تلقى ضوءاً كبيراً على حضارة بلاد النهرين وتاريخها ، والظاهر أن هذا الملك كان قد جمعها من مختلف المدن إلى جانب ما نسخه عن أصول قديمة .. كذلك عثر في « تل حرميل » بالقرب من بغداد على أكثر من ٣٠٠ لوح كتبت في مختلف أنواع المعرفة ويظهر أنها كانت موضعاً لحفظ السجلات والوثائق أو مكان مدرسة .

ولابد من الإشارة هنا إلى أن مادة الكتابة في بلاد النهرين (ألواح الطين) لم تكن مادة يسيرة الحفظ بل كانت سريعة التعرض للتلف ولذا كان من المعتاد وضع الألواح بعد كتابتها في أغلفة من الطين ، كما أنه لم يكن من الميسور أيضاً عمل ألواح كبيرة الحجم منه ولذا كانت معظمها صغيرة الحجم وكثيراً ما كانت تتعرض للكسر عند إخراجها من أغلفتها وإذا تبعثرت هذه الألواح وتشتتت أجزاؤها فقد يعثر على جزء من لوح في مكان بينما يوجد ما يكمله في أماكن أخرى حتى أنه أصبح من المألوف أن توجد أجزاء من هذه الوثائق في بعض المتاحف ويوجد ما يكملها متاحف أخرى .

وبما يسترعى النظر أن الخط المسجاري مر بمراحل تشبه إلى حد ما المراحل التي مر بها الخط الهيروغليفى إذ أنه إلى جانب هذا الخط وجد الخط الآرامى الذى كتب بحروف هجائية قبل الميلاد ببضعة قرون ، ونظراً لسهولة هذا الخط الأخير نسبياً ولانتشار الآرامية بسبب نشاط الآراميين التجارى ، فإن هذا الخط أخذ يحل محل الكتابة المسجارية ومع هذا فقد ظلت هذه الكتابة منتشرة إلى بداية التاريخ الميلادى ولكنها هجرت بعد ذلك ولم يعد أحد يعرفها وظل الحال كذلك إلى القرن التاسع عشر ، فقبل بداية هذا القرن بدأ كثير من السياح يفسدون إلى الشرق ونقل بعضهم عدداً من ألواح حجرية مكتوبة وبعض الألواح الطينية ، وعكف بعض الباحثين على محاولة تفهمها وحل رموزها - وكما أمكن حل الهيروغليفية من حجر رشيد إذ كان مكتوباً بثلاث لغات كذلك وجدت آثار في برسيبوليس ، عاصمة الفرس الإخمينيين بثلاث لغات هى الفارسية القديمة والهيلامية والبابلية مع فارق واحد هو أن اليونانية التى كتبت على حجر رشيد كانت معروفة للباحثين بينما لم تكن أى من اللغات المدونة في برسيبوليس معروفة في ذلك الوقت ، ولكن نظراً لأن الكتابة الفارسية كانت أقل الكتابات عدداً في علاماتها وأقل تعقيداً في شكلها فقد ركزت الجهود على حلها وأمكن التوصل فيها إلى اسمى ملكين من ملوك فارس ثم عرفت مفردات أخرى من هذه اللغة وبعد ذلك تمكن العلماء بالاستعانة بما أمكن معرفته من هذه اللغة في حل رموز اللغة البابلية وأمكن التوصل فعلاً إلى معرفة مفردات منها وجزء من علاماتها - ثم تتابعت جهود العلماء فازدادت المعرفة باللغة البابلية ، وبلغ من دقة ما توصلوا إليه أنه أجرى للعلماء في مختلف الأقطار شبه امتحان حيث قدمت لكل منهم نسخة من نص

لم يكن معروفا من قبل وعندما فحصت ترجماتهم له وجدت متطابقة في معناها بما بعث الإطمئنان إلى صحة المعلومات التي عرفت عن هذه اللغة ومن ثم أخذ علم الآشوريات يزداد توسعاً وانتشاراً - وبما ساعد على سرعة فهمها أنها كلغة سامية تتشابه في نحوها وفي بعض مفرداتها مع اللغات السامية الأخرى المعروفة مثل العربية والعبرية - وعن طريق حل رموز اللغة البابلية أمكن التعرف على اللانة السومرية إذ وجدت بعض الكتابات المسماة التي كانت أشبه بمهاجم لشرح الكتابات السومرية باللغة البابلية كما سبق أن أشرنا .

وقد ساعد حل رموز اللغة على التعرف على تاريخ بلاد النهرين من مصادره الأصلية ، ولكن صادفت المؤرخين صعوبات كثيرة في هذا السبيل لعل من أهمها عدم وجود حادث أساسي تؤرخ الحوادث بالنسبة إليه كما هو الحال بالنسبة للتواريخ المعمول بها الآن مثل ميلاد المسيح والهجرة ، إلا أن ملوك بلاد النهرين كانوا يعمدون إلى اتخاذ حادثة معينة شهيرة أساساً لتأريخ الحوادث في سنة وقوع هذه الحادثة الشهيرة ، وظل الحال كذلك إلى نهاية عهد الأسرة البابلية الأولى تقريباً ثم عدلوا عن ذلك إلى تأريخ الحوادث بالنسبة إلى عهد الملوك - وظل الحال كذلك إلى العهد السلوقي وإن كان الآشوريون قد استخدموا طريقة أخرى في التأريخ حيث كانوا ينسبون السنين إلى عظماء رجال الدولة الذين عاشوا فيها ابتداء من الملك نفسه فكانوا يجمعون حوادث كل ملك في ثبت خاص متسلسل ابتداء من اعتلائه على العرش ، وقد أضافوا إلى ذلك بعض الملاحظات التاريخية والتعليقات الخاصة بها في نظام أشبه بنظام الحوليات - ومن ذلك

مثلا أنهم ذكروا كسوف الشمس يمكن بالحساب الفلكي تحديد وقت حدوثه بالدقة في ١٥ يونيو ٧٦٣ قبل الميلاد وكان هذا من الأمثلة التي ساعدت على ضبط تاريخ الآشوريين بالنسبة للتاريخ الميلادي كما ساعد على ضبط تاريخ بلاد النهرين عامة - وما ساعد على التعرف على تاريخ بلاد النهرين أن بعض الكتاب والمؤرخين القدامى تركوا قوائم بأسماء الملوك السابقين وتتابعهم وقسموها إلى أسرات حاكمة (١) - وإلى جانب هذه ترك البابليون والأكديون كتابات أخرى تاريخية تشيد بأعمال الملوك والأمراء ، كما أن ملوك الآشوريين اعتادوا أن يدونوا أخبار حروبهم بهيئة رسائل يرسلونها إلى كبير الآلهة ، فمثلا يبدأ الملك « سرجون الثاني » رسالة إلى الإله آشور بتحيةة هذا الإله وتحمية الآلهة الآخرين كما يحيى المدينة وسكانها ثم يسرد أخبار حملته بالتفصيل كذلك التي قام فيها بغزو « أرمينيا » وهكذا .

وقد عني مؤرخو الآشوريين بتدوين الحوليات الخاصة بالملوك مرتبة حسب سني حكمهم أو على حسب العهود الدورية التي كانت تنسب إلى عظماء رجال الدولة ، ومن هذه الحوليات أمكن جمع تاريخ واف لآشور - ولم تقتصر المصادر التاريخية على ذلك بل نجد أن البابليين في عهد الدولة البابلية الجديدة قد عنوا بكتابة تاريخ العصور السابقة حتى تناولوا حوادث سبقت زمنهم بنحو ألفي عام ، وهكذا نجد أن التدوين التاريخي في بلاد النهرين كان موضع عناية في مختلف عصورها .

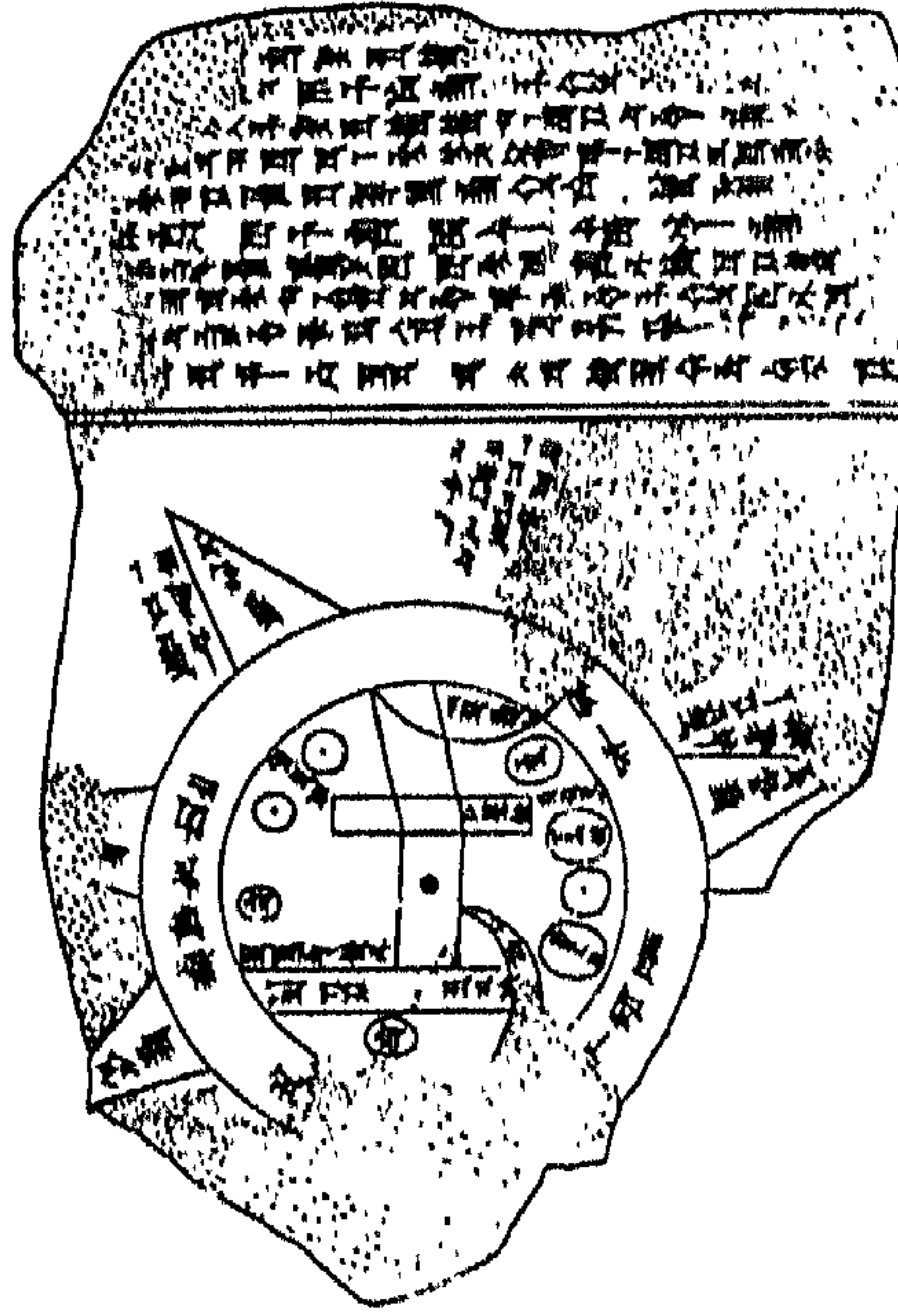
ولم يقتصر اهتمام أهل البلاد على المعارف التاريخية وحدها بل

(١) أنظر كتاب معالم الشرق الأدنى القديم المؤلف من ٣٤٧ وما بعدها .

فكروا فى مختلف النواحي العلمية ، ومن أهم ما عنوا به محاولة التعرف على الكون ومكان بلادهم منه وما حواه من بلاد أخرى - وقد اعتقدوا أن الأرض شبيهة بالسماء فهى كمنصف كرة مقلوبة تعلوها السماء التى تتكون من ثلاث طبقات أو سبع طبقات ويحيط بالسماء البحر والمحيط السماوى كذلك قسموا الأرض إلى ثلاث طبقات أو سبع أهمها الطبقة العليا التى يسكن فيها البشر والطبقة الوسطى وهى منطقة المياه والطبقة السفلى وتسكنها أرواح الموتى ، كما جعلوا لها أربعة أركان فى الجهات الأربعة الأصلية .

وبازدياد النشاط التجارى والفتوح الخارجية تعرفوا إلى مناطق مختلفة ووصلوا إلى أماكن بعيدة فوضعوا قوائم مطولة بأسماء المدن والبادان والأنهار وغيرها من المعالم الجغرافية فى بلادهم وفى الأقطار المجاورة بل وتحوى بعض مؤلفاتهم فى هذا المضمار إضافات لتفسير أسماء بعض الأقاليم والمدن وأسماء المعابد كما تحوى بعضها كذلك معلومات أخرى مفيدة مثل تعداد المدن وتعريف المسافات فيما بينها ، وبما يدل على تقدمهم فى النواحي الجغرافية ما عثر عليه من نصوص تبين طرق مسح الأرض وتخطيطها ورسم الخرائط لبعض المدن - وتعد الخريطة التى عثر عليها لمدينة « نفر » من أقدم الخرائط المعروفة وهى من الدقة بحيث ساعدت المنقبين على التعرف على الأماكن المهمة التى كانت فى تلك المدينة . وقد وجدت كذلك خرائط لمدن أخرى - كذلك عثر على محاولة لرسم خريطة للعالم المعروف لديهم وهى تصور الأرض فى هيئة دائرة يخترقها نهر الفرات فى الوسط وهو يأتى من الجبال الشمالية ويصب فى

منطقة الأهوار في الجنوب ، وقد حدد مكان بابل بالقرب من مركز هذه الدائرة كما عيّنت أماكن بعض البلدان الأخرى في هيئة دوائر صغيرة بالنسبة لبلاد النهرين وفي هيئة مثلثات خارج الدائرة بالنسبة للأقطار الأجنبية ، ويحيط باليابسة في هذه الخريطة البحر الملح الذي تخرج منه ثمانية جزر بينت المسافات فيما بينها بالساعات البابلية (أنظر شكل ٤٨).

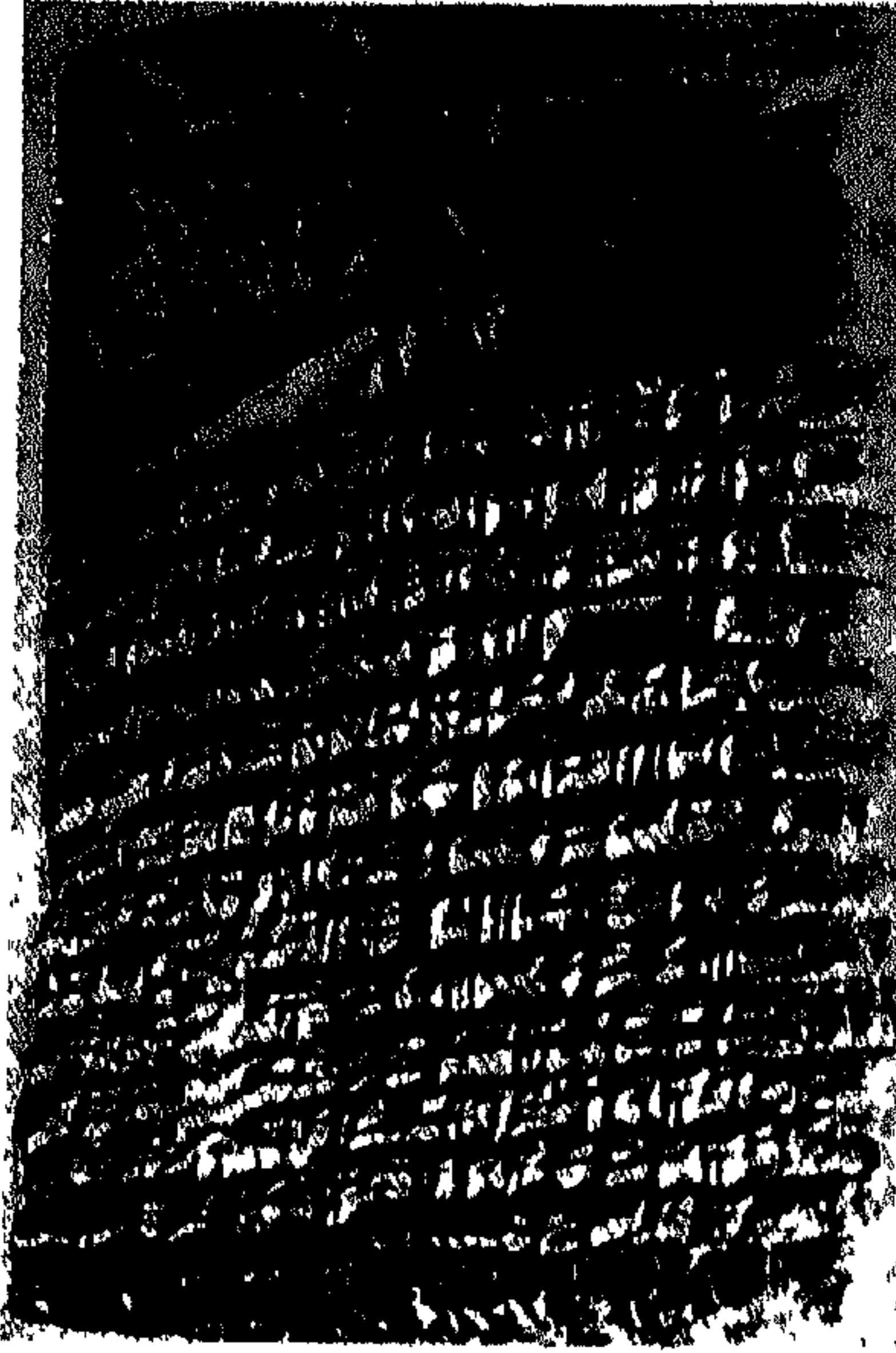


(شكل ٤٨) : خريطة للعالم يبين بها موقع بابل كنقطة قريبة من مركز الدائرة

ولابد أن العلوم والمعارف قد نشأت في بلاد النهرين كما نشأت في غيرها من بلاد العالم القديم لتحقيق أغراض عملية ، ولعل الحاجة لضبط حسابات المعابد وغيرها من الأمور الاقتصادية هي التي حثمت معرفة

الأعداد ثم تدوينها ومن ذلك نشأت الرياضيات - وقد بدأت بالعمليات الحسابية البسيطة دون شك - وبما ساعد على تقدم الرياضيات في بلاد النهرين نشاطها التجارى مع البلدان المجاورة من جهة ومن جهة أخرى حاجتها للأعمال المتعلقة بتنظيم شئون الرى وشق الطرق لتيسير التجارة إذ أن هذه الأمور دعت إلى ظهور الموازين والمكاييل والمقاييس المختلفة وحساب المعاملات التجارية وأرباحها والتعرف على خواص الأشكال الهندسية ، وقد وجدت بعض المصنفات الرياضية كجداول الضرب وجداول معكوس الأعداد ورفعها إلى قوى مختلفة (الأس) وجذورها كما وجدت بعض المسائل والقواعد الرياضية التى تحمل على أساسها ، كذلك عرفوا بعض النظريات الهندسية التى تتعلق بتشابه المثلثات ومساحاتها (شكل ٤٩) ، وعرفوا الكسور وإن كانوا قد استخدموا الطريقة الستينية بدلا من الطريقة العشرية - وتوصلوا إلى حساب مساحات وحجوم بعض الأشكال وعرفوا خواص الدوائر وغير ذلك من الرياضيات الراقية .

ومن الأمور التى اهتم بها أهل الحضارات القديمة عامة وأهل بلاد النهرين بصفة خاصة علم الفلك وقد بلغ من شهرتهم فيه أن كثيراً من المؤرخين أصبحوا يعتقدون بأن البابليين هم الذين أسسوا هذا العلم ، وقد حظى علم الفلك بين البابليين بشهرة عظيمة لدى الإغريق حتى أخذوا عنه ، إذ أن أهل بلاد النهرين عنوا منذ أقدم العصور بتدوين ملاحظاتهم عن الأجرام السماوية - وربما كانت حاجتهم إلى ضبط الفصول والتقويم هى السبب فى نشأة هذا العلم لديهم وإن كان البعض يظن بأنه نشأ من التنجيم الذى بدأ بمعرفة تأثير النجوم فى طبائع البشر والتسكن بمصائرهم،



(شكل ٤٩) : لوح عليه نظرية هندسية

ومهما كان الأمر فقد تطور علم الفلك وأصبح يبنى على أسس رياضية
وأمكن التوصل فيه إلى نتائج هامة ، ومن ذلك اعتبار الشمس مركز
الكون وأن المد والجزر يرجعان إلى تأثير القمر - وقد استخدموا في
في أرصادهم بعض الآلات كما يظن أن الزاقيات كانت تستخدم لرصد
الأجرام السماوية إلى جانب وظيفتها الدينية .

وقد قسم البابليون اليوم الفلكي إلى ١٢ قسماً كل منها يتكون من
٣٠ جزء وقسموا السنة إلى ١٢ شهراً قريبا يضاف إليها شهر آخر كلما
دعت الحاجة لضبط فصول السنة ، كما قسموا دائرة السماء بواسطة النجوم
الثابت إلى ١٢ قسماً ورصدوا بعض الكواكب مثل الزهرة وحسبوا

أبعادها بالدرجات وبغير ذلك من الأمور الفلكية الدقيقة - ولقياس الزمن استعملوا ساعات مائة لقياس أجزاء الليل وساعات شمسية أو مزاو لقياس أجزاء النهار .

هذا وقد سبق أن أشرنا إلى أن أهل بلاد النهرين وضعوا قوائم عن الحيوانات والنباتات التي عرفوها ، وهذه وإن كانت قد وضعت لخدمة أغراض لغوية إلا أنها في الواقع كانت تحوى معلومات قيمة عن الحيوانات والنباتات التي ألفوها وقد قسموها إلى أنواع أو أجناس متشابهة أى أنهم أتبعوا نظام التصنيف العلمى ولكنهم أخطأوا فى ذلك أحيانا حيث نجد أنهم وضعوا تحت جنس الكلب الذئب والضبع والأسد كما جعلوا كل ما يعيش فى الماء تحت صنف السمك بما ذلك الاصداف والسلاحف ، وربما كانت مصنفاتهم فى النبات أكثر دقة حيث أنهم جعلوها فى مجاميع متشابهة من حيث أشكالها وثمارها وميزوا فى بعض أنواع الأشجار بين الذكر والانثى .

ونظراً لأنهم عرفوا صناعة الفخار منذ أقدم العصور فإنهم عرفوا الكثير من خواص الطين وتأثره بالحرارة والأصبغ المختلفة كما توصلوا إلى طريقة التزجيج وعرفوا المعجائن واللدائن الكيماوية - ومن إقبالهم على بعض المصنوعات المعدنية اتقنوا التعدين وصهر المعادن ومزجها وتوصلوا إلى معرفة أنواع مختلفة من السبائك كما حاولوا التوصل إلى تحويل بعض المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة وقلدوا الأشياء المصنوعة من مواد ثمينة بالاستعانة ببعض الأصباغ والعقاقير واستخدموا الأدوية والصابون والعطور أى أنهم تقدموا فى الصناعات الكيماوية وخاصة تلك التى تخدم أغراضهم

العملية .. وقد أثر على بعض مؤلفاتهم في هذا المضمار وإن كنا نجمل أسماء بعض المواد التي ذكروها ، كما أن بعض عملياتهم الكيميائية كانت تتضمن بعض الرقى السحرية والدينية ومع ذلك فقد تمكنوا من استخلاص الكثير من المواد المفيدة مثل الزئبق وعرفوا الماء المالحى الذى يذيب الذهب ونجحوا فى استخراج عدد كبير من الأدوية المعدنية وصلنا منها أسماء ما لا يقل عن ١٢٠ نوعا .

وفى مجال الطب توصلوا إلى الكثير من المعلومات الهامة عن الامراض وتشخيصها وعن تشريح الجسم والعقاقير النافعة ، وإن كان العلاج قد ظل مختلطا بالسحر لأنهم كانوا يعتقدون أن الامراض كانت تسببها أرواح وشياطين شريرة وأن الآلهة هى التى تساعد على التخلص منها - وقد اعتبروا أن الإله « ايا » إله الماء هو إله الطب أيضا ، ونظرا لاستخدام المياه كثيرا فى العلاج فإن الطبيب كان يطاق عليه كلمة معناها « العارف بالماء » - كذلك كان من آلهة الطب عندهم الإله « نازو » أى « سيد الأطباء » وكان ابنه « ننجشريدا » أيضا من آلهة الطب ، ومن رموزه المقدسة عصا تلتف عليها حية أو حيتان وهذه هى التى يتخذها الأطباء حديثا شارة لهم حيث تعتبر الحية قادرة على تجديد شبابها لأنها تخلع جلدها فيعود اليها الشباب - ونظرا لأن العلاج كان كثيرا ما يتضمن الرقى والتعاويذ لاسترضاء الآلهة والحصول على مساعدتها فى شفاء المرضى فإن الأطباء كانوا غالبا من الكهنة ، ومع هذا لم يهمل هؤلاء فى علاجهم فن تشخيص الامراض ووصف العلاج إلى جانب ما يلجأون اليه من العرافة والسحر . ويستدل من النصوص التى خلفها أهل بلاد النهرين على أن عدد

الاطباء لم يكن قليلا ، ومنهم من كانوا يؤدون عملهم كوظفين رسميين وخاصة لدى الملوك ومنهم من كانوا يعملون لحسابهم - وقد يرسل بعض الاطباء الرسميين إلى ملوك بعض الاقطار الأخرى لعلاجهم - كذلك كان الاطباء ينقسمون حسب تخصصاتهم إلى جراحين ومعالجين بالعقاقير ، وقد عرفوا كثيرا من الأمراض وصنفوها ووصفوا أعراضها وعلاجها وكيفية استعمال الادوية المختلفة التي قسموها حسب مصادرها إلى أدوية نباتية وأخرى حيوانية وثالثة معدنية ، كما قسموها من حيث استعمالها إلى أدوية تستعمل من الظاهر (أى دهون) وأخرى للتناول - واستعانوا ببعض الأدوات لوضع الادوية في أماكن دقيقة من الجسم مثل العين والأذن إلى جانب استعمال بعض الأدوات الجراحية - ورغم كثرة ما خلفه أهل بلاد النهرين من النصوص لانجد تنوعا كبيرا في آدابهم إذ أن معظم ما تناولته كان متعلقا بالأساطير الدينية إلى جانب التدوين التاريخي وبعض الرسائل وكلها تتضمن بعض الأمثال والحكم - وبالطبع ليس من السهل فهم كل هذه الأمثال لأن البعض منها يتناول ما كان سائدا من لمادات. وتقاليد وظروف مختلفة مازلنا نجهل الكثير منها .

الفنون^(١)

ظهرت أقدم محاولات الإنسان في الرسم والنقش في العصور قبل التاريخية حيث بدأها على الفخار بتزيينها بزخارف هندسية وأشكال حيوانية ونباتية انتشرت بعض طرزها إلى إيران شرقا وإلى البحر المتوسط غربا - ومن فترة التمهيد للكتابة ظهر النقش البارز وشاع استخدام الاختتام الأسطوانية، ويبدو تأثر الفنان في هذه المرحلة بمظاهر البيئة التي عاش فيها إذ تغلب على الأشكال والزخارف التي رسمها ظاهرة التداخل حتى أنه تصرف في أشكال الحيوانات فجعل رقابها أو ذيلها تتداخل أو تتقاطع بحيث تبدو كأنها كائنات خيالية .

وفي عصر فجر الاسرات استبدل هذا الطراز الزخرفي بأسلوب تصويري وتعددت الموضوعات التي تناولها الفنان وتنوعت وسائله للتعبير عنها فقد يلجأ إلى تمثيل المناظر التي يبدعها بقطع مختلفة الألوان من الاصداف المسطحة تكملها خطوط محفورة في ألواح أردوازية تثبت في الجدران - وقد وجدت نماذج جميلة للنحت منذ أقدم العصور، ومن خير الامثلة على ذلك القيشارة الممثل بها رأس ثور (شكل ٥٠) ، وفي حالة النحت البارز على السطوح كانت الحيوانات تمثل من الجانب بينما تبرز رؤوسها إلى مواجهة الناظر (شكل ٥١) ، أما الاشخاص فكانوا يمثلون

(١) أنظر مقال المؤلف « بين الفنون والبيئة » في مجلة كلية الاداب جامعة الاسكندرية سنة



(شكل ٥٠) : قيثارة مثل بها رأس ثور
وهي من القطع الفنية الممتازة

من الجانب في معظم الأحيان مع إظهار الشخص الرئيسي - كما هو الحال
في المناظر التي تركها الفراعنة - في حجم أكبر من بقية الأشخاص الممثلين
معه كذلك كانت الملامح الأشخاص قوية التعبير ثم ما لبثت هذه الملامح



(شكل ٥١) : لمبريق من الحجر نحتت عليه حيوانات
تواجه الناظر

أن لطفت في عهد البابليين وزاد تنوع موضوعات النحت ، إلا أن ذلك لم يدم طويلاً حيث تدهورت الفنون بصفة عامة أثناء حكم الكاشيين بعد أن تخلى الفنانون عن كثير من تقاليدهم القديمة .

أما في عصر الآشوريين فإن التقاليد القديمة قد عادت إلى الظهور كما ظهرت تأثيرات خارجية لم تكن معتادة في بلاد النهرين ، فمثلاً شاع تمثيل الإله بهيئة آدمية داخل قرص الشمس وهو يسحب قوسه ليعاون الملك ضد أعدائه (شكل ٤٦ أعلاه) كما شاع تزجيج قطع كبيرة من المنحوتات وهذه مظاهر كانت مألوفة من قبل في مصر ، وقد تقيّد الفنان بتقاليد فنية - ربما كانت ترجع إلى تأثير ديني - التزم بها ولم يخرج عنها إلا نادراً .

وعلى العموم يمكن القول إجمالاً بأن الفنان في بلاد النهرين كان كزميله المصرى يعرف قواعد المنظور وفن الكاريكاتير وقد ترك كل منها أمثلة قليلة تدل على ذلك وانسكبتها آثاراً أن يكون فيها تأثيراً أكثر منه إخبارياً .

وسار نحت كتل الاجسام (التماثيل) هو الآخر وفق تقاليد معينة هو الآخر ، ويبدو في تلك التماثيل ما تعكسه البيئة من أثر إذ أن بيئة بلاد النهرين يغلب عليها طابع الانفصال في وحدات صغيرة تتمثل في أماكن متناثرة تعلو في مستواها عن منسوب الجارى والمسطحات المائية كأنها مخاريط أو أساطين قائمة بذاتها ، وقد استوحى الفنان هذه الأشكال في نحت تماثيله فجاءت في هيئة كتل مخروطية أو أسطوانية (شكل ٥٢) -



(شكل ٥٢) : تماثيل مغنية يبدو كأنه من مخاريط وأسطوانات



شكل (٥٣) : تمثالين تبدو فيهما ضخامة الساقين

ونظراً لأن التماثيل كانت تقام من أجل غرض ديني فقد غالى الفنان في إبراز الاهتمام الشديد في ملامح التمثال وبالع في حجم العيون ولذا اضطر إلى جعل نسبة الوجه إلى الرأس أكبر مما ينبغي ولم يلجأ فنان بلاد النهرين إلى ما لجأ إليه الفنان المصري من عمل دعامة يستند إليها التمثال أو عدم تفريغ ما بين الساقين حتى تحتملان ثقله ولا تتعرض للكسر بل لجأ إلى جعل هذين الساقين على درجة من الضخامة لا تتناسب مع حجم التمثال وخاصة عند العقبيين (شكل ٥٣) - كذلك لم يوفق في إبراز تقاطيع الجسم كما وفق زميله المصري في ذلك بل ويبدو أيضاً أنه لم يهتم كثيراً بالزى الذى يلبسه لتمثاله ، غير أنه بلغ مرتبة عالية في إتقان تماثيل الحيوانات وأبدع فيها غاية الابداع .

وفي مجال العمارة سبق أن أشرنا إلى ما كانت عليه مساكن أهل بلاد النهرين (أنظر أعلاه ص ٢٠٢ - ٢٠٤) وبينما أهم ما تميزت به .

أما المباني العامة مثل المعابد فكانت تقام في أول الأمر من الطين ، وبعد أن عرف اللبن استخدم هذا في بنائها وظل الحال كذلك فترة طويلة حتى بعد أن عرف الآجر (اللبن المحروق) - وقد حرمت البيئته في جنوب العراق من موارد كافية للآحجار الصالحة للبناء فاستعويض عن ذلك بجعل الجدران سميكة ضخمة حتى تكون لها متانة الجدران الحجرية ، كما كان من الضروري تعريب هذه الجدران بجعلها ذات نتوءات وتجاويف (كجدران الحصون) على أبعاد متساوية وربما كان هذا الشكل قد نشأ عن ضرورة حرية وليس لمجرد تقوية الجدران أو الزينة إذ أن المعبد كان يعد أقدس مكان للجماعة وهو مقر معبودها ، ونظراً لأن الأسلحة البعيدة المدى لم تكن معروفة عند نشأة هذه المعابد فمن المرجح أن التجاويف التي كانت بالجدران كانت تتيح للدفاعيين فرصة الاحتباء فيها ومباغثة العدو^(١) - ثم ظهر طراز آخر للمعابد يتمثل في بناء من طبقات في هيئة مصاطب تتدرج في صغرها إلى أعلى وهو الأصل الذي تطور إلى الزاقورة أو البرج المدرج^(٢) - ويعتقد المؤرخون بأن أهل بلاد النهرين قاموا ببناء هذه المعابد المرتفعة لاعتقادهم بأن الإله يهبط إليها ويشرف منها على شئون البشر ، ولأن من جهة أخرى يمكن تفسير ظهور هذا

(١) أنظر مقال المؤلف « بين الفنون والبيئة في كل العراق ومصر ، مجلة كلية الآداب ١٩٦٧ ، ص ٢٦٦ وما بعدها .

(٢) أنظر نفس المقال السابق ، شكل (٢ ب) .

الطراز لما له من ميزة دفاعية إزاء ما استحدثت من أسلحة أبعد مدى من أسلحة العصور السابقة، وبما يؤيد ذلك أنه على الرغم من بناء معابد أرضية إلى جوار هذه المعابد المرتفعة فإن كلا من هذه المعابد كان يحاط بسور خاص إلى جانب السور العام الذى كان يحيط بمجموعة المعابد .

وكانت المعابد عموماً تخضع فى تصميمها لتقاليد موروثة إلا أن المعماريين كثيراً ما كانوا يتصرفون فى ترتيب أجزائها المختلفة - والتصميم الغالب فيها أن يكون بجدارها الخارجى مدخل أو أكثر لها بوابات مزدوجة وتؤدى إلى فناء أوسط وهو بدوره يؤدى إلى بهو عن طريق بوابة رئيسية ، وهذا البهو ينتهى فى طرفه البعيد بالهيكل الذى تقع أمامه غرفة يلحق بها كما يلحق بالهيكل مخازن للأمتعة المقدسة ، وكان من المعتاد أن يوضع فى أساس كل معبد رمز للوقاية يكون أحياناً عند البوابة فى إحدى المشكاوات وأحياناً تحت أرضية قدس الأقداس وقد يوجد مذبح أمام قدس الأقداس إلا أن الغرض منه يكون رمزياً فحسب لأن مذابح أخرى كانت تقام فى أماكن أخرى من المعبد ، ومنها ما كان كبير الحجم بحيث يصلح لذبح الماشية .

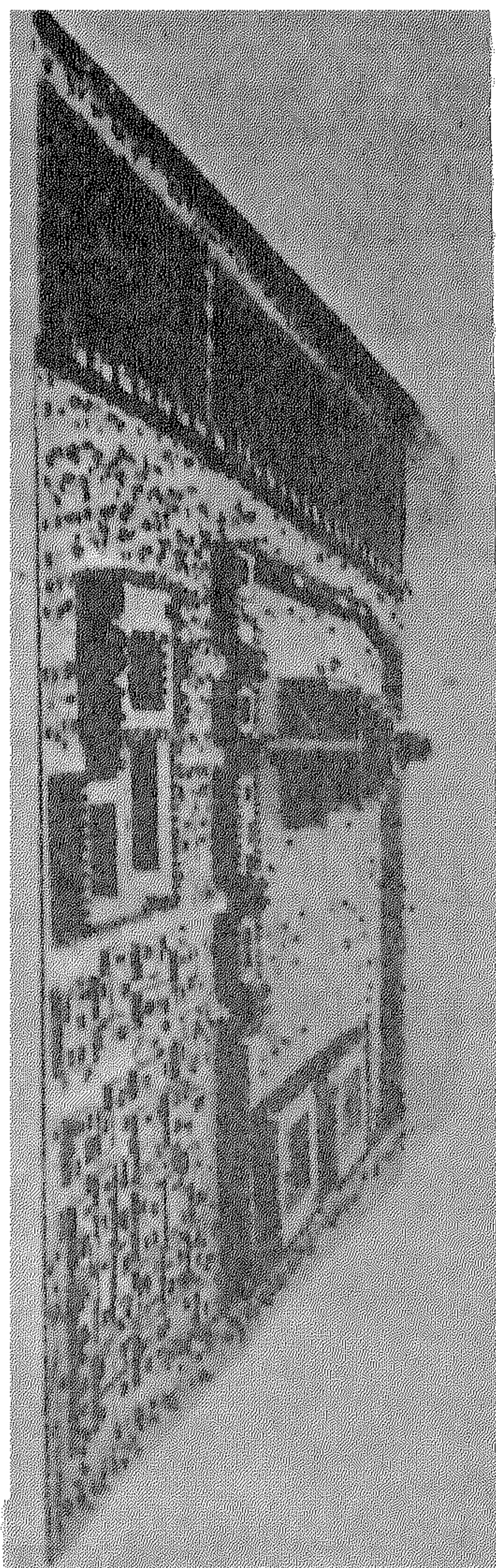
ومن الجدير بالذكر أن قدس الأقداس فى المعابد المرتفعة (الزاقورات) كان يتمثل فى أعلى طبقة منه حيث يوجد هيكل كبير روى هيرودوت أنه كان يحوى سريراً مزخرفاً زخرفة فخمة وتقوم إلى جانبه مائدة من الذهب ، كما روى هيرودوت أن الإله كان يختار امرأة من الريف

لتمضى الليل في هذا الهيكل (١).

وفي العهد البابلي ظهر طراز جديد من المعابد يبدو أنه كان مشيهدا لعبادة الملك الحاكم وهو مربع الشكل أضيفت إليه ركائز أو دعائم، وفي مدخله برجان مزينان بالتجاويف - وهذا المدخل يؤدي إلى ممر ضيق في يساره غرفة للتخزين وفي نهايته بناء مربع يؤدي إلى صومعة بها كوة لتمثال الإله أمامها مجرى من الفخار لتصريف سوائل القرايين وإلى يسار الصومعة غرفة للإجتماعات أو للصلاة - وإلى يسار المعبد قصر الحاكم الذي يقع إلى غربه معبد آخر بنفس نظام المعبد السابق ولكنه يتميز بما ألحق به من مبان خصصت للكهنة - ومن هذا يبدو واضحا أن قصر الملك كان يحتمي بهذين المعبدين حيث كان من المحتم أن يمر من يذهب إلى القصر بأحد المعبدين وكان عليه بعد ذلك أن يمر في غرفتين طويلتين ضيقتين شددت عليهما الحراسة - وبين الغرفة الأخيرة والقصر ساحة مربعة تؤدي إلى الديوان، وهو عبارة عن حجرة كبيرة للأعمال الإدارية والاحتفالات تحيط بها دوائر - وإلى هذه الحجرة قاعة للعرش تفصل الديوان عن الغرفة الخاصة للملك.

ولم يحدث تطور يذكر في طرز المعابد أو القصور الملكية إلا في زيادة عدد الأفنية والحجرات وإضافة أبراج قوية عند الزوايا كما زينت الفجوات التي بجدران المعابد بمنحوتات بارزة من الآجر - وفي عهد الآشوريين استعملت ألواح حجرية لحماية الأجزاء السفلى من جدران

المعابد والقصور كما أن المناظر المنقوشة على الجدران كانت تزجج - أما أسوار المدن فكان في كل ضلع لها مدخلان ، وهذه المداخل تحميها أبراج قوية ، وعلى أبواب القصور وضعت تماثيل لثيران مجنحة ذات رؤوس بشرية ربما كان القصد منها أن تكون رمزاً للحماية - أما في العصر البابلي الحديث فقد اختفت هذه التماثيل وحلت محلها نقوش الحيوانات وأزهار على آجر أزرق مزجج ، وكان قصر الملك يقع في إحدى نهايتي الشارع الرئيسي للمدينة وفي النهاية الأخرى يوجد المعبد الرئيسي وإلى جواره برج بابل أو زاقورة الإله مردوخ (شكل ٥٤).



شكل (٥٤) : منظر عام للدينة بابل وتصورها وزاورة الإله مردوخ

سادسا - ايران

تدل الابحاث الجيولوجية على أن إيران كانت أثناء العصور الجليدية في أوربا تكثر بها السطوح المائية لتمرصها لكمية وفيرة من التساقط حتى أن كثيراً من جهاتها بما في ذلك بعض الوديان العليا كانت تحت سطح الماء ، وأن صحراء الملح التي قتوسط الهضبة كانت بحيرة عظيمة أو بجزراً داخيا ، وفيما بين الالفين الخامس عشر ولعاشر قبل الميلاد أخذ المناخ يتدرج نحو الجفاف وحدثت بعض التطورات التي أدت إلى تراكم رواسب الأنهار عند مصباتها مكونة مدرجات مرتفعة تمثل منطقة انتقال بين الجبال وبين السهول الفيضية التي كانت في سبيل التكوين .

ولابد أن إنسان العصور قبل التاريخية الذي عاش في الهضبة^(١) كان ينتقل إلى حافة السطوح المائية كلما أخذت هذه في الانكماش والتراجع ، وكان حينئذ يعيش في جماعات متفرقة متباعدة في معظم الأحيان - وقد تعرضت هذه الجماعات إلى مؤثرات خارجية لقربها من مناطق حضارية مثل بلاد النهرين من جهة ولوقوعها في طريق الهجرات البشرية الآتية من المناطق الرعوية والجبلية من جهة أخرى - وفضلا عن ذلك فإن وقوع الهضبة الإيرانية بين بلاد النهرين وبين أرمينيا وروغبة ملوك الأولى في الحصول على بعض الموارد من الأخيرة مثل الرصاص قد أدى إلى أن

(١) عن حضارات العصور قبل التاريخية في إيران أنظر كتاب المؤلف «معالم تاريخ مصر والعراق الأثني القديم» ص ٣٩٨ وما بعدها .

تصبح إيران أو جزء منها على الأقل منطقة عبور لمثل هذه الموارد .
ولا يعرف على وجه التحديد متى وصل الإيرانيون الذين ينتمون إلى
العناصر الهندو أوروبية التي كونت امبراطوريات عظيمة فيما بعد - ولكن
من المرجح أنه في خلال الألف الثانية قبل الميلاد قامت هجرة عظيمة
من الشعوب الهندو أوروبية من مواطنها التي كانت على الأرجح في السهول
الأوراسية جنوب روسيا - وقد تفرعت هذه الهجرة إلى شعبتين : غربية
دارت حول البحر الأسود وعبرت البسفور ثم وصلت إلى آسيا الصغرى
(وفي أثناء دورانها تقدمت بعض جماعاتها إلى شبه جزيرة البلقان) ويطلق
على هؤلاء اسم الهندو أوروبيين ، وشرقية دارت حول بحر قزوين وعبرت
القوقاز ثم وصلت إلى منحى الفرات واختلطت بالخوريين الأصليين الذين
كانوا أيضا من أصل آسيوى ، ونشأ عن ذلك الاختلاط قيام مملكة
ميتاني ، وقد خرجت من هذه الجماعات بعض العناصر المحاربة التي تستخدم
الجياد إلى امتداد جبال زاغروس واخترقتها جنوبا إلى منطقة اشتهرت
فيما بعد كمركز لتربية الخيول ، وقد بدأت هذه الجماعة في تلك المنطقة
كأقلية نشيطة سرعان ما طغى نفوذها على سكانها الأصليين الذين كانوا
يعرفون باسم الكاشيين وامتصتهم - وهذه المجموعة الشرقية كلها عرفت
باسم الهندو إيرانيين .

ويمكننا أن نتخيل بأن الإيرانيين وصلوا إلى الهضبة بزوجاتهم
وأولادهم وحيواناتهم ، وقد انتهزوا فرصة انقسامها إلى عدد من الدويلات
فدخلوا في خدمة أمراءها كمحاربين مرتزقة وتمسكوا في النهاية من أن
يستأثروا بالسلطة وأجبروا السكان الأصليين على الخضوع لهم .

ومن العسير أن نتتبع هذه التطورات إذ لا توجد وثائق تدل عليها ولكن يمكننا أن نستنتج بعض مظاهر حضارتهم من الآثار التي خلفوها إلى جانب الآثار الدالة على حضارة السكان الأصليين ، وتدل البعثايا البشرية التي عثر عليها لهؤلاء القادمين الجدد على أن معظمهم كانوا من ذوى الرؤوس العريضة أى أنهم كانوا يشبهون العناصر التي انتشرت في إيطاليا وغرب أوروبا ، وكانوا ينقسمون إلى جماعات قبلية حلت كل منها في جزء من أجزاء الهضبة - وكان الميديون والفرس (الاخمينيون) أهم هذه الجماعات وقد نزل الميديون في غرب الهضبة ثم كونوا دولة صغيرة الأجل عرفت باسم الدولة الميدية ، ونزل الفرس في الجزء الجنوبي الغربى وأصبح اسمهم يطلق عن هذه المنطقة التي استقروا فيها ثم صار عليها على الدولة التي شملت الهضبة كلها وبلغت من الاتساع في وقت ما درجة جعلتها أعظم الامبراطوريات في الشرق الأدنى .

والخلاصة أن ظهور هذه الشعوب في هضبة إيران واندماجها مع سكانها الأصليين قد بعث فيها حيوية فائقة ونهضة حضارية عظيمة إذ بعد أن كانت الهضبة تسودها دويلات مدن أو دويلات حول المعابد سرعان ما تحولت هذه إلى اتحادات قوية ما لبثت أن كونت إمبراطوريات من أقوى الامبراطوريات التي ظهرت في التاريخ وأبعدها أثراً في ميدان الحضارة .

ومها قيل عن اختلاف هذه الجماعات عن السكان الأصليين من جهة واختلاف قبائلهم ومكان استقرارهم من جهة أخرى فإنه من الممكن مع التغاضى عن قصر أجل دولة الميديين - أن نعتبر أن الحضارة التي

وصلت إليها هذه الجماعات - مع شيء من التجاوز - كانت استمراراً لمظاهر حضارية كانت قائمة في الحضبة وتطوراً لها ، سواء كانت هذه أصيابة أو متأثرة بمؤثرات خارجية .

الحياة الاجتماعية

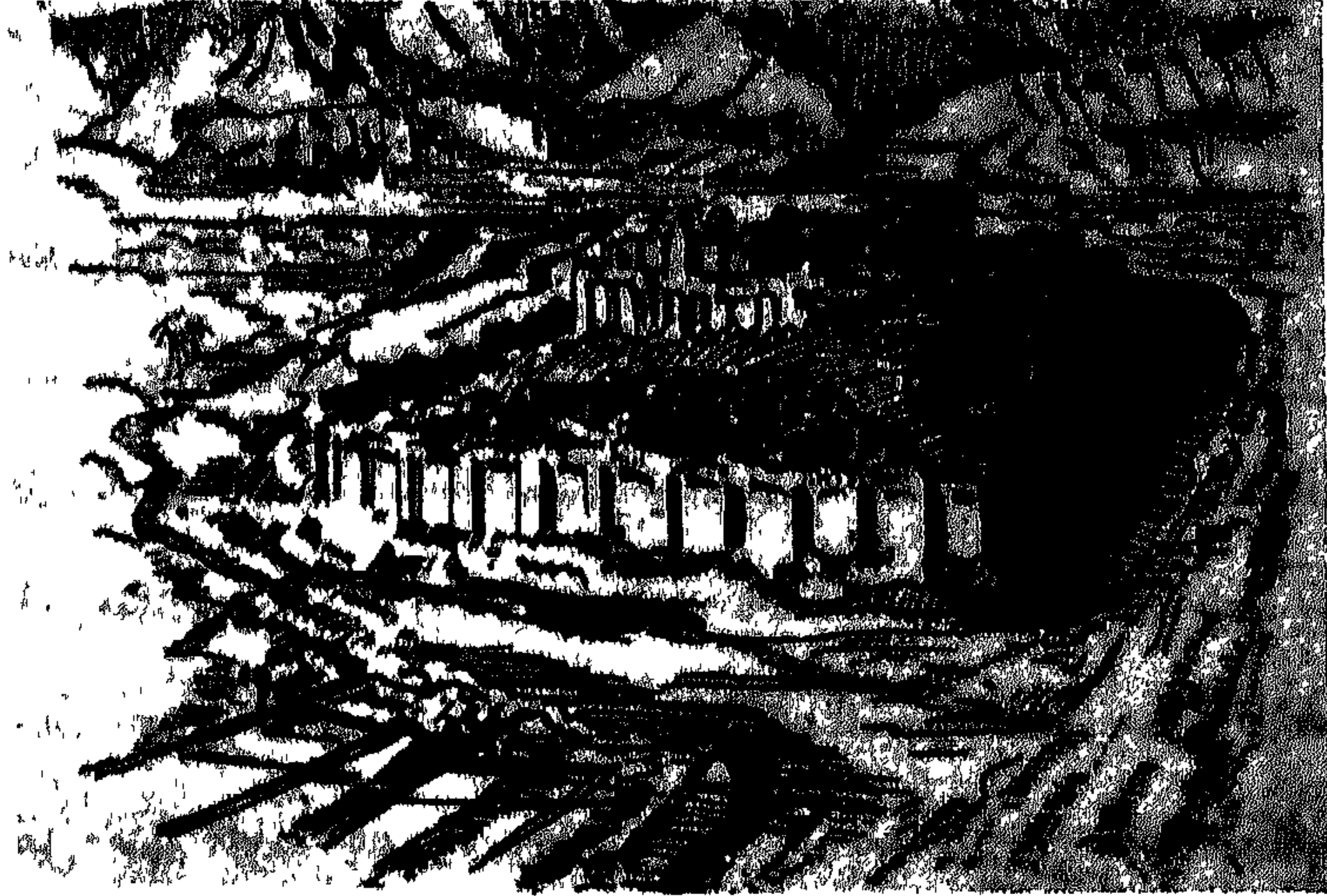
بالرغم من أن حضارة الإيرانيين كانت مثل حضارة الحيثيين مبنية على مجدها العسكري إلا أنها تميزت ببعض المظاهر التي تدل على رقيهم في مضمار الحياة المدنية وإن كان الكثير من أصول هذه المظاهر قد اقتبس من غيرهم ، ومع هذا فقد فاقوا كثيراً من الأمم في تطوير هذه المظاهر الحضارية واستحداث مظاهر أخرى .

ولاشك في أن المرأة في العصور السحيقة قامت بدور حاسم في الحياة الاجتماعية وتعرفت على الكثير من الأشياء التي كان لها أكبر الأثر في حياة الإنسان ، فإليها يمزى التعرف على بعض الثمار الصالحة للطعام وملاحظة بعض النباتات في نموها - وقد تكون جهودها هي التي أسفرت عن معرفة الزراعة واختراع الألوان الفخارية . وربما كانت ضخامة الدور الذي قامت به بالقياس إلى دور الرجل هي السبب في اتباع النظام الأموي في كثير من المجتمعات البدائية ، ولا بد أن هذا النظام كان سائداً بين سكان الحضبة القدامى ثم انتقل منهم إلى الآريين فيما بعد - ومن المرجح أن المرأة استطاعت أن تتحكم في شئون الجماعة وتمتعت بمكانة جعلتها تصل إلى أقوى المراكز فقامت في بعض القبائل بقيادة

الجيوش ^(١) كذلك كانت تصل إلى الكهانة . وكانت الوراثة تنتقل في فرع المرأة باعتبارها بمثابة لنقاوة العنصر إذ يغلب على الظن أن تعدد أزواج المرأة كان شائعا كما كان زواج الأخ من أخته مألوفاً - وقد ظل هذا النظام الأخير إلى عصور متأخرة وكان منتشرا في مختلف أقطار الشرق الأدنى ، ومن الغريب أن زواج الأم بالإبن كان معروفا في الحضبة ولكنه كان نادراً .

وكان المجتمع الإيراني ينقسم إلى طبقات : الأمير والنبلاء ويليهم الرجال الأحرار الذين يملكون ضياعا ثم الأحرار المعدمين ، وأخيرا العبيد - وكان الملك على رأس الدولة ويلقب بلقب « خشائرا » أى « المحارب » مما يبين الصفة العسكرية للملكية الفارسية ، وكان سلطان الملك مطلقا يملك ويحكم وأوامره مطاعة نافذة ، غير أنه كان يتقيد بتقاليد وعادات موروثة إذ أنه كان يهب الأعيان والنبلاء بعض الاقطاعات ويجعل منهم مجالسا للشورى يصدر أوامره بعد الرجوع اليه ، وكان أعضاء هذا المجلس هم الوسطاء بينه وبين الشعب - وكان الناس يعتقدون بأن الملك ملهم يستمد أحكامه من إله الخير « أهورا مزدا » أى أن المشيئة الإلهية كانت أساس الحكم في الدولة . ومن يخالف أوامر الملك كان يعد آثما في حق الإله الأعظم ، وبمرور الزمن انصرف الملوك عن بعض شئون الحكم وعهدوا بها إلى أشرافهم ورجال قصورهم وتفرغوا للملاذم مما أدى إلى ضعفهم في النهاية - وكان من المؤلف أن يبنى الأمير مقره فوق تل

صناعى بينما تكون مساكن المدينة عند أسفل هذا التل ويحيط بالجميع سور ضخيم يدعم على الجوانب بأبراج قوية (انظر شكل ٥٥) وكانت بيوت هؤلاء الأمراء والسادة العظام تضم عدداً من الخدم والرقيق من النساء والرجال كما تضم عدداً من ذوى المهن المختلفة ينتجون لسادتهم كل شيء ، ولم يكن الفنانون الاحرار يستخدمون إلا قليلا .



(شكل ٥٥) : مدينة إيرانية قديمة

وكان الأعيان والنبلاء أصحاب سلطة تكاد تكون مطلقة في عواصمهم .
يسننون القوانين وينفذون الأحكام القضائية ويجبون الضرائب ولهم قواتهم المسلحة الخاصة بهم ، وفي مقابل هذا كان عليهم أن يمدوا الملك بالمال والعناد وقت القتال .

وكان القرويون يتمتعون بقسط أوفر من الحرية مما كان يتمتع به

أقرانهم في بلاد النهرين أو مصر إذ كانت الملكيات الصغيرة توجد إلى جانب الاقطاعيات الكبيرة ، وقد أخذ نظام الملكيات الصغيرة في الانتشار إذ كان يشجعه الميل الغريزي نحو الانفرادية .

ومع أن الميدين كانوا يعيشون حياة زراعية في قرى إلا أن الحكومات المركزية لم تكن موجودة في أول الامر ؛ وكان كل أمير يعتمد إلى جانب مزارعه ومراعية على مناجمه وغنائه في الحروب وما يتقاضاه نظير حمايته للتجار الذين كانوا في بداية الامر من غير الإيرانيين ، وبالطبع كان الامراء يشجعون النشاط التجاري للعمل على زيادة دخلهم .

وكان الفرس يميلون إلى التزين فأكثروا من استعمال أدوات التجميل والمساحيق والزيوت العطرية والاصباغ حتى أن الملوك كانوا لا يخرجون إلى الحرب دون أن يحملوا معهم زيوتهم العطرية ، واستخدموا أنواعا مختلفة من الحلى مثل الأقراط والخلاخيل والتتائم والاساور وغيرها كما كانوا يستعملون التيجان والاحذية .

الدولة

سبق أن أشرنا إلى الدويلات التي كانت منتشرة في الهضبة ، كما أشرنا إلى اعتماد كل أمير في موارده على منتجات أراضيهِ ومراعيهِ إلى جانب الغنائم التي كان يحصل عليها من حروبه والمكوس التي كان يفرضها على التجار - وحينما اتسعت رقعة الامبراطورية نجح ملوكها في تنظيم إدارتها نجاحا كبيرا وقد وضعوا أسسا ثابتة لتنظيمها إذ أنهم قسموها إلى عشرين ولاية تشمل مختلف الاقطار والجهات التي أخضعوها - وكان الملك يعين لكل ولاية حاكما هو الوالي الذي كان بمثابة الملك فيها لأن الولاية كان لها كيانه السياسي الخاص بها ، ولذا كان الملك الفارسي يلقب بملك الملوك .

ومع أن الولاة كانوا أعوان الملك في إدارته لامبراطوريته إلا أنهم كانوا أحيانا مصدر خطر على الامبراطورية وخاصة إذا ما أرادوا الاستقلال أو أصبحت وظائفهم وراثية ، ولتجنب هذا الخطر عمد الملك إلى تعيين قائد لجيوش الولاية مستقل في اختصاصه عن الوالي ويتبع الملك مباشرة كما كان يعين سكرتيرا للولاية ورئيسا لموظفيها الماليين ويرسل إليها عددا من المفتشين الذين يحملون ألقابا مختلفة توحى بمهامهم مثل « عين الملك » ، « رسول الملك » ، « أذن الملك » وهؤلاء جميعا كانوا يتبعون الملك مباشرة ومعظمهم كان من الأسر النبيلة .

وبما ساعد على نجاح الامبراطورية في إدارة ممتلكاتها أن الاباطرة أنشأوا بها كثيرا من الطرق ونظموا البريد لتيسير الاتصال بينهم وبين

مختلف أنحاء إمبراطوريتهم ، ومن أهم هذه الطرق طريقان كبيران أنشأهما دارا : أحدهما يصل بين ليديا والعواصم الفارسية ، والثاني يبدأ من مصر إلى فارس ويمتد شرقا حتى حدود الصين - كما أنشأوا المراكز التجارية والخانات لتأمين المسافرين ومدعم بها يحتاجون إليه من زاد ومؤون فكانت هذه الطرق والوسائل سببا في تثبيت الحكم المركزي وعاملا من عوامل نقل المظاهر الحضارية بين مختلف أنحاء الشرق الأدنى القديم - ولم تقف عقبة في سبيل الانتقال من مكان إلى آخر إذ اشتهر الفرس بإقامة القناطر على الأنهار بحيث تتحمل عبور مئات الأفيال فوقها .

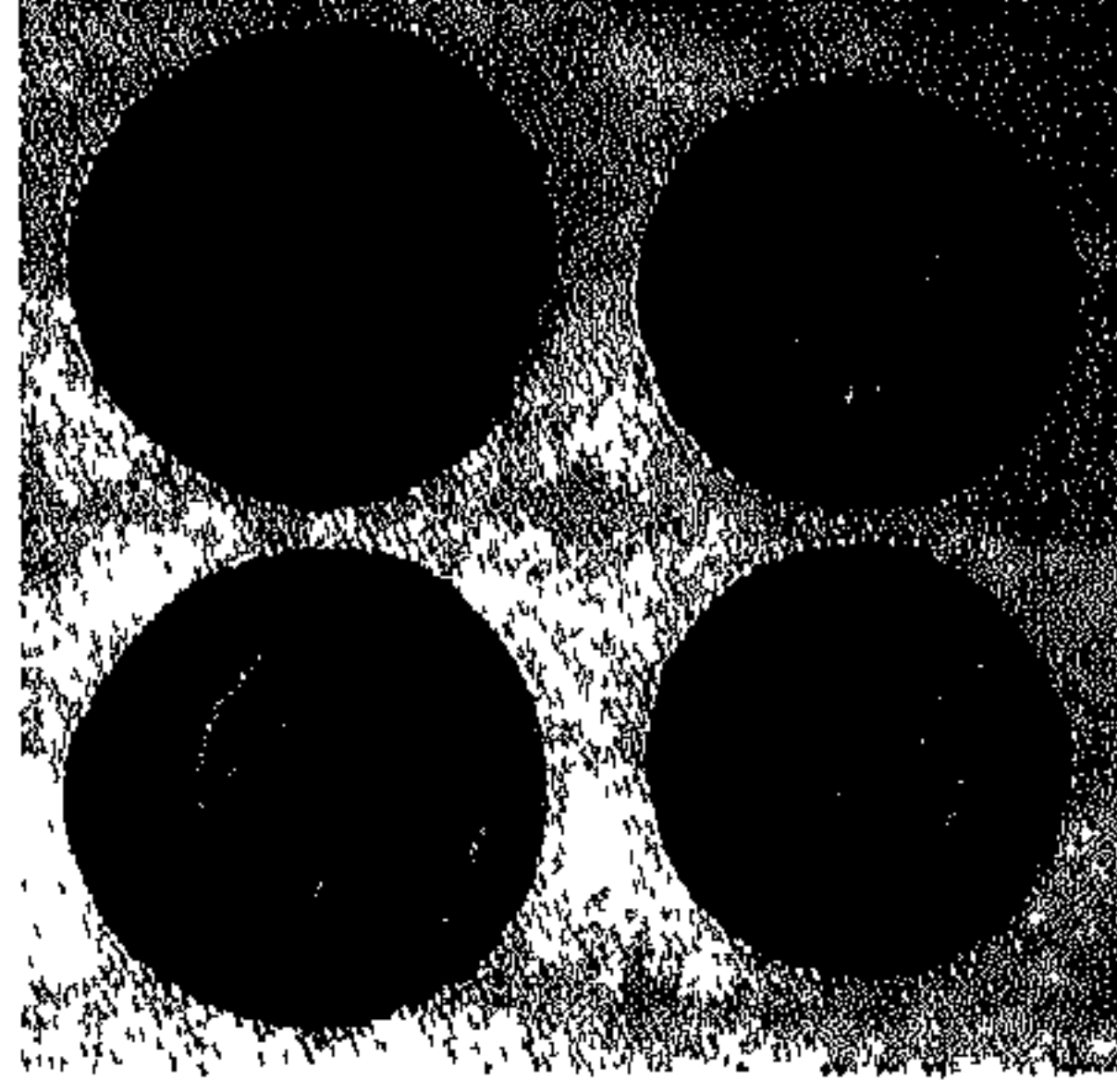
وقد تمتعت الولايات التابعة للإمبراطورية بشيء من الحرية إذ سمح لها باستعمال لغتها الخاصة وعاداتها وتقاليدها وديانتها وعملتها ، بل وبقاء أسرتها الحاكمة أحيانا مما جعل بعض الولايات تحس بأنها أحسن حالا في تبعيتها لفارس من خضوعها لقادتها أنفسهم لأن هؤلاء الآخرين كانوا يرهقونها بالضرائب بينما كان ملوك فارس وخاصة دارا الأول يحدد الضرائب التي تجبى من كل ولاية على حسب إمكانياتها الطبيعية .

وقد اهتم معظم الملوك بتحسين إنتاج الأراضي الزراعية فلجأوا إلى حفر القنوات كما نقلوا بعض النباتات والأشجار والحيوانات والطيور من بيئة إلى أخرى بقصد تعميمها وتنميتها في غير مواطنها التي جلبت منها كما حاولوا استنبات أنواع جديدة من النباتات في مختلف أنحاء الإمبراطورية، ومع أن الفلاحين كانوا مرتبطين بالأرض في الملكيات الكبيرة بحيث يسكنون ما يشبه الرقيق إلا أن بعض الفلاحين كانت لهم ملكياتهم

الصغيرة التي يتمتعون فيها بقسط من الحرية .

وكان اتساع رقعة الامبراطورية وانضواء كثير من الولايات الغنية المختلفة الموارد تحت لوائها سببا في جمعها قدرة على الاكتفاء الذاتي من الناحية الاقتصادية إذ لم تعوزها الموارد التي تحتاج اليها ، فالأخشاب الجيدة التي تستخدم في البناء وصنع السفن والعربات والاسلحة والمعدات الحربية وغيرها كانت موجودة على الساحل الفينيقي وآسيا الصغرى وكريت وقبرص ، والفضة والنحاس والحديد كانت تأتي من قبرص كذلك ، ومن آسيا الصغرى يأتي النحاس والفضة ، ومن إقليم كرمان كان يأتي الذهب والفضة - وإلى جانب هذه المعادن كانت أحجار البناء الجيدة تجلب من عيلام وتجلب الأحجار الكريمة وشبه الكريمة من جهات أخرى مختلفة ، وبما زاد الحالة الاقتصادية إنعاشا أن موارد الثروة السمكية في دجلة والفرات والخليج العربي كانت من الوفرة بحيث كان من الممكن تصدير الفائض منها بعد أن تملح وتقدد .

وقد عمدت الدولة إلى تيسير التعامل فاستخدمت النقود المسكوكة ابتداء من عهد دارا الأول (شكل ٥٦) - وربما كان استعمالها مقتبسا عن الليديين ولو أن أوزانها وأقسامها مأخوذة عن النظام البابلي في تقسيم الوحدات القياسية - كذلك شجعت مصارف المعابد والمصارف الخاصة التي كانت تقوم بإقراض المحتاجين كما أن مبدأ الإئتمان أو أوراق الاعتماد والسندات كانت معروفة وإن كان من الممكن أن نرجع هذه النظم جميعها إلى أصول بابلية - ومع أن الفرس استحدثوا كتابة مسمارية اقتبسوها من الخط البابلي إلا أن اتساع رقعة الامبراطورية ومحافظه الشعوب التي



(شكل ٥٦) : نماذج من العملة الفارسية

دخلت تحت سلطانها على تراثها القديم لم ييسر انتشار هذه الكتابة، وعلى ذلك ظلت هذه الأمم تستعمل لغاتها وكتاباتهما الخاصة - إلا أن الفرس استعملوا في معاملاتهم التجارية والمعاملات المشتركة الأخرى الكتابة الآرامية في كتابة مدوناتهم إلى جانب الخط الفارسي المسماري، كما استعملوا اللغة الآرامية ذاتها أحيانا مما ساعد على نشاط التعامل التجاري إذ أن الخط الآرامي كان واسع الانتشار في الشرق الأدنى القديم (أنظر أعلاه ص ١٦٧ - ١٦٨) .

وقد استتب النظام في أنحاء المملكة في أوقات نهضتها بفضل سيادة القانون وعدم التهاون في تطبيقه، ويبدو أن القضاء في فارس كان يشبه القضاء في بابل إلى حد بعيد، وكان الاهتمام منصبا على تطبيق العدالة في مختلف النواحي - ومن المرجح أن القضاة كانوا يستبقون في مراكزهم مدى الحياة ما لم ينسب إليهم ما يدعو إلى فصلهم بسبب سوءهم عن العدالة - وكان الملك هو مصدر القوانين والشرائع وأحكامه تعتبر مستوحاة من الإله نفسه ولذا اشتهر الفرس بالتمسك بالقانون، وكان الملك نفسه

يعتبر المحكمة العليا التي تستأنف إليها الأحكام وإن كانت تليه محكمة عليا خاصة مكونة من سبعة قضاة ويلى هذه المحكمة المحاكم الأخرى التي تنتشر في أنحاء المملكة - وقد نشأت جماعة خاصة متضامنة في الشئون القضائية كانت أشبه بالمحلفين ، وكانت الرشوة من الجرائم الكبرى ولم يتهاون الملوك إطلاقا في معاقبة القضاة الذين لا يلتزمون العدالة حتى أنه ينسب إلى قبيز بأنه سلب أحد القضاة وهو حى وجعل من جلده منصة في مكان القاضي وعين ابنه في مكانه - هذا ويلاحظ أن العقوبات كانت في معظمها قاسية تشمل الجلد والتشويه وقطع الأعضاء وسمل العيون إلى جانب الإعدام بوسائل مختلفة .

العسكرية

تدل أقدم النقوش على أن المحاربين كانوا ينقسمون إلى مشاة وفرسان يركبون الجياد وفرسان يستخدمون العربات التي يجر كل منها زوج من الخيل ، ويتميز الخيالة بما يلبسونه من أغطية تنحني في مقدمتها إلى أعلى - وقد عثر في بعض المقابر على أسلحة مختلفة منها السيوف والخناجر والدروع ورؤوس السهام وكلها كانت من البرونز أو الحديد ، كذلك عثر على أعنة للخيول وحلى لرؤوسها وصدورها .

وكانت الخدمة العسكرية إجبارية لكل ذكر سليم بين سن الخامسة عشرة والخمسين ، ويبدو أن الجندية كانت محبوبة إذ كان الجند يخرجون إلى القتال بموسيقام بين تهليل الأهالي - وكان الجيش يخضع لإشراف الحرس الملكي الذي يضم عدداً من النبلاء والإشراف ومهمته حراسة

الملك والمحافظة على حياته وكان غالبا يتألف من ألفين من الفرسان ومثلهم من المشاة - أما الجيش نفسه فكان يتألف من وحدات أساسية نظامية ووحدات أخرى عامة ، وكانت الوحدات الأساسية تتكون من الفرس فحسب وهى التى يعتمد عليها فى صيانة الأمن فى أنحاء الامبراطورية أما الوحدات العامة فتتضم فرقا من شعوب مختلفة ترسل إلى الأقطار الخاضعة للإمبراطورية وكل فرقة منها كانت تتبع أساليبها الحربية وتحفظ بتقاليدها وأسلحتها ولغتها القومية ، ولهذا فإنه على الرغم من الضخامة التى كان يصل إليها عدد الجيش فإن نقطة الضعف فيه كانت تتلخص فى انعدام الوحدة والتناسق بين مجموعات المختلفة لاختلاف عتادها وتنظيمها .

أما عن الأسطول فلا شك أن تجربة الفرس فى ركوب البحر كانت فى بداية الأمر أقل منها لدى غيرهم ولذا كانوا يستعينون بالفينيقيين ، ومع هذا لم يدخر الفرس وسعا فى إنشاء أسطول قوى كان يضم سفنا فينيقية ويونانية ، واستخدموا فيه المصريين والقبارصة والسوريين وغيرهم إلى جانب الفينيقيين ويونان آسيا الصغرى - واستطاعوا أن يسيطروا على البحر المتوسط والمحيط الأطلنطى وكانت سفنهم التى صنعها الفينيقيون بأمر ملوك فارس على ثلاثة أنواع : سفن الهجوم وناقلات الجنود والخيول وناقلات الأمتعة والذخائر ، وكانت هذه الأخيرة صغيرة الحجم نسبيا - وقد أدى هذا التفوق البحرى إلى عنايتهم بالتجارة البحرية والعمل على حمايتها ونشاطها وقد أرسلوا بعثات استكشافية من الهند إلى البحر الأحمر ومن الجزائر إلى اليونان وإيطاليا كما شقوا القناة التى توصل بين النيل والبحر الأحمر .

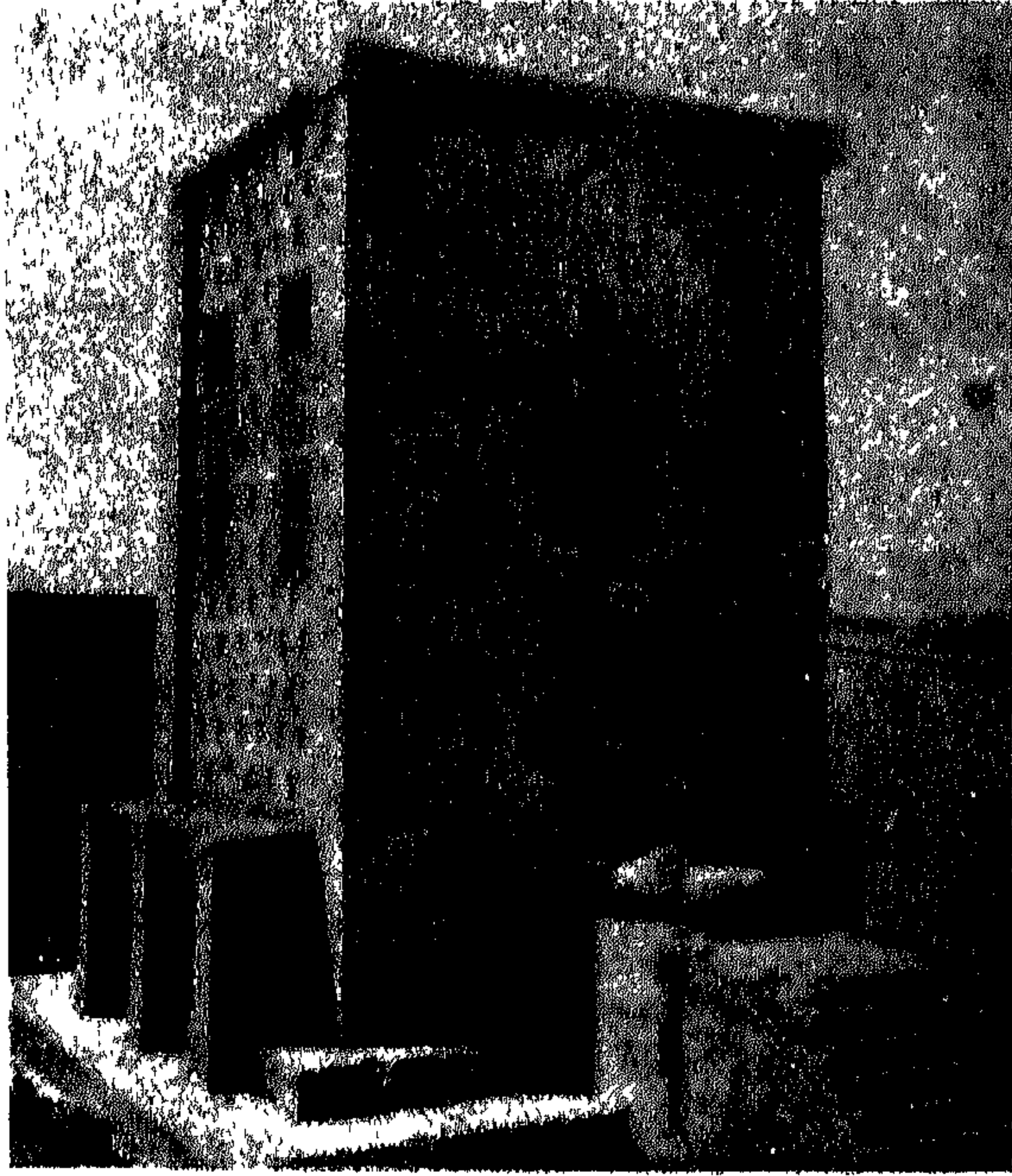
الديانة

كان الآريون كغيرهم من شعوب العالم القديم يعبدون معبودات ترتبط بظروف بيئتهم ، ونظراً لأنهم كانوا يعيشون في مناطق جبلية فإن أهم معبوداتهم كان زوجا من الآلهة أحدهما إله العواصف والمطر والثاني إلهة الشمس أحيانا والأرض أحيانا أخرى ، إلى جانب ما عبدوه من الحيوانات والأجداد . وكان الفرس كغيرهم من الشعوب الأخرى يعبدون قوى الطبيعة المختلفة فعبدوا الشمس كإله باسم « مثر » ، والأرض باسم « زام » ، والرياح باسم « وهيو » كما عبدوا الماء والنار أيضا ، وكانوا يقسمون الموجودات إلى قسمين : موجودات خيرة تصدر عن قوى الخير وتبعث على السعادة ومن مظاهرها النهار والخصب والصحة والجمال والاستقامة وما شابهها ، وموجودات شريرة تصدر عن قوى الشر وتبعث على البؤس والشقاء ومن مظاهرها الليل والقحط والقبح والخداع وغيرها ، كما أنهم كانوا يعتقدون بأن قوى الخير والشر في صراع دائم وربما كان هذا هو السبب في عبادتهم لآلهة مختلفة . ويبدو أن عدداً من الآلهة كانت تتطلب تضحيات دموية ربما كانت ترجع طقوسها إلى أصول سحرية ، وهذه الطقوس كان يقوم بها طائفة من رجال الدين يطلق عليهم اسم « ماجى » أى « المجوس » . وكانت هذه الطائفة تلعب دوراً كبيراً في الحياة الدينية والاجتماعية رغم أنها كانت تعيش في عزلة ويتزوجون داخليا فيما بينهم فهم الذين يقومون بتفسير الأحلام ، ويلعبون دوراً في تنويع الملك الجديد كما كانوا يصحبون الجيش للقيام بطقوس التضحية ، وكانوا مسئولين

عن تعليم الشبان حراسة المقابر الملكية وكان يهد لهم بصنع الشراب المسكر الذى يستخدم أثناء الطقوس الدينية . وكان يبعه قاصراً عليهم كذلك ، ومع أن أصلهم وأصل ديانتهم غير معروفين إلا أنه يبدو أن هذه الديانة لم تكن فارسية النشأة لأنهم كانوا لا يدفنون جثث موتاهم بل يتركونها فريسة للوحوش والطيور الجارحة .

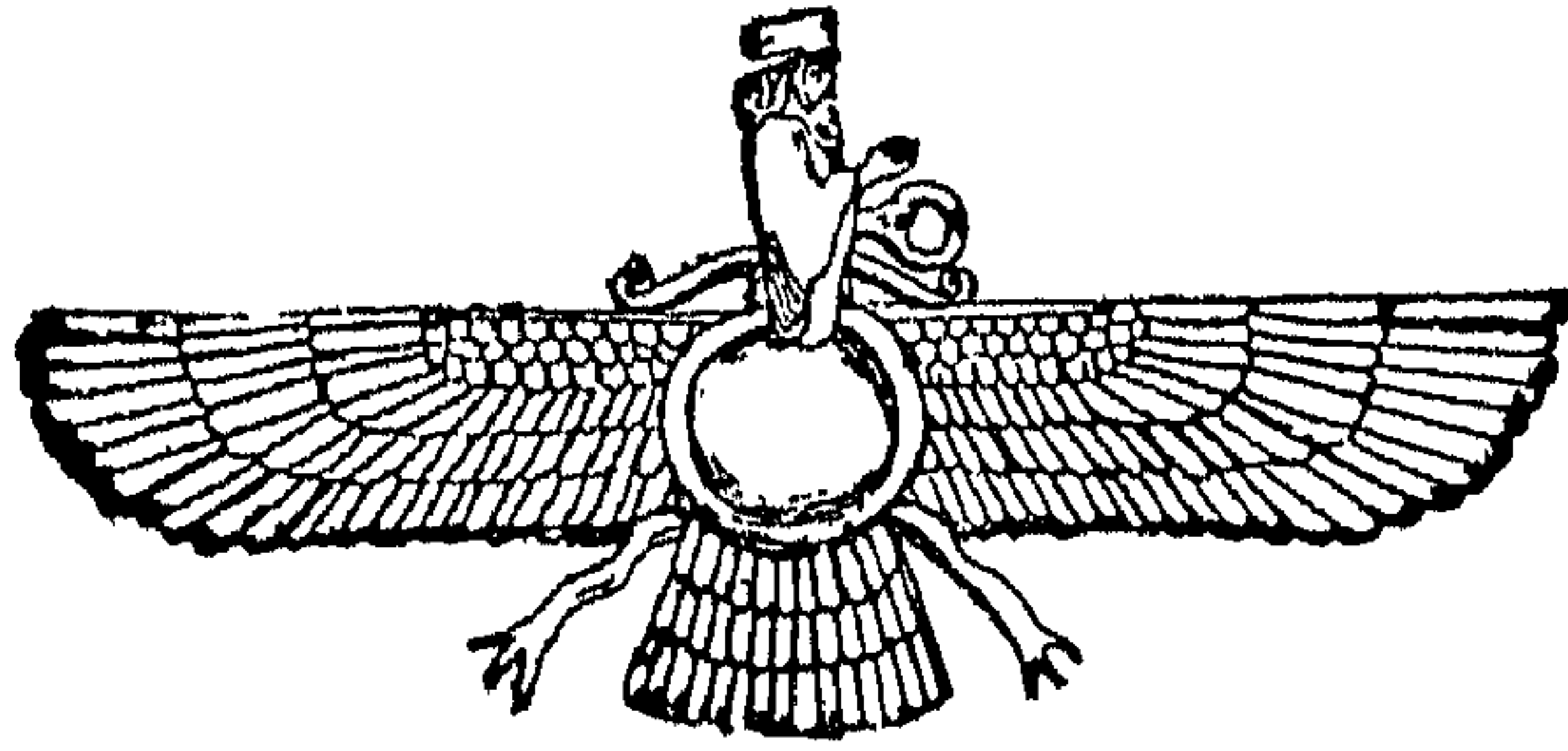
ومع أن هيرودوت ينسب إلى الفرس عدم وجود معابد أو تماثيل للآلهة لديهم إلا أن الآثار تثبت غير ذلك فتعد عشر على بقايا ثلاثة معابد من عصر الاخمينيين وكل منها فى هيئة برج مربع يشمل حجرة واحدة يمكن الوصول إليها بدرج وفيها كان المجوس يرعون النار المقدسة (شكل ٥٧) - ويبدو أن الاحتفالات الدينية كانت تقام فى الهواء الطلق حيث عشر على المذابح (وكانت عادة أزواجاً) فى العراء بعيدة عن المعابد ، وإلى هذه المذابح كانت تساق حيوانات التضحية فى موكب حافل بالعربات التى تجرها خيول مقدسة ، وكانت التضحية تتم فى حضور الملك من أجل إله الشمس ، كذلك صنع الفرس التماثيل لآلهتهم ، وتبين نقوش المقابر الملكية الأئراء وهم يقومون بالتضحية أمام مذبح من فوقه قرص مجنح يبرز منه رأس وكتفى الإله « أهورامزدا » ، (شكل ٥٨) الذى كان يعتبر الإله الحكيم الذى يحكم السماء ويشمل الأرض ويحميها بجناحيه كما يحمى الملك الذى يعد نائباً عنه على الأرض .

وقد نشأت هذه الديانة على يد حكيم يعرف باسم « زرادشت » كان يعيش فى ميديا ولكنه غادرها ليؤسس دينه الجديد فى شرق إيران - ومع أن تاريخه ما زال موضع جدل إلا أن من المعتقد بأنه كان يعاصر



(شكل ٥٧) : معبد النار في نقش رستم

« هيستاسبس » ، والد « دارا » ، الذي كان واليا على إقليمى « بارثيا » ، و« هركانيا » أيام قمبيز وأن هذا الوالى كان من بين الذين استموتهم الديانة الجديدة ، ثم أخذت هذه الديانة بعد ذلك فى الانتشار تدريجيا فى أنحاء فارس - وكانت فكرتها تتلخص فى أن العالم يحكمه عاملان : الخير ويمثله الإله « أهورامزدا » والشر وتمثله روح شريرة هى « أمريمان » ، وتذهب الروايات إلى أن مولد زرادشت قد اقترن بالمعجزات وأنه نشأ محبا للحكمة والحياة العزلة والاعتكاف وآمن بأهورامزدا كإله قدير للنور وأن هذا الإله ظهر له ووضع « الأвестا » بين يديه ، وهو كتاب مملوء



(شكل ٥٨): الإله أهورامزدا

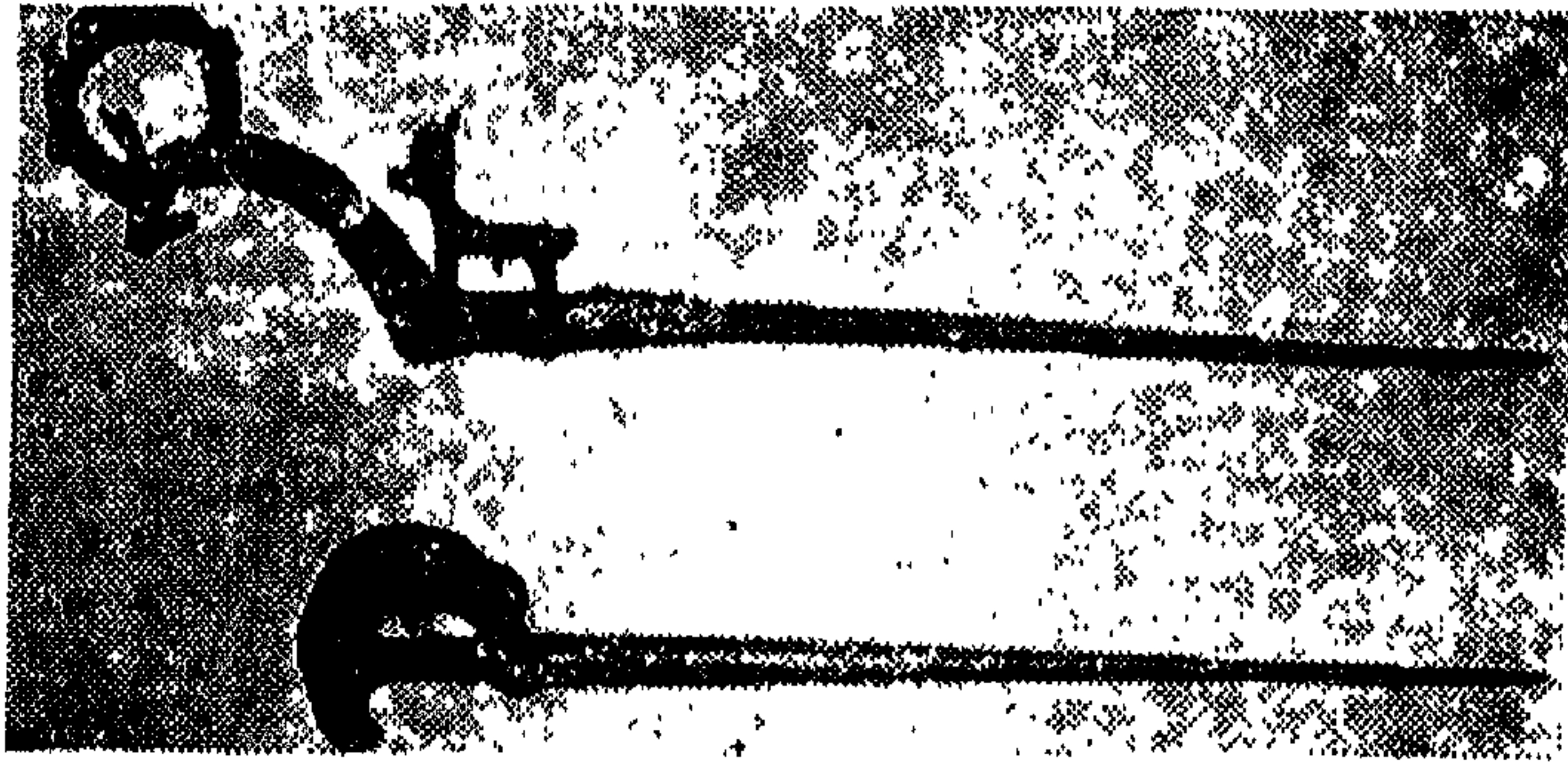
بالمعرفة والحكمة وأمره بنشر تعاليمه بين الناس جميعا - وقد قاسى فى سبيل ذلك كثيراً حتى اضطر إلى الهجرة إلى شرق إيران على نحو ما بينا وما أن تمكن د دارا ، (الأول) من اعتلاء العرش حتى رأى بأن ما يدعو إليه زرادشت يوحى بعناصر الخير فى نفوس شعبه فجعله الدين الرسمى للدولة وبذلك تحول الفرس من عبادة آلهة متعددين إلى عبادة معبود واحد ، غير أنهم كانوا يعتقدون بوجود مجموعة من الملائكة الحارسين والكائنات المقدسة التى تعين على الخير وإلى جانبها توجد سبعة من الشياطين أو الأرواح الشريرة وهى تسبح دائماً فى الهواء وتسعى لإغراء البشر لارتكاب الآثام والشرور ورئيس هذه الشياطين د أهريمان ، أمير الظلمة وحاكم العالم السفلى ، خالق المعاصى والآثام والثعابين والديدان والآفات وبلايا الحياة ليحطم الجنة التى أسكنها د أهورامزدا ، للسلف - والخلاصة أن فى هذه الديانة ما يشبه الأديان السماوية إذ تعترف بإله واحد إلى جانبه ملائكة وتشير إلى شياطين أو أرواح شريرة رئيسها يشبه إبليس فى الأديان السماوية - وقد صورت هذه العقيدة العالم فى صورة مسرح يتصارع فيه الخير والشر وأن النفس

البشرية ميدان لمثل هذا النزاع إلا أن لكل إنسان قوة خارقة تحضه على الاختلاق الفاضلة أى أن الإنسان حر الإرادة يختار بين النور والظلمة وهو مسئول عن أعماله ، كذلك كانت تحض على فعل الخير وتبين أن طبيعة الإنسان الخيرة تدعوه إلى ذلك ، كما حددت واجبات الإنسان في ثلاثة أمور : أن يعمل على جعل العدو صديقاً والشرير صالحاً والجاهل عالماً ، كما بينت أن أعظم الفضائل هي الصلاح والشرف والأمانة في الأقوال والأفعال .. كذلك نصت على التقرب إلى الإله بالتطهر والتضحية والصلاة ، ومع أنها نهت عن إقامة الهياكل والأصنام إلا أن معتقبيها أقاموا المعابد على سفوح التلال وفي ساحات القصور وأواسط المدن وأشعلوا فيها النيران المقدسة قرباناً للإله أهورامزدائهم بالغوا في تقديس هذه النيران حتى وصلت إلى درجة العبادة كما قدسوا الشمس باعتبارها نار السماء الخالدة .

وقد أصبح الدين الزرادشتي المصدر الروحي للفرس منذ عهد دارا الأول واكتسب رجاله قوة وتأثيراً في الناس إلى درجة أن أصبح ملوك الفرس لا يقبلون على شيء إلا بعد استشارتهم . وتشير « الأفاستا » إلى قرب نهاية العالم حيث تبين أن زرادشت ولد قبل نهاية العالم بثلاثة آلاف سنة وسيظهر من بعده ثلاثة أنبياء من نسله ينشرون دينه في فترات متباعدة ويبحث الأخير منهم حينها تكون الدنيا خراباً فتصلح الأحوال يبعثه ثم تنتهي الدنيا وتقوم القيامة ويخلو الكون من أعراض الشينخوخة والهزال والموت إلى الأبد .

الفنون

لم يعثر على آثار كافية توضح ما كانت عليه الفنون المختلفة التي سادت بين الإيرانيين القدامى ، كما أن دولة الميديين كانت قصيرة الأجل فلم تساهم بنصيب وافر في حضارة الشرق الأدنى القديم ، غير أنه يستدل من أقدم الآثار على أن سكان الحضبة في أقدم العصور كانوا يدفنون موتاهم تحت أسفل المنازل ثم تحولوا عن ذلك إلى الدفن في جبانات بعيدة عن المدن ، وكان الميت يدفن ومعه أثاث جنزى يتبين منه أنهم استعملوا الحلى وخاصة من الفضة والبرونز ، إذ عثر على دبابيس تلتهم بأشكال تمثل رؤوس الحيوان (شكل ٥٩) وأساور وحلقان وأحزمة يلبسها الرجال والنساء وخلاخيل من البرونز ومن الحديد أحيانا - كذلك ظهرت في رسوم أواني الفخار عناصر جديدة غير تلك التي كانت شائعة فبدلا من الشمس وأبو منجل التي كانت تمثل في تلك الرسوم



(شكل ٥٩) : دبابيس من البرونز

إلى جانب الزخارف الهندسية المألوفة كانت الشمس والحصان هي
العناصر السائدة .

ومع أن الفرس هم الذين كونوا أقوى الامبراطوريات القديمة في
الهضبة وبلغوا أرقى مرحلة حضارية وصلت إليها ، إلا أنهم لاشك ورثوا
الكثير عن الميديين ، فقد ورثوا عاداتهم وتقاليدهم كما ورثوا طريقة
كتاباتهم ومغالاتهم في إقامة الأعمدة في عماثرهم فضلا عما ورثوه عنهم من
قوانين مختلفة ، أما من ناحية الفنون والآداب فلم يعثر من الأدلة ما يكفي
لإعطاء فكرة واضحة عنها لدى الميديين .

ومع أن الفرس ظهروا كدولة عسكرية صرفت أغلب أوقاتها في الحروب
إلا أنهم لم يهتموا شأن الفنون وإن كانوا قد اعتمدوا في ذلك على أقوام
أخرى واعتمدوا على الفنانين الأجانب في صناعة آياتهم الفنية ومع هذا
فقد تميزوا بحس مرهف جماعهم يقدرون الفنون فحشتموا الأشعار والقصص
الخيالية وأحبوا الغناء والرقص والعزف على مختلف الآلات الموسيقية ، غير
أنهم كانوا بأنفسهم الاشتغال بها إذ كانت في نظرهم من حرفة
المأجورين والمستضعفين .

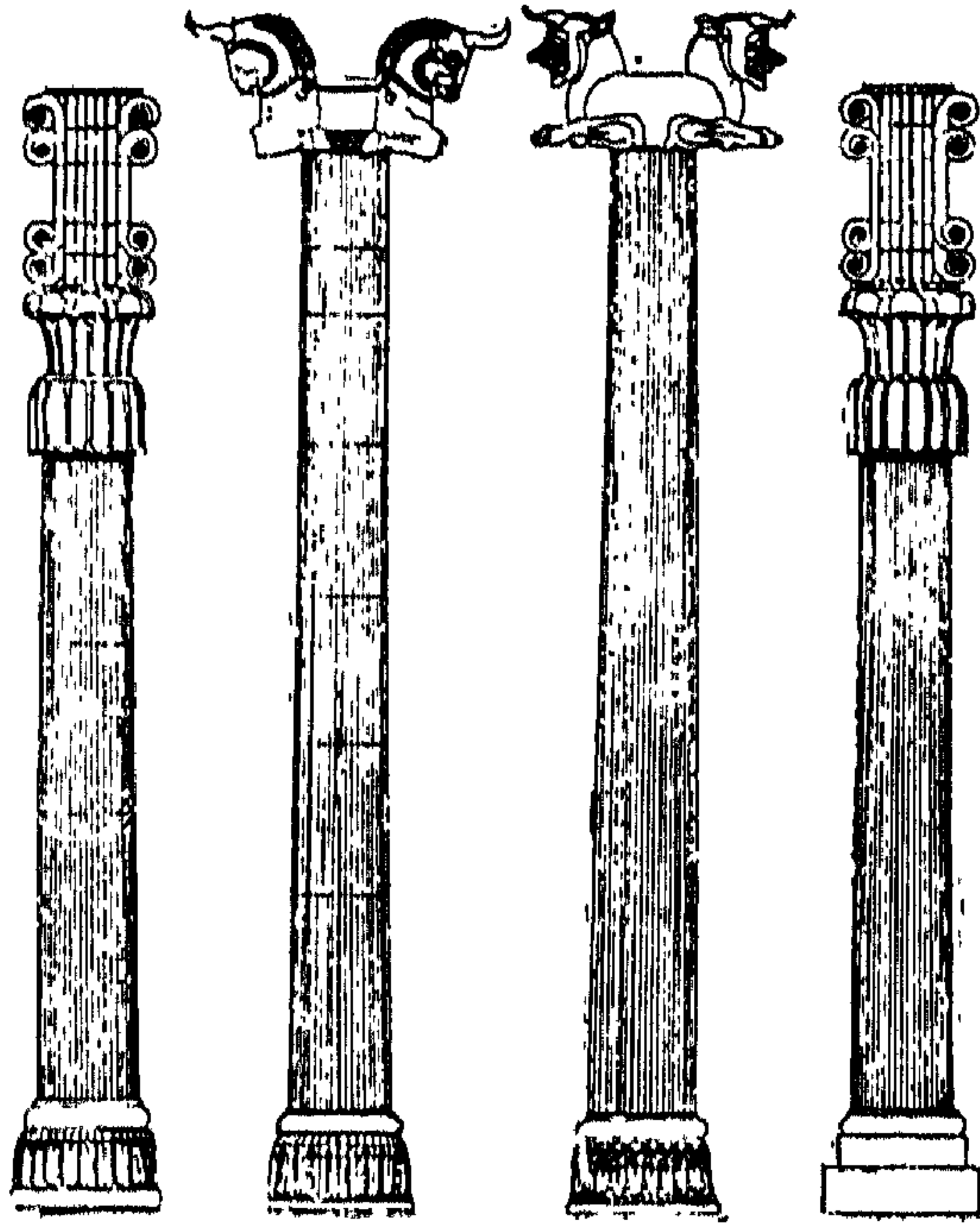
ورغم قلة الجهود الأثرية في هضبة إيران فإن ما عثر عليه من الآثار
حتى الآن يدل بوضوح على مهارتهم في فن العمارة والبناء وقد اشتهرت
بقاياها التي اكتشفت بروعتها الفنية ، فمقبرة كورش في « بازارجادة »
ما زالت رغم تدهورها تعد آية في الروعة والجمال ، كما أن مقبرة دارا
الأول في « نقش رستم » القرية من « برسيبوليس » ما زالت تعد

من آيات الفن فى العالم القديم - ومن أروع الآثار كذلك ما عثر عليه من بقايا قصر اكزركسيس فى « برسيبوليس » ، إذ تعد مجموعة المدرجات الحجرية والساحة الفسيحة وما بها من عمد شامخة من آيات الفن الفارسى القديم - وما يلاحظ أن القصر كان يقام على ساحة مرتفعة يرتقى إليها من أسفل الوادى بدرج خارجى يمتاز بالجمال إلى درجة أن بعض علماء الآثار يعتبرونها أبداع الدرجات الموجودة فى أية بقعة من بقاع العالم - ويبلغ ارتفاع الساحة ما بين عشرين وخمسين قدماً وطولها نحو ١٥٠٠ قدم وعرضها ألف قدم ، وفى أعلى الدرجات يوجد المدخل وهو واسع تحف به تماثيل هائلة لثيران مجنحة برؤوس بشرية (شكل ٦٠) مما يذكر بالتماثيل



(شكل ٦٠) : ثور مجنح من مدخل قصر اكزركسيس

التي كانت تزين مداخل القصور في بلاد النهرين ، وبعد المدخل بقليل نجد مجموعة أخرى من الدرجات على جانبيها جدران قصيرة نقشتم بنقوش بارزة تعد من أجمل ما عثر عليه في إيران ، وهي توصل إلى قاعة تلحق بها بعض الحجرات تشغل ساحة تزيد على مائة ألف قدم ، هذا وقد أقيم قصر اكزركسيس الأول على ٧٢ عموداً لم يبق منها إلا ١٣ فقط مازالت قائمة بين حطام القصر - وتتميز هذه الأعمدة المصنوعة من الرخام بأنها من قطع متصلة وكلها نحيلة دقيقة ويبلغ ارتفاع الواحد منها ٦٤ قدماً وتشبه قواعد الأجراس التي تغطيها أوراق الأشجار المقلوبة الوضع ، وكان كل عمود ينتهي في أعلاه بشكل صدرى ورأى ثورين أو حصانين يتصلان من الخلف (شكل ٦١) وكانت جوانب الأبواب والنوافذ من حجر أسود لامع



(شكل ٦١) : أعمدة تنتهي في أعلاها بزخارف ورؤوس حيوانية

أما الجدران والحوائط فكانت مغطاة بآجر مصقول رسمت عليه صور زاهية تمثل حيوانات وأزهار وإلى خلف هذه القاعة وشرقها قاعة عرفت باسم قاعة المائة عمود لم يبق منها إلا عمود واحد .

ومن الملاحظ أن الفن الفارسي قد اقتبس بصورة واضحة من فنون الدول التي خضعت لسلطان الامبراطورية ولكنه قد طورها حتى بلغت درجة السكال ، فمن المرجح أن الشكل الخارجى لمقبرة كورش متأثر بفن ليديا أما أعمدتها الحجرية الدقيقة فيمكن مقارنتها بالاعمدة الاشورية ، بينما كان بهو الاعمدة الضخمة والنقوش قليلة البروز من الامور المألوفة لدى المصريين وربما استعار الفرس فكرتها منهم - أما تيجان الاعمدة التي على شكل الحيوان فيمكن أن تكون مستوحاة مما رأوه في نينوى وبابل .

ولم يكن التصوير والنحت مستقلين عن العمارة بل كانا تابعين لها وربما كانت الكثرة الغالبة من منتجاتها من عمل فنانين أجانب وفدوا على إيران من مختلف الاقطار التي أخضعوها - وقد حاكى اليونانيون الفرس واقتبسوا منهم إلى درجة أن العناصر الفارسية تبدو واضحة في فن العمارة اليوناني ولذا يمكن أن يقال أن الفرس كانوا وسطاء في نقل مظاهر الحضارة من الشرق إلى الغرب .

خاتمة

إذا كان الإنسان في عصرنا الحاضر في أى بقعة من بقاع العالم
ينعم بنتائج وخبرات لإخوانه من بنى الإنسان في بقاع العالم الأخرى
مما اختلفت المشارب فإنه قد استفاد كذلك من خبرات أسلافه في
المصور السابقة حتى أن من الممكن أن يقال بأن الحضارة في العصر
الحديث لا تخرج في مظاهرها عن كونها استمراراً وتطوراً لمظاهر
الحضارات السابقة التى ظهرت في أجزاء مختلفة من العالم - وقد تنبه
الإنسان إلى فضل الحضارات السابقة واعتبرها التراث الأدمى الذى يجب
المحافظة عليه ودراسته دراسة مستفيضة حتى يمكن الوصول إلى معرفة
أصول وأسس حضاراته الراهنة ، ولذا نجد أن أمم العالم جميعها
تتعاون بصورة أو بأخرى في الحفاظ على هذا التراث ومحاولة إحيائه
بشتى الوسائل ، وعلى ذلك فليس من المستغرب أن نجد الأمم المتحضرة
تساهم بنصيب فعال في إنقاذ الآثار المعرضة للخطر، كما أن كثيراً من الدول
ترسل بعثاتها للتنقيب عن الآثار أو ترميمها أو نشر معلومات وافية
عنها في مختلف الأقطار لافرق في ذلك بين جنسية وأخرى لأن التراث
الحضارى ملك للإنسانية جميعها (١).

وكثيراً ما نجد بعض الدول تأخذها العزة بوجود بعض مظاهر
حضارية قديمة فتحاول جاهدة أن تثبت أنها أقدم الأمم حضارة وأن

(١) أنظر مقدمة الكتاب

أصول الحضارة الأولى قد وجدت فيها ولكن ما دمنا قد ذكرنا بأن التراث الحضارى ملك للإنسانية جميعها فليس المهم لإثبات أسبقية دولة ما فى ميدان الحضارة ولكن المهم أن يكون لهذه الدولة فضل نقل هذه المظاهر الحضارية إلى غيرها من الدول ، والأهم من ذلك كله أن يقوم شعب ما بدور فعال فى نقل وتطور المظاهر الحضارية المختلفة وأن يعطى منها لغيره كما يتقبل من غيره بعض المظاهر الأخرى وهكذا - ومن الجدير بالذكر أن الحضارات القديمة التى لعبت دوراً هاماً فى حياة الناس هى تلك التى نشأت فى منطقة الشرق الأدنى لأن هذه المنطقة بحكم موقعها كانت تتوسط العالم القديم فهى البؤرة التى أشعت المظاهر الحضارية إلى كافة أنحائه - وكان تناوب مختلف أجزاء هذه المنطقة فى الوصول إلى القوة والمجد سبباً فى المحافظة على التراث الحضارى القديم والاخذ بأساليب جديدة دعمت تطوره وانتشاره.

ولاشك فى أن الإنسان لم يجد متسعاً من الوقت للتفكير فى الإنتاج المثر الذى يؤدى به إلى النهوض الحضارى إلا إذا استقر وشعر بالأمن فى بيئته - وقد يرى البعض أن الحضارة تنشأ وترتقى على أساس قاعدة التحدى والاستجابة - بين الإنسان وبيئته - ولكن لاشك فى أن كل إنتاج إنما يبدأ من أجل الكفاح فى سبيل العيش أولاً ثم من أجل الرغبة فى الرفاهية ثانياً ، والأرجح أن ميل الإنسان الطبيعى للترف هو العامل الأول فى نهضة الحضارات ورقياها .

ولإذا ما نظرنا إلى إقليم الشرق الأدنى القديم بصفة عامة لوجدنا أن استقرار الإنسان يتوفر فى بيئاته الزراعية الكبرى التى تبدو فى مصر وبلاد

النهرين بصفة خاصة ووديان الأنهار في مختلف بقاعه بصفة عامة، ولذا نجد أن أقدم الحضارات في هذا الإقليم هي تلك التي نشأت في هذه الجهات الزراعية - وبقدر ما نعم سكان تلك الجهات بالأمن بقدر ما تطورت حضارتهم وتدرجوا في مراتب النهوض والرقى ، وخير دليل على ذلك ما نشاهده من استمرار الحضارة المصرية ودوامها وتطورها ، فبحكم بيئتها السهلة المنعزلة عن جيرانها أمكن اتحادها تحت لواء ملك أو أسرة حاكمة من جهة كما أنها لم تتعرض لكثير من الغزوات من جهة أخرى - وتلى بلاد النهرين مصر في هذا المضمار ولو أن الحضارة فيها لم تتخذ صفة الثبوت والاستمرار في كل جزء من أجزائها في وقت واحد بل كانت تنتقل بين أجزائها المختلفة . ومع ذلك فإن اتصال هذه الأجزاء بعضها ببعض الآخر قد أوجد نوعاً من الاستقرار لحضارتها بصفة عامة كما عملت الأجزاء التي تنتقل إليها هذه الحضارة على تطويرها والنهوض بها - ولاشك في أن سهولة اتصال بلاد النهرين نسيباً بالاقطار المجاورة لها قد جعلها ذات أثر فعال في نقل مظاهر الحضارة من تلك الاقطار وإليها .

ومن الغريب أن كلا من مصر وبلاد النهرين قد اتصلتا ببيئات مغايرة إلا أن أثر ذلك عليهما لم يكن واحداً ، فمن المعروف أن مصر اتصلت منذ أقدم العصور ببلاد النوبة والساحل السوري وكان من أثر ذلك أن أعطت إلى كل من هاتين المنطقتين من حضارتها أكثر مما أخذت منها ، بل ويمكن القول بشيء من التجاوز أنها أعطت إليهما ولم تأخذ عنهما - أما بلاد النهرين فقد اتصلت هي الأخرى بالساحل السوري بل وبساحل آسيا الصغرى كما اتصلت بهضبتي إيران وأرمينيا وقد أعطت من مظاهرها

الحضارية إلى هذه الجهات كما أخذت القليل من مظاهر بعضها الحضارية ، غير أن هذا القليل يمكن ملاحظته على أى حال .

ولابد من أن نشير هنا إلى أن حضارة السهول التى انتشرت فى كل من مصر وبلاد النهرين كانت حضارة سمحة بصفة عامة لاتقسم بالعنف أو القسوة كما هو الحال فى حضارات المناطق الجبلية أو الرعوية وإن كان أهل بلاد النهرين قد اتجهوا فى بعض مظاهر حضارتهم إلى شيء من هذا فإنما يرجع ذلك إلى ما ينتاب يبتهم أحيانا من مظاهر كونية عنيفة كالعواصف وغيرها كما أن الجزء الشمالى منها تسكّر به المرتفعات مما يوحي بأن الآشوريين الذين سكنوا فى هذه المنطقة كانوا أصلب وأعنف من البابليين الذين نشأوا فى جنوب ووسط بلاد النهرين .

ومن دراسة تاريخ المنطقة يتبين لنا أن المناطق الجبلية حينما أخذت بأسباب الحضارة كانت تدين فى أكثرها إلى حضارات سكان السهول ، ومع أن الدول التى نشأت فى المناطق الجبلية مثل الدولة الحيثية فى آسيا الصغرى والدولة الفارسية فى إيران قد انتزعت السيادة من دول السهول التى نشأت فى بلاد النهرين ومصر كما انتقلت إليها مظاهر الحضارات السابقة ونشأت فيها مظاهر أخرى جديدة إلا أن تلك السيادة وهذه الحضارة لم يقدر لهما البقاء بل سرعان ما انتقلا من إقليم الشرق الأدنى بسقوط هذه الدول - وعلى هذا يمكن القول بأن الحضارة فى إقليم الشرق الأدنى شهدت دورين عظيمين أولهما ظل مستمرا فى مناطق السهول والثانى كان فى مناطق الجبال ،

ومع هذا ظلت المظاهر الحضارية قائمة في مناطق السهول فترة طويلة بعد أن زالت عنها سيادتها وخضعت لأهل المناطق الجبلية من إقليم الشرق الأدنى الذين سرعان ما قضى على سيادتهم أهل المناطق الجبلية الأخرى من خارج نطاق الإقليم ، وبعبارة أخرى كانت السيادة والحضارة في أيدي الساميين بصفة عامة ثم انتقلتا إلى أيدي الهندو أوروبيين .

المختار من المراجع العامة

١ - باللغة العربية :

١ - ابراهيم رزقانه وآخرون ، حضارة مصر والشرق القديم ، - القاهرة (الالف كتاب رقم ٥٩)

٢ - أحمد فخرى واليمن ماضيها وحاضرها ، - القاهرة ١٩٥٧

٣ - إرمان - رانكه ومصر والحياة المصرية ، - مترجم - القاهرة ١٩٥٢

٤ - جرنى والحيتيون ، - مترجم - القاهرة (الالف كتاب رقم ٤٥١)

٥ - ديلاپورت د بلاد ما بين النهرين ، - مترجم - القاهرة (الالف كتاب رقم ٣٥)

٦ - طه باقر د مقدمة فى تأريخ الحضارات القديمة ، - جزءان - بغداد

١٩٥٥ - ١٩٥٦

٧ - فرانكفورت وآخرون دماقبل الفلسفة ، - مترجم - بغداد ١٩٦٠

٨ - فيليب حتى دتاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، - مترجم - بيروت ١٩٥٨

٩ - كوثنو د الحضارة الفينيقية ، - مترجم - القاهرة (سلسلة المراجع

الجامعية رقم ١٢)

١٠ - محمد عبد القادر محمد دتاريخ الشرق للقديم ، - القاهرة ١٩٦٥

١١ - محمد عبد القادر محمد دالساميون فى العصور القديمة ، - القاهرة ١٩٦٨

١٢ - مرسى ومصر ومجدها الغابر ، - مترجم - القاهرة

١٣ - موسكانى دالحضارات السامية القديمة ، - مترجم - القاهرة ١٩٦٨

١٤ - نجيب مينخايل ومصر والشرق الادنى القديم ، - الاسكندرية

ب - باللغات الأوربية

- 1 — Albright, " The Archaeology of Palestine " (Pelican, A 199).**
- 2 — Atiyah, "The Arabs", (Pelican, A 350) .**
- 3 — Capart, "Egyptian Art", (London) 1923).**
- 4 — Capart, "Primitive Art in Egypt" (London 1905).**
- 5 — Capart, & Contenau, "Histoire de L'Orient ancien", (Paris 1946).**
- 6 — Childe, " What Happened in History " , (Middlesex 1943).**
- 7 — Contenau, " La Civilisation des Hittites et des Hurrites du Mitani" (Paris 1948).**
- 8 — De Burgh, " The Legacy of the Ancient World ", (Pelican, A 284).**
- 9 — Edwards, "The Pyramids of Egypt", (Pelican A168).**
- 01 — Frankfort, "The Birth of Civilization in the Ancient Near East", (1951).**
- 11 — Ghirshman, "Iran", (Pelican, A 239)**
- 21 — Glanville, "The Legacy of Egypt", (Oxford 1942).**
- 31 — Hayes, " The Sceptre of Egypt ", Vol. I, (New York 1953).**
- 41 — Kees, "Das Alte Aegypten", (Berlin 1955) .**
- 15 — Lloyd, "Early Anatolia", (Pelican A 354).**

- 16 — Maspero, "Art in Egypt", (London 1912).
- 17 — Murray , " The Splendour That Was Egypt " ,
(New York 1949).
- 18 — Petrie, " Social Life in Ancient Egypt ", (London
1923).
- 19 — Roux, "Ancient Iraq", (Pelican A 828).
- 20 — Saggs , " The Greatness That Was Babylon " ,
(London 1962).
- 21 — Scharff & Moortgaat, "Aegyten Und Vorderasien
in Altertum", (Munich 1950).
- 22 — Steindorff & Seele , " When Egypt Ruled the
East", (1942).
- 23 — Wilson, "The Burden of Egypt", (1951).
- 24 — Wilson , " The Cultures of Ancient Egypt " ,
(Chicago 1956).
- 25 — Woolley, "The Beginnings of Civilization", History
of Mankind, Vol. II (New York 1965).

فهرس الاعلام

(١)

آبو (اليفنتين) ١٢٣

آتون ٤٨ ، ٨٠

آدابا ٢٢٢

آدم ٢٢٢

آمون ٢٩ ، ٦٥ ، ٧٣ - ٧٥ - ٧٩ - ٨٢ ، ١٠٧

آنو ٢٠٠ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢

الآراميون ١٦٦ - ١٦٨ ، ٢٤٥

الآريون ٢٧٨

الآشمونين ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤

الآشوريون ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ،

٢٣٩ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٦٢ ، ٢٩٢

الآكديون ٢٠٥ ، ٢٢٤

الآموريون ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٨

الآناضول ١٧٢ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩

الانباط ١٥٣

الايروانيون ٢٦٦ ، ٢٨٣

البابليون ١٩٦ ، ٢١٧ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٩٢

- البترام ١٥٣ ، ١٥٤
البحر الأبيض المتوسط ١٢ ، ٧٧ ، ١٥٤ ، ١٦٢
البحر الأحمر ١٥١ ، ٢٧٧
البحرين ٢٣٨
البرشه ١١٦
التلمود ١٧١
التوراة ١٤٥ ، ١٧١
الجزيرة ٨
المجاز ١٤٥
المحوريون ٢٤٢ ، ٢٦٦
الحيثيون ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ٢٤٢
الخليج العربي ٢٣٨ ، ٢٧٤
الدلتا ١٠ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٩٩ ، ١١٨
الدير البحري ٢٩
ابسو ٢١٩
ايدوس ٧٢ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ١٤٤
ايسس ٧٥
أتارجاتس ١٦٨
اثوم ٧٢
اختانون ٤٨ ، ٨٠ - ٨٢
ادد ١٥٨

- ادفو ٧٦
ارتريا ١٥٣
ارمان ١٢٢
ارمينيا ٢٤٧ ، ٢٦٥ ، ٢٩١
اسبانيا ١٦٢
اسرائيل ٢١٥
اسوان ١٢ ، ١٢٣
آشور ١٥٢ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٨ ، ١٩٨ ، ٢٠٤ ، ٢١٤ ،
٢١٧ ، ٢٢٦ ، ٢٣٨
اشوربانيبال ١٥٣ ، ٢٤٤
أغسطس ١٤٣
افروديت ١٦٥
افريقيا ١٥٣ ، ١٦٢ ، ١٦٠
افغانستان ٢٣٨
اكه ١٥٢
اجزر كسيس ٢٨٥
الأسرة الأولى ٤٤ ، ٥٣ ، ١٣٦ ، ١٣٩
الأسرة الثانية ٩٠ ، ١٣٦ ، ١٣٩
الأسرة الرابعة ٧٩ ، ١٣٠ ، ١٤٤
الأسرة الخامسة ٤٤ ، ٦٠ ، ٧٩ ، ٩٢ ، ١٣٠
الأسرة السادسة ٤٤ ، ٩٧

الأسرة الحادية عشرة ٧٩

الأسرة الثانية عشرة ٦٢ ، ٩٥

الأسرة السابعة عشرة ٨٠

الأسرة الثامنة عشرة ٤٦ - ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٨٨ ، ٩٥ ، ١٥٧

الأسرة التاسعة عشرة ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٦ ، ٨٢ ، ٩٥ ، ٩٨

الأسرة العشرون ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٤

الأسرة الثالثة والعشرون ١٣٩

الأسرة السادسة والعشرون ٩٨ ، ١٦٢

الرومان ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٥٤ ، ١٦٢ ، ١٦٨

السودان ٥٥ ، ٨٠ ، ١٠٨

السومريون ٢٠٥ ، ٢١٧

الشام ١٥٢ ، ١٥٤

الصعيد ٧٨ ، ٧٩

الصومال ١٥٣

الصين ٢٧٣

العبرانيون ١٦٤ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٤

العراق ١٦٢ ، ١٩٥ ، ٢٠٢ ، ٢٢٠ ، ٢٣٠ ، ٢٣٨

العرب ١٤٥ ، ١٥٤

الغيلاميون ٢٥ ، ٢٤٢

الفرات ١٩٦ ، ٢٢٩ ، ٢٤٨ ، ٢٧٤

الفرس ٢٦٧ ، ٢٧٣ — ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ،

٢٨٤ ، ٢٨٧

الفلسطينيون ١٦٩

الفينيقيون ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦١ — ١٦٤ ، ١٦٧ ،

١٧٠ ، ٢١٧

القرآن الكريم ١٤٩

القسططينية ١٤٣

الكاشيون ٢٢٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦٦

لكرنك ٨٠ ، ١٤٣

الكلدانيون ٢٢٦

الكنعانيون ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٩ ، ١٧٠

النخا ١٤٦

المسيح ١٦٨

المدينة ١٤٥

الميتانيون ٢٤٣

الميديون ٢٦٧ ، ٢٨٤

النوبة ٨٠ ، ١١٥ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩١

النيل ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ٧٥

الهكسوس ٦٣ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٩ ، ١٦١

الهند ١٥١ ، ٢٧٧

الوركاء ٢٢٠ ، ٢٢٣

الین ۱۴۰ ، ۱۴۶ ، ۱۵۰ ، ۱۵۳

الونان ۵ ، ۶ ، ۱۱ ، ۱۴۰ ، ۱۴۸ ، ۱۵۴ ، ۱۶۱ ، ۱۶۵ ،

۱۷۲ ، ۱۹۴ ، ۲۷۷ ، ۲۸۷

احتب ۶۹

امنتب الثالث ۲۹ ، ۸۰

انکیدر ۲۱۰ ، ۲۲۲

انلیل ۲۱۶ ، ۲۲۱

اوب وات ۷۲

اوتونبشم ۱۲۰ ، ۲۲۱

اور ۱۵۶ ، ۲۲۴

اورشليم ۱۷۰ ، ۱۷۱

اورکاجینا ۲۲۳

اورنمو ۲۲۴

اوزرریس ۶۹ - ۷۸ ، ۸۱ ، ۸۴ ، ۸۶ ، ۸۹ ، ۱۰۲ ، ۱۳۰ ،

۱۶۴

اوناس ۸۴

اونی ۹۶

امورامزدا ۲۶۹ ، ۲۸۱ ، ۲۸۲

ایا ۲۱۶ ، ۲۲۱ ، ۲۲۲

ایو - ور ۵۲

ایتانا ۲۲۲ ، ۲۲۳

ایزیس ۶۹ ، ۷۱ ، ۷۳ ، ۷۷ ، ۷۸ ، ۸۱

ايسين ٢٢٤

إيطاليا ٢٧٧

ايل ١٦٤

[ب]

بابل ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢١٦ ، ٢٧٥ ، ٢٨٦

بارثيا ٢٨٠

باريس ١٤٣

بازارجادة ٢٨٤

باست ٧٦

بي الاول ٩٥

بتاح ٧٢ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٢

بحر قزوين ٢٦٦

بحيرة المنزلة ٤٣

برسيبوليس ٢٤٥ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥

برايب سن ٧٩

بردية تورين ٧٧

بريطانيا ١٦٢

بس ٨٣ ، ١٦٥

بعل ١٥٨ ، ١٦٤ ، ١٦٩

بلقيس ١٤٩ ، ١٥٠

بوتو ٧٨

بونت ١٢٣ ، ١٥٣

بلاد العرب ١٤٥

بلاد النهرين ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ،

١٩٤ - ١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ ،

٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ - ٢٣٦

[ت]

تجلات باسر الثالث ١٥٤

تحتوت ٦٦ ، ٦٩ ، ٧١ - ٧٢ ، ٧٦ ، ٨٦ - ٨٧ ، ١٢٤ -

١٢٥ ، ١٢٦

تحتوت حطب ١١٦

تحتوتس الاول ١٤٣

تحتوتس الثالث ١٤٣

تدمر ١٥٣ - ١٥٤

تل المارثة ٨ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١

تليبينوس ١٧٥

تيامة ٢١٩

[ج]

جب ٧١ ، ٧٣ ، ٧٥ - ٧٦

جبل طارق ۱۶۲

جیبیل ۱۵۷

جلاجمش ۲۲۰ ، ۲۲۱ ، ۲۲۲

جودیا ۱۵۲

جوفنال ۸۳

[ح]

حتحور ۶۶ ، ۷۶

حتشبسوت ۲۹ ، ۴۶ ، ۱۲۲ ، ۱۴۳

حجر رشید ۲۴۵

حداد ۱۶۷ - ۱۶۸

حضر موت ۱۵۱

حلب ۱۵۷ ، ۱۷۲

حورابی ۱۵۷ ، ۱۷۰ ، ۲۲۴ - ۲۲۵ ، ۲۳۴ ، ۲۳۵ ، ۲۴۱

حورس ۶۹ ، ۷۱ - ۷۳ ، ۷۶ - ۸۰ ، ۸۷ ، ۹۴ ، ۱۵۲

حورعجب ۹۵

[خ]

خاتی ۱۷۲

خفرع ۴۴

خنوم ۶۶ ، ۷۲

خوفو ۱۳۰

[د]

دار الأول ٢٧٣ - ٢٧٤ ، ٢٨٠ - ٢٨٢

دجلة ٢١٩ ، ٢٧٤

دشاة ١٠٠

دمشق ١٥٢

ديودور ٩٢ ، ٩٣

[ر]

رخ م رع ٩٥

رشف ١٥٨ ، ١٦٥ ، ١٦٨

رع ٧٦ ، ٧٨ - ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ١٣٠

رعمسيس الثاني ٢٩ ، ١١٥

رعمسيس الثالث ٦٤ ، ٩٦

رعمسيس الرابع ١١٦

روما ١٤٣ ، ١٦٢

[ز]

زاجروس ٢٦٦

زام ٢٧٨

زبيبة ١٥٤

زمرى ليم ١٥٧ - ١٥٨

زوسر ٩٠

[س]

سبأ ١٤٥ ، ١٤٨ - ١٥٢ ، ١٥٠

سبك ٧٥

ست ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٧ - ٨٠ ، ٨٢

سخت ٦٩ ، ٧٦

سرجون الأول ٢١٤

سرجون الثاني ١٦١ ، ٢٤٧

سقارة ٨

سنوسرت الأول ٩٥ ، ١٣٠ ، ١٤٣

سكر ٨٤

سليمان ١٦١ - ١٦٢ ، ١٧٠

سمسى ١٥٤

سنحريب ١٥٤ ، ١٦٢

سنوحى ١٣٠

سوريا ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، ٢٣٨

سوسه ٢٢٥

سومر ٢١٦

سيتى الأول ١١٥

سيناء ١١٤ ، ١٢٣

[ش]

شبه جزيرة العرب ٢٣٨

شبه جزيرة البلقان ٢٦٦

شميليون ٦

شلنصر الثالث ١٥٢

شليمان ١٧٢

شمتي ١٦٨ ، ٢٢٥

شو ٧١ - ٧٢ ، ٧٥ - ٧٦

[ص]

صروح ١٤٨ ، ١٥٠

صنعا ١٤١

صيدا ١٦٣

[ط]

طروادة ١٧٢

طوروس ٢٣٨

طيبة ٧٣ - ٧٤ ، ١٤٣

[ع]

عائرة (عشترت) أو عشتار أو عشتار ١٤٨ ، ١٥٧ ، ١٦٥ ، ٢١٧ ،

٢٢٠

عمان ۲۳۸
صین شمس ۶۱

[ف]

فارس ۲۴۵ ، ۲۷۳ ، ۲۷۵ ، ۲۸۰
فلسطين ۱۳۰ ، ۱۵۸ ، ۱۶۸
فینوس ۱۶۵

[ق]

قبرص ۲۷۴
قطنة ۱۵۷
قمبیز ۲۸۰

[ك]

کاری ۱۲۰
کاهون ۸ ، ۳۸ ، ۴۰
کبادوکیا ۲۳۸
کریت ۲۷۴
کوروش ۲۸۴ ، ۲۸۶

[ل]

لبنان ۱۱۱ ، ۲۰۳
لجش ۱۵۲ ، ۲۲۳

لندن ٩٢ ، ١٤٣

ليبيا ١٦٢

ليديا ٢٧٣

(م)

مأرب ١٤٦ - ١٥١

مارتو ١٥٧

ماري ١٥٣ ، ١٥٦ - ١٥٧

ماعت ٦٩ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٨٣ ، ٩٥

مانيثون ٧٦

مثرا ٧٨

مدينة هابو ٧٤

مردوك ٢١٦ ، ٢١٩

مصر ٥ ، ٨ ، ١٠ - ١١ ، ١٣ - ١٧ ، ٢٩ ، ٢٢ ، ٤٦ ، ٥٥ ،

٥٩ ، ٧٦ - ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٨ ،

١١٠ - ١١١ ؛ ١٢٢ ، ١٣٠ - ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٥١ - ١٥٢ ،

١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ٢٠٥ ، ٢٥٧ ، ٢٧١ ،

٢٧٣ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ - ٢٩٢

مكة ١٤٥

منف ٦٩ ، ٧١ - ٧٤

موت ٧٤

موسی ۱۶۸
موتو ۷۹
متیانی ۲۶۶
میدیا ۲۱۵
مین ۷۹
مینا ۷۷ ۷۹
میشو ۱۹۴

[ن]

نارام سن ۱۵۲
نبور ۱۴۶
نجران ۱۵۱
نخاو ۱۶۲
نخن (هیراقونبولیس) ۹۵ ، ۱۱۸
نفتیس ۶۹ ، ۷۱ ، ۷۳ ، ۸۱
تازوا ۲۵۳
تجشزیدا ۲۵۲
نوت ۷۱
نون ۷۰-۷۱
نیبور ۱۹۴
نینوی ۲۸۶
نیویورک ۱۴۳

[ه]

هرکاتیا ۲۸۰

هلیوبولیس ۷۱ - ۷۲ ، ۷۴ ، ۷۷ ، ۷۹ ، ۱۴۳ ، ۱۴۴

هومیروس ۱۶۳ ، ۱۷۲

هیرودرت ۹۲ ، ۹۴ - ۱۱۰ ، ۱۹۴ ، ۲۶۱

[و]

وادی الحمامات ۱۲۳

وادی التطرون ۱۲۲

وادی النيل ۵ ، ۱۲ ، ۱۴ ، ۱۵

وادی میاء ۱۱۵

وهیو ۲۷۸

[ی]

یبنخاد ۱۵۷

ینج ۶ ، ۷

یبرا ۱۶۹

